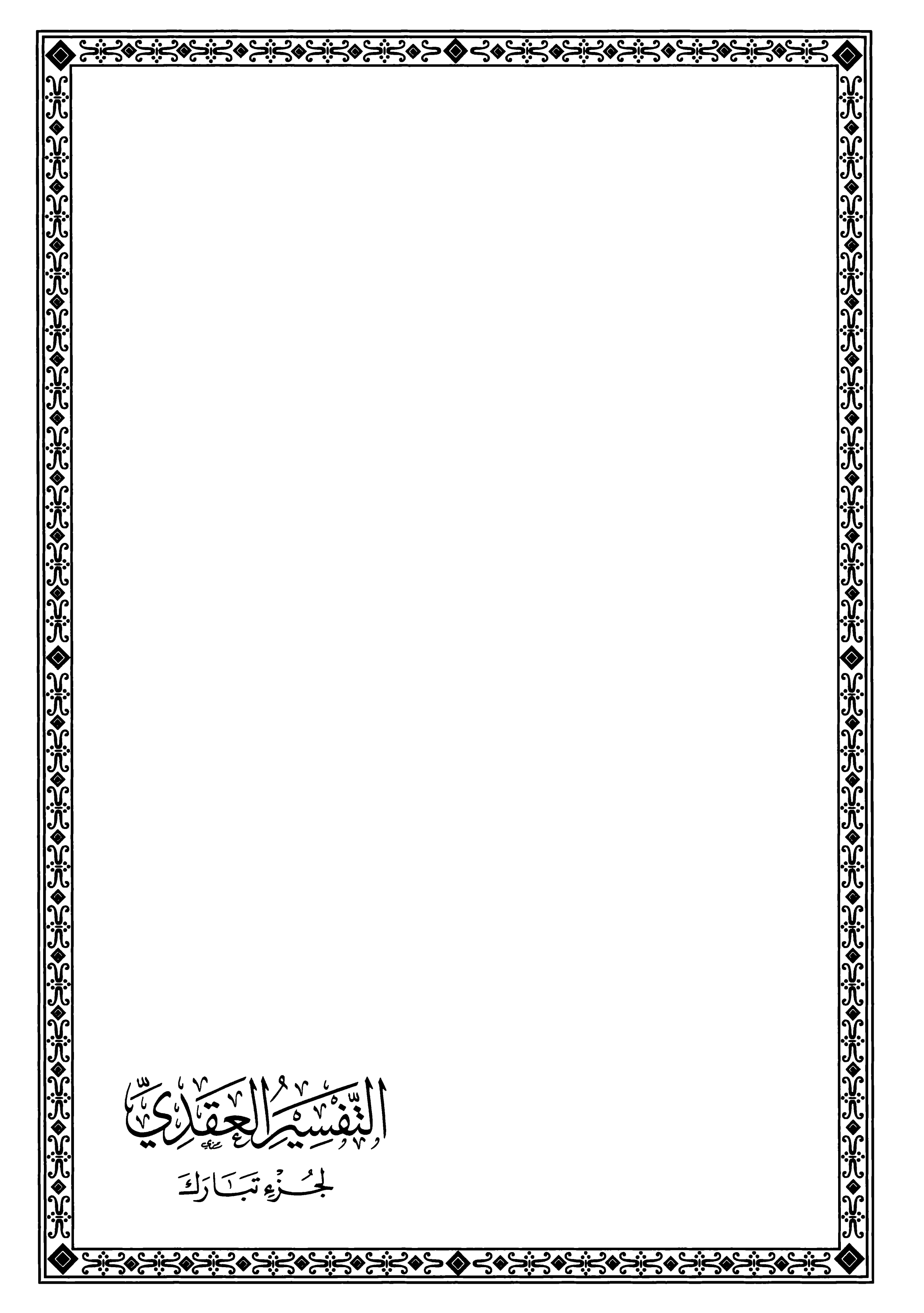

التفسير العقدي
لجزء تبارك
تأليف
أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة القصيم (سابقاً)
دار ابن الجوزي


التفسير العقدي
لجزء تبارك



ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاضي، أحمد عبد الرحمن

التفسير العقدي لجزء تبارك./ أحمد عبد الرحمن القاضي.- الدمام، ١٤٤٢هـ

٣٦٨ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٣ ـ ٤٧ ـ ٨٢٩٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ القرآن ـ جزء تبارك ـ تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٣٢٣



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣ - ٠١٣٨٤١٢١٠٠

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ

الباركود الدولي: 9786038298473

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

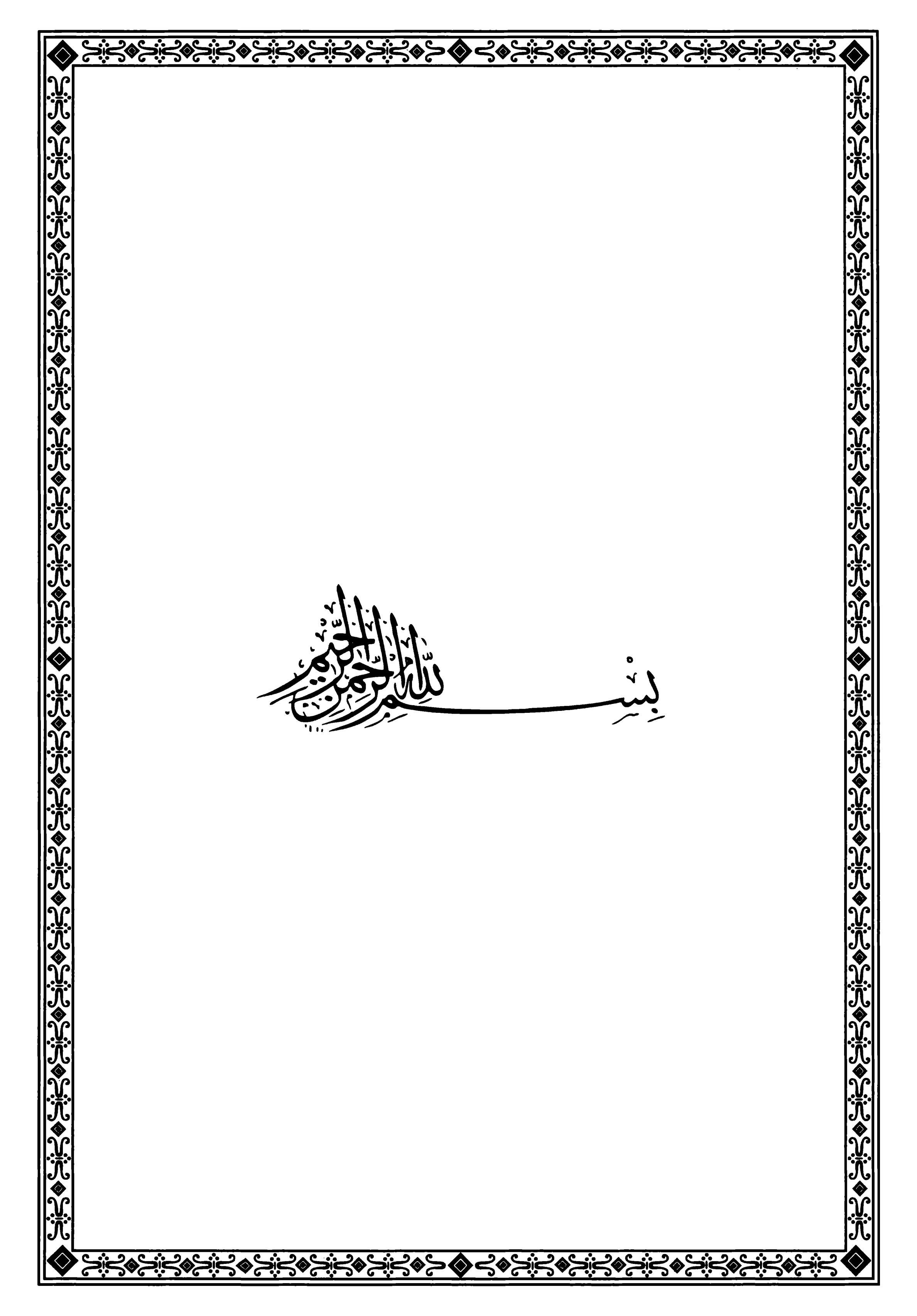


تأليف

أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة القصيم (سابقًا)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. والصلاة والسلام على من بيَّن للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم، وفتح به قلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُميًا.

أما بعد:

فقد كان من فضل الله عليَّ أن هداني، وشرح صدري، وأعانني على الاشتغال بتفسير جزء عمَّ، قبل نحو عشرين سنة، في دروسٍ متتابعة، جرى تفريغها، وتحريرها، وطباعتها، ونشرها باسم: (التفسير العقدي لجزء عم)، ولقي قبولًا، بحمد الله، لما فيه من مقاربة لمقاصد القرآن الأساسية، وآثاره الإيمانية، والمسلكية، وإصلاحه للقلوب، ومداواته لآفات النفوس، من خلال التركيز على أصول الإيمان.

ثم جدَّد الله لي النعمة، فتوفرت على تفسير جزء تبارك، في سلسلةٍ من الدروس المتتابعة في النصف الأول من عام ١٤٤١هـ، في جامع السلام، بمحافظة عُنيزة، وتم تفريغها، وتحريرها، وتقديمها للطباعة والنشر، باسم: **(التفسير العقدي لجزء تبارك)**، سرت فيها على نفس المنهج؛ من بيان مقاصد السورة، وتفسير آياتها تفسيرًا تحليليًّا، مع توسع في استنباط الفوائد، والتنبيه على النوازل العقدية، والقضايا المسلكية.

وجزء (تبارك)، المكوَّن من إحدى عشرة سورة مكية، يزخر

بالمعاني الإيمانية، والمباني العقدية، التي تمتاز بها السور المكية، كما يمتاز بما تمتاز به من جزالة الأسلوب، وقصر الفواصل، وقوة التأثير.

وقد جرت الإشارة في مقدمة (التفسير العقدي لجزء عم) إلى المقصود بهذا اللَّون من التفسير، وذكر سلفٍ صالح فيه، وهو الإمام الحافظ محمد بن علي الكَرَجي القصاب رَحِمَهُ اللَّهُ، المتوفى في حدود سنة ٣٦٠هـ، في كتابه: (نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام).

وقد أثار هذا الطرح انتباه بعض المهتمِّين بالتفسير وعلوم القرآن، فتم عقد حلقات نقاش حول هذا الاتجاه؛ التفسير العقدي، أسوةً بغيره من الاتجاهات السابقة؛ كالتفسير الفقهي، واللُّغوي، والبياني، وغيرها. وفي تقديري، ينبغي أن يكون التفسير العقدي للقرآن متضمنًا للأمور التالية:

أولًا: بيان مقاصد القرآن لأصول الإيمان، التي واجه بها النبي ﷺ كفار قريش، ومشركي العرب؛ وأعظمها: التوحيد ونبذ الشرك، وإثبات النبوة، والقرآن، والمعاد، وتلقيها كما تلقاها المؤمنون الأوائل، في شعاب مكة، وحرار المدينة، نقية، خالصة من الشوب، والإسقاطات الكلامية، التي التاثت بها العقيدة الإسلامية في قرونٍ لاحقة.

ثانيًا: العناية بالهدايات القلبية، والمسلكية، لهذه الأصول الإيمانية العقدية، وتعزيز التلازم بين القول والعمل، وتقويم الأخلاق، وتهذيب السلوك.

ثالثًا: تزييف العقائد الباطلة التي أبطلها القرآن؛ كالشرك بجميع صوره، ودعاوى التأليه، والبنوَّة، ووصف الله بالنقائص والعيوب، التي وقع فيها أهل الكتاب.

رابعًا: التنبيه على النوازل العقدية المعاصرة، ومسائل الشرك المستجدة، التي جاء القرآن بنقض أصولها، واجتثاث جذورها؛

كالإلحاد، والغلو، والإرجاء، والتصوف، ودعاوى الاستشفاء بالطاقة الكونية، والفلسفات الوثنية، والمذاهب الفكرية المعاصرة.

وليس من «التفسير العقدي» التشاغل باستنباطات المتكلِّمين، وتهويمات الصوفية، وأهل الأهواء والبدع، وتعكير صفاء التدبُّر القرآني بها، فإنها، وإن بدت تَمُتُّ إلى العقيدة بخيطٍ من نسج العنكبوت، فإنها لا تخلو من ضلالاتٍ تستخرج بالمناقيش؛ فالعافية منها خير، وأحسن تأويلًا، وأقوم قيلًا.

وقد اعتمدت في تفسير هذا الجزء المبارك، غالبًا، على التفاسير المعتبرة؛ كتفسير الطبري، والبغوي، وابن كثير، والسعدي، وأمثالهم، رحمهم الله، وفهمٍ، وتدبُّرٍ، يفتحه الله، لا يخرج عن أقوال السلف، وفهمهم للنصوص.

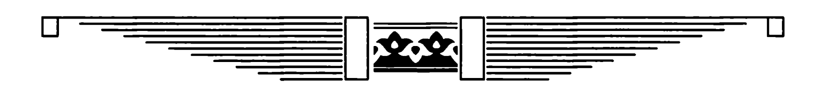
وربما وقع تكرار لبعض المعاني، في مواطن عدة، ناشئٌ عن كون القرآن العظيم مثانيَ، كما أخبر تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

والله المسؤول، وحده، أن يبارك بهذا التفسير، كما بارك في سابقه، وأن يجعل عملي خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، وأن يقيل عثرتي، ويغفر زلَّتي، ويقبل معذرتي، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وشفيعًا مشفعًا فينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه

أ.د. أحمد بن عبد الرحمٰن بن عثمان القاضي

عنيزة في ١٤٤١/١١/١٣هـ



سورة الملك

سورة المُلك، فاتحة هذا الجزء العظيم من أجزاء القرآن، سورة مكية، ويقال: سورة تبارك، وقد يُقرن بينهما، فيقال: سورة تبارك المُلك، كما جاء في بعض الأحاديث. سمِّيت بهذين الاسمين لورودهما في مستهلِّها.

مقاصد السورة:

١ ـ بيان دلائل الربوبية المستلزمة لتوحيد الألوهية.

٢ ـ إثبات المعاد، والحساب والجزاء، ومآلات العباد.

٣ ـ إبطال الشرك وتزييفه.

هذه السورة تسمَّى سورة المُلك، وتسمَّى أيضًا سورة تبارك. وتلقب بـ(المانعة) و(المُنجية) و(الواقية)، لآثارٍ وردت بهذا المعنى.

فضائلها:

ورد في فضائلها أحاديث كثيرة منها: أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، ثَلَاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»[١]، فهذا الحديث من أمثل ما روي في فضائلها، وليس هذا لمن حفظ حروفها فقط وإنما لمن وعاها، وفَقُه ما تضمَّنته من عقائد

(١) أخرجه أحمد رقم (٧٩٧٥)، وأبو داود رقم (١٤٠٠)، وحسَّنه الألباني، وأخرجه النسائي في الكبرى رقم (١١٥٤٨)، وأخرجه الترمذي رقم (٢٨٩١)، وقال: هذا حديث حسن.

وعلوم نافعة شفعت له عند ربه؛ فإن فيها من العلم بالله تعالى، وإثبات المعاد، وإثبات الرسل، والملائكة، وبقية أصول الإيمان ما هو أعظم سبب ووسيلة؛ لأن تكون سبب نجاة لصاحبها من النار؛ لأن القرآن ينفع الإنسان إذا تدبره، وتذكره، وفقُه معانيه، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وورد في فضلها أحاديث أخرى فيها كلام؛ كحديث ابن عباس قال: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»**[1].



(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٨٩٠)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١ ـ ١٨].

قوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾، مأخوذ من مادة برك. والبركة لها معنيان.

المعنى الأول: اللزوم والثبوت. ولهذا نقول: (بِركة) للماء المستقر في موضعٍ واحد.

المعنى الثاني: النماء والزيادة.

ولفظ تبارك لا يجوز استعماله في غير حق الله تعالى؛ لأنه يختص به تعالى. وقد ورد في القرآن العظيم لفظ «تبارك»، في حقه تعالى، في تسع آيات، أولها في الأعراف، وآخرها في سورة الملك. فهو مما

اختص الله تعالى به، وهو يدل على التمجيد، والتعظيم، والتطهير، والتقديس. وهو وصفٌ ذاتيٌّ لله تعالى؛ فالله وحده هو الذي يتعالى، ويعظم ويكثر خيره وفضله ومَنّه؛ فلهذا لا يعبر به في حق غير الله، لكن يقال في حق غير الله: مبارك، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وقد أطال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام على هذا اللفظ في كتابه «الفوائد»، وكتابه «جلاء الأفهام»، بما لا مزيد عليه، مما يدل على أن هذا اللفظ يختص بالباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والبركة تدل على كثرة الخير، وتضاف إلى مخلوقات الله. وقد توصف بعض الأماكن بالبركة؛ كالمسجد الحرام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]، فهو مبارك لما يقع فيه من العبادات، وذِكْر الله تعالى، وقد توصف بعض الأزمنة بالبركة؛ فشهر رمضان شهر مبارك بما جعل الله فيه من الخير، وقد توصف بعض المطعومات بالبركة كالعسل فإن فيه بركة، والزيتون فيه بركة، وماء زمزم، يقال عنه ماءٌ مبارك؛ أي: أن الله تعالى أودع فيه البركة، فيحصل به الخير والشفاء، كما جاء في قول النبي ﷺ: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[1]. ولا يجوز إثبات بركة في شيءٍ من الأشياء إلا بدليل، فكل ما أثبت الله تعالى فيه بركة ومنفعة فإنَّا نثبته؛ سواءٌ كان في الأشخاص، أو الأمكنة، أو الأزمنة، أو الأطعمة والأشربة، أو غيرها. فهذا مما يتعلق بهذه اللفظة؛ فالحاصل: أن البركة تضاف لغير الله تعالى، لكن لا يقال تبارك إلا في حق الله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما البركة فكذلك نوعان، أيضًا:

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٤٨٤٩)، وحسَّنه ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ٣٩٣)، والحديث مختلف فيه بين الرفع والوقف، ولمزيد اطِّلاع ينظر: التلخيص الحبير، للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٦٨).

أحدهما: بركةٌ هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسة تارةً، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها مبارَك. وهو ما جعل كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة؛ والفعل منها تبارك. ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ. فهو سبحانه المبارِك، وعبده ورسوله المبارَك، كما قال المسيح ﵇: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه، فهو المبارَك.

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، أفلا تراها كيف اطَّردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كـ«تعالى» و«تعاظم» ونحوهما. فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى» الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته، فكذلك «تبارك» دالٌّ على كمال بركته وعظمها وسعتها[1].

قوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، هو الله ﷻ، فملك السمٰوات والأرض بيده تعالى، لا يخرج عن ملكه شيء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢]، فلا أحد سوى الله يملك مثقال ذرة في السمٰوات والأرض لا استقلالًا، ولا مشاركةً، ولا معاونةً.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥).

فقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: استقلالًا.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: مشاركة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]؛ أي: معاونة.

فالمُلك كله لله، كما في الذكر: «**لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ**»[١]، وفي التلبية: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**»[٢]، فجميع ما في السمٰوات والأرض مُلكٌ لله تعالى لا ينازعه فيه أحد. وإذا أضيف المُلك لغير الله تعالى فهو ملك نسبي، مؤقت، محدود، فقول الإنسان: هذا بيتي، وهذه سيارتي، وهذا كتابي، صحيح لا بأس به؛ لكنَّ هذا المُلك مُلكٌ محدود، مؤقت، قاصر، منقطع، فإذا مات انتقل عنه إلى من بعده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠]. ولو أنَّ إنسانًا أراد أن يتلف ماله، لضُرِبَ على يده، وحُجِر عليه؛ لأن هذا التصرف تصرفٌ غير راشد، فاحتاج إلى أن يُحجَر عليه.

وإذا علم المؤمن بأن المُلك كله لله؛ فإنه يطلبه منه، لا يطلبه من المخلوقين، وإذا علم أن خزائن السمٰوات والأرض بيد الله تعالى، فإنه إذا أراد الرزق سأله مِن مُعطيه، قال الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧]، ويخطئ بعض الناس حين يقول: فلان قطع رزقي! فليس هو الذي وهبك، ولا هو الذي قطعك؛ لأن الله تعالى هو الرزاق الذي بيده الملك.

ودلَّت هذه الآية على إثبات صفة من صفات الله الذاتية الخبرية،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٣٨٥)، ومسلم رقم (٥٩٣)، متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٥٤٩)، ومسلم رقم (١١٨٤)، متفق عليه.

وهي صفة اليد. فالله تعالى، كما أخبر عن نفسه، له يدان كريمتان، مبسوطتان بالعطاء والنعم، لا تشبهان أيدي المخلوقين، تليقانِ بجلاله وعظمته، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكما قال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فما دام أنَّ الله تعالى أثبت لنفسه هذا الوصف؛ فالواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يثبت ما أثبت الرَّب لنفسه حقيقةً، مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين؛ فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فلا يجوز لأحدٍ أن يرد، أو ينكر، أو يحرِّف، ما أثبت الله لنفسه، فالله تعالى أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسنُ حديثًا من خلقه، فيجب أن نعتقد ذلك دون تحريف، أو تعطيل، أو تكييف، أو تمثيل.

ولا يجوز تحريف صفة اليدين إلى النعمة أو القدرة؛ كما فعل المتكلمون، فإن السلف الصالح قاطبةً أثبتوا هاتين اليدين على وجهٍ لائقٍ بالله تعالى ولم يقل أحدٌ من السلف من الصحابة، أو التابعين، أو أتباع التابعين، بأن اليد بمعنى النعمة أو القدرة! وإنما وقع هذا من بعض المتأخرين، الذين توهَّموا أنّ إثبات اليد يلزم منه تمثيلًا، ففروا من التمثيل ليقعوا في التعطيل. والواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يثبت إثباتًا بلا تمثيل، وأن ينزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل. وهذه القاعدة من التزم بها سَلِمَ وعوفي أن تَزِلَّ قدمه في هذه المزالق الخطيرة.

ولا يلزم من كونها أتت بصيغة الإفراد في هذه الآية، معارضة مجيئها في مواضع أُخر بصيغة التثنية والجمع؛ لأن المفرد المضاف يعم، فلا ينافي التثنية ولا الجمع. فلو قال قائل: أخذت هذا القلم بيدي. لم يلزم أن يكون مقطوع اليد الأخرى. ولو قال قائل: نظرت إلى الحادث بعيني، لم يلزم أن يكون أعور. ولو قال قائل: مشيت إلى فلان برجلي، لم يلزم أن يكون له إلا رجلٌ واحدة؛ فالمفرد إذا أضيف يعم، قال

السيوطي[١]:

ومثله المفرد إن تعرَّفا وإن يضف والفخر مطلقًا نفى

ونمثِّل لذلك بمثالٍ من كلام الله، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣]، فلفظ (أَمْرٍ) مفرد مضاف، و(الهاء) مضاف إليه، فيعم كل ما أمر به النبي ﷺ. فلا تعارض بين لفظ الإفراد ولفظ التثنية الوارد في قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وهؤلاء الذين حرَّفوا معنى اليد إلى النعمة أو القدرة، كيف يصنعون بقول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؟ فإن قالوا: يداه بمعنى نعمتاه، قلنا: نِعَمُ الله كثيرة، وليست نعمتين فقط، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. وإن قالوا: اليد: بمعنى القدرة، قلنا: لله قدرة واحدة، ولا يصح أن يقال له قدرتان، وإلا لقال إبليس لمَّا قال له ربه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]: وأنا يا رب خلقتني بيديك! على اعتبار أن اليد هي القدرة؛ لأنه مخلوقٌ بقدرة الله تعالى. لكنه لم يقل ذلك؛ لأن إبليس يعلم أنَّ الله تعالى خلق آدم عليه السلام، بيديه الكريمتين.

فيجب أن نثبت لله تعالى هذا الوصف وما شابهه من مسائل الصفات، فنطيب نفسًا، ونقرُّ عينًا، بما أخبر الله تعالى به عن نفسه، ونعتقد كمال الله وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين. قال النبي ﷺ: «**يَدُ اللهِ مَلأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**، وَقَالَ: **أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»[٢]، وهذا لكمال غناه، وكثرة فضله وخيره. فهذه أدلة من الكتاب والسُّنَّة على إثبات اليد لله تبارك وتعالى.

---

(١) الكوكب الساطع، صيغ العموم.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٤).

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾، (كل) من ألفاظ العموم؛ أي: أن الله تعالى لا يُعجِزهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ودلّت هذه الآية على إثبات اسم الله «القدير» فهو من أسمائه الحسنى.

والقدير: هو الذي يفعل الشيء من غير عجز. **والقوي**: هو الذي يفعل الشيء من غير ضعف. فالفرق بينهما: أن القدرة هي التمكُّن من الفعل من غير عجز، والقوة هي التمكُّن من الفعل من غير ضعف.

ومن آثار ذلك في نفس المؤمن أنه إذا علم أنَّ ربَّه ومعبوده على كل شيء قدير، كمل توكله عليه؛ لعلمه أنه لا يأتي بالحسنات إلا هُو، ولا يدفع السيئات إلا هُو، فيبقى قلبه معلقًا بربه القدير، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام: ١٧]، فلا تستصعب شيئًا على ربك! فالله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، من صفات الله تعالى الفعلية أنه خلق الموت والحياة. فكلاهما مخلوق لله. وهذا يدل على أنَّ الموت مخلوق، فبعض المتكلمين يقول: إنَّ الموت شيء عدمي، غير مخلوق. وهؤلاء يكذِّبهم القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾؛ فالله تعالى يخلق الموت في نفس ابن آدم، كما أنه تعالى يخلق الحياة بنفخ الروح في الجنين، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمَلَكَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَقُولُ: اكْتُبْ أَجَلَهُ وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٣٣٢). وأخرجه مسلم رقم (٢٦٤٣).

لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، والموت رغم أنه أمرٌ معنوي إلا أنه قد يصوَّر بصورةٍ حسية، قال النبي ﷺ: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩]**»[1].

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فهناك موتتان وحياتان:

الموتة الأولى: هي العدم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩]، **الموتة الثانية:** بعد خروج الروح من البدن.

والحياة الأولى: هي التي تحصل بنفخ الروح في الجنين. **والحياة الثانية:** هي التي تحصل بالبعث بعد الموت.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم. وهذا يدل على أنَّ الله لا يفعل الشيء إلا لحكمة، وأنَّ الله منزَّه عن العبث، فلم يخلق الموت والحياة لا لشيء، ولا لحكمة؛ بل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وكأن تقدير الآية: الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم، فيعلم أيكم أحسن عملًا. والله تعالى، لا ريب أنه قد علم بالأشياء قبل حصولها، لكن متعلَّق العلم أمران:

الأمر الأول: علم الله بما يفعله ابن آدم بعلمه الأزلي، فالله تعالى علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون؛ بل وما لم يكن كيف لو كان يكون. كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. فلا تخفى عليه خافية.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٣٠).

الأمر الثاني: علمه بمفعولات العبد إذا صدرت منه، فيعلم وقوعها، وهذا لا ينافي العلم الأول.

قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملًا؛ لأن العبرة بحسن العمل. قيل للفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أحسن عملًا؟ قال: أخلصه وأصوبه.

فالعمل لا يكون حسنًا إلا إذا جمع أوصافًا:

الوصف الأول: الإخلاص: بأن يكون خالصًا لوجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا شرك فيه لأحدٍ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، فربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيور، لا يرضى أن يُشرك معه أحد؛ فلو أشرك العبد مع الله تعالى أحدًا في عمله، أحبط الله عمله، وردَّه عليه، ولم يقبله منه، فيجب أن يحقق الإنسان كمال التوحيد لله ربِّ العالمين.

الوصف الثاني: المتابعة للنبي ﷺ، وهذا معنى قول الفضيل: (أصوبه)، وذلك بأن يتَّبع هدي النبي ﷺ، فلا يبتدع في دين الله ما ليس منه. قال النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَأَمْرُهُ رَدٌّ**»(٢)، وقال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)، فلا يحل لأحد أن يحدث في دين الله، ويبتدع ويقترح فيه من عند نفسه؛ فإن ذلك افتياتٌ على مقام النبوة؛ فالنبي ﷺ هو المأمور بالتبليغ عن ربه، ونحن مأمورون باتباعه. لهذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (ص٦٩) تعليقًا، ومسلم رقم (١٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]. فإذا قال أهل الأهواء والبدع: يحسنُ كذا وكذا، وأحدثوا من الأوراد، والأذكار، والموالد، والهيئات، أمورًا من عند أنفسهم، قلنا لهم: هذا طعنٌ في الدين، وتنقّص للرسالة، فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فكيف تأتون بشيءٍ لم يأت به الرسول ﷺ!؟ كأنما تقولون: إن الله لم يكمل الدين، ولم يتم النعمة، وكأنما تقولون بلسان الحال، لا بلسان المقال: إنَّ النبي ﷺ لم يبلغ رسالة ربه؛ وهو الذي استشهد الناس يوم عرفة فقال: **«وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»**(١)، ونحن والله نشهد بما شهد به أصحاب النبي ﷺ، بأنه قد بلَّغ الرسالة وأدى الذي عليه.

وهذان الشرطان: الإخلاص، والمتابعة. هما ركنا قَبول العمل ووصفه بالحُسن.

الوصف الثالث: المداومة والثبات: فقد قال النبي ﷺ: **«وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»**(٢)، وقالت عائشة ﵂ تصف عمل النبي ﷺ: **«كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً»**(٣)، فكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا عمل عملًا أثبته، وليس كحال كثيرٍ مِنّا يشتغل بالعبادة حينًا ثم يمل ويدعها، فهذا ليس من حسن العمل. ولذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو ﵄: **«يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»**(٤)، وقال ﷺ: **«إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٢١٨). (٢) أخرجه مسلم رقم (٢٨١٨).

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٩٨٧)، ومسلم رقم (٧٨٣)، متفق عليه.

(٤) أخرجه البخاري رقم (١١٥٢)، ومسلم رقم (١١٥٩)، متفق عليه.

الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ» الحديث[١]. فينبغي للإنسان إذا عمل عملًا صالحًا أن يحافظ عليه؛ فيحافظ على السنن الرواتب، ويحافظ على أذكار أدبار الصلاة، ويحافظ على الوتر، ويحافظ على ما كتب الله له من قيام الليل، ويحافظ على الصدقة، وهكذا كل عملٍ عمله، يثبته ولا يدعه بعد أن عمله.

الوصف الرابع: أن يكون مقرونًا بالخوف والرجاء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَهُمُ الَّذِينَ يَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، وَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؟ قَالَ: **«لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ»**[٢]، فمعنى ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: أنهم بين الخوف والرجاء، فيعملون العمل، ويخشون أن يرد عليهم، ويطمعون أن يقبل منهم. وهذا أمرٌ يغيب عنَ كثيرٍ منا! هل أحد منا رجا أنَّ الله يقبل صلاته وخشي أن ترد صلاته، قال أبو الدرداء: لو أعلم أنّ لي ركعتان متقبَّلتان لعلمت أني من أهل الجنة، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]. وأكثر الناس يعمل الصالحات، وكأنه جازم بأن الله قد تقبل منه! فعلى الإنسان أن يكون دائمًا بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

العزيز: هو من له العزة المطلقة. والعزة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: عزة القدرة.

النوع الثاني: عزة الغلبة.

النوع الثالث: عزة الامتناع.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٧١١٤)، والطبراني في الدعاء رقم (٦٣٠)، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم (١٨٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه، وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة ـ ٣٢٢٨): صحيح لغيره.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣١٧٥)، وابن ماجه رقم (٤١٩٨).

فهو يدل على كمال القدرة والغلبة والامتناع؛ ولهذا تقول العرب: أرضٌ عَزاز. تريد الأرض الصلبة القوية، بخلاف الأرض الرخوة.

الغفور: مشتق من الغفر، والغفرُ: هو الستر والتجاوز، ومنه سمِّي المِغفر، الخوذة التي تغطي الرأس، مغفرًا؛ لأنه يستر الرأس ويقيه.

فالله تعالى غفور؛ لأنه يستر على عبده المؤمن، ويتجاوز عنه. قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»[1].

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، والسمٰوات: جمع سماء، وهي كل ما علانا. فهذا خلق عظيم، وعالمٌ علوي كبير. أفادنا الله تعالى بأن عددهن سبع: كما قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، ولفت أنظارنا إلى مشهدٍ مألوف، يرفع أحدنا طرفه إلى السماء، فينظر إلى هذه القبة السماوية المحيطة بالأرض فلا يكترث لهذا المنظر، ولا يحرك فيه ساكنًا.

قوله: ﴿طِبَاقًاۖ﴾، جمع طَبَق أو طبقة؛ أي: بعضهن فوق بعض، وهل هنَّ متراصَّات متلاصقات، أم بينهن مسافة؟ قولان للمفسرين:

القول الأول: أن بين كل سماء وسماء فاصل، كما جاء في قول النبي ﷺ: «**هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ**»[2]، وكما دلَّ عليه حديث الإسراء والمعراج.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤٤١).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٩٨)، وأحمد رقم (١٧٧٠)، وأخرجه الحاكم رقم =

القول الثاني: أنهن متلاصقات متَّصلات. والأول أقرب.

قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾؛ أي: ليس في خلق الله من خلل، ولا اضطراب، ولا نقص؛ لهذا قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾؛ أي: أعد النظر مرة أخرى، وتمعَّن في هذه السماء، هل ترى صدوعًا وشقوقًا وفتوقًا؟ كلا؛ بل هو بناءٌ محكمٌ متين. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: مرتين، وذلك أنه إذا تكرر عُبِّر بكَرَّة بدلًا من مرة.

قوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾؛ أي: حينما تحاول كرَّة أخرى، وتدمن النظر في السماء لتبحث عن شقٍّ وصدعٍ وفتقٍ، يَمنة ويَسرة، وأمام وخلف؛ فالنتيجة أن يكِلّ بصرك ويتعب، لذلك عبَّر بقوله: ﴿خَاسِئًا﴾؛ أي: ذليلًا، صاغرًا، كسيرًا.

قوله: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾؛ أي: ضعيف ومُجهد؛ لأنه لم يصل إلى ما يريد، رغم المحاولات المتعددة في البحث عن التفاوت. وفي قراءة: {مِنْ تَفَوُّتٍ}، بتشديد الواو.

وفي هذا دعوة إلى أن يتفكر الإنسان في ملكوت السمٰوات والأرض فإنه من أعظم دلائل الإيمان. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

فحريٌ بالمؤمن أن يستمد مادة الإيمان مما بثَّهُ الله تعالى في العالم العلوي والعالم السفلي؛ بأن ينظر نظر المتدبر، ليلًا ونهارًا. فحينما تنظر في النهار إلى هذه القبة الزرقاء التي جعل الله تعالى فيها الشمس ضياءً، تنشر أشعتها ووهجها، وتنظر في أقطار السمٰوات فلا تجد موضع إبرة من صدعٍ أو فتقٍ أو شق، وحينما تنظر في الليل إلى السماء المرصعة

= (٣١٣٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

بالنجوم، تشعشع هنا وهناك، تجد خلقًا بديعًا، ونظامًا محكمًا دقيقًا؛ فلها مشارق ومغارب، ولها منازل وبروج، في حركةٍ منتظمةٍ دقيقة، لا تحيد قِيد أَنمُلة. فلا ريب أن هذا مما يغذي الإيمان، ويورث تعظيم الرب في قلب المؤمن. والإيمان بالربوبية يفرض عليه أن يوحِّده بالعبادة؛ فإنَّ طريقة القرآن الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ فالذي خلق السمٰوات والأرض بهذا الإبداع، والانتظام، والاتساق حقيقٌ بأن يُعبد وحده دون ما سواه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: جمَّلنا وحسَّنَّا. كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦]. وهي أقرب سماء إلى الأرض، وسمِّيت دنيا لدنوها من الأرض. وفوقها ستة سمٰوات أُخر.

قوله: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ أي: بالنجوم الثابتة والسيارة، كان العرب يسمُّون بعض النجوم بالثابتة وبعضها بالسيارة بحسب ما يبدو للنظر، والواقع أن جميع ما في الكون متحرك كما قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣]؛ فالنجوم زينة للسماء.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، والمراد ما ينفصل منها من شهب، لا عينها، كما قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٧ ـ ١٠].

فالحكمة من خلق النجوم ثلاثة أمور:

الأول: أنها زينة للسماء. وهذا أمرٌ ظاهر.

الثاني: أنها رجوم للشياطين. كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، فحرس الله السمٰوات بالشهب التي تنفصل عن الأجرام السماوية، فتصيب الشيطان الذي يحاول استراق السمع، فأما في عهد النبوة، ووقت تنزُّل الوحي، فقد حيل بينهم وبين ذلك، حفظًا للوحي، لكن ما قبل زمن

النبوة، كان ممكنًا، وكذلك ما بعده؛ فقد عادت الشياطين إلى استراق السمع، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ؛ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ** ـ قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ـ **فَإِذَا** ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟﴾ **لِلَّذِي قَالَ**: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ** ـ وَوَصَفَ سُفْيَانُ بن عيينة بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ ـ **فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ** ـ وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ ـ **فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**»[١].

الثالث: أنها علامات، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]، فمن فوائد النجوم أنها تهدي في ظلمات البر والبحر، فيستدل الناس بمواقع النجوم على الاتجاهات، فمثلًا: النجم القطبي يدل على الشَّمال. وبقية النجوم لها مواقع معروفة لأهل الشأن، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، والمشتغلون بعلم الفلك يعلمون في هذا علومًا واسعة، ويقيسون المسافات بين هذه النجوم بالسنين الضوئية، الدالة على اتساع الكون، وتباعد أقطاره. والسنة الضوئية يقدرونها بما يقطعه الضوء في سنة، بسرعته الهائلة (٣٠٠,٠٠٠ كم/ الثانية)! تصور أنّ ضوء الشمس يصلنا في ثمان دقائق، وأنّ أقرب نجم إلى الأرض بعد

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٠١).

الشمس نجم يقال له: (قنطورس) يستغرق الضوء منه ليصل إلى الأرض أربع سنين! فيا له من خلق عظيم هائل كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

وَقَالَ قَتَادَةُ: (خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ)[1].

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾؛ أي: أعددنا وهيأنا، فعقابهم الدنيوي رجم النجوم، وعقابهم الأخروي عذاب السعير.

ولما كان بعض الآدميين مثل هؤلاء الشياطين، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾، وشيءٌ بئَّسه الله ماذا يمكن أن يكون!

قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا﴾، الكفار يوم القيامة لا يحاسبون محاسبة من توزن سيئاته وحسناته؛ لأنهم لا حسنات لهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وإنما يقررون بذنوبهم، من باب إقامة الحق وإظهاره، فيقرون بها ويعترفون على رؤوس الخلائق، ثم تُغل أيديهم إلى أرجلهم إلى أعناقهم، فيُقذفون في النار. قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١].

وقوله: ﴿أُلْقُوا۟﴾، يدل على أنَّ النار في أسفل سافلين؛ وإنما يلقى في الحفر، والأماكن السحيقة. والإلقاء يدل على الإهانة.

قوله: ﴿شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾، **الشهيق**: هو الصوت الفظيع،

(١) أخرجه البخاري معلقًا موقوفًا من قول قتادة ـ (كتاب بدء الخلق، باب في النجوم).

وتفور: أي: تغلي كما يغلي القِدر، حنقًا عليهم. وهذا بمجرده مؤلم بالسماع، فكيف إذا أحرقتهم.

وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ أي: تكاد هذه النار ذات الصفة المجتمعة، أن تتقطع من شدة تغيظها عليهم. وهذا يدل على أنَّ النار لها ذات ومعنى. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠]، فهي تُسئل وتجيب وتعقل عن ربها.

قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾؛ أي: كلما ألقي فيها جماعة من أهلها. وهذا يدل على أنَّ كل جماعة تقذف على حدة، كما أنَّ كل أمة تجثوا على حدة، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، فيقذفون أفواجًا أفواجًا. وخزنة النار: هم الملائكة الموكلون بعذاب أهلها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]، وعدد رؤسائهم تسعة عشر، قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٣٠]، والسؤال في الآية سؤال توبيخ وتبكيت، وهو مؤلمٌ جدًّا.

قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، هذا جواب السؤال، وذلك أنَّ الله قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وهذا يبيِّن أنَّ أهل النار ليس عندهم أدنى ذرة من شكٍّ في استحقاقهم للنار، ولذلك يُعربون عن إقرارهم بهذه الكلمات الواضحات بقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾، وكلمة (بلى)، تقع جوابًا إذا كان السؤال مصدرًا بالهمزة.

قوله: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾، في هذه الآية ما يدل على أنهم كذبوا التكذيب الخاص والتكذيب العام، فلم يقتصر تكذيبهم على ما أُنزل إليهم؛ بل تمادوا في التكذيب حتى أنكروا أن يكون أنزل الله شيئًا، وكلمة (شَيْءٍ)، نكرة في سياق النفي فتدل على العموم، قال الشيخ السعدي(١):

---

(١) نظم القواعد الفقهية من تأليفه.

والنكرات في سياق النفي تعطي العموم أو سياق النهي

فكأنهم أنكروا أن يكون الله أنزل كتبًا، أو أرسل رسلًا، وهذا من المبالغة في التكذيب والطغيان.

قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾، وهذا من بغيهم واستطالتهم، وتلك طبيعة الطغاة؛ أنهم يضللون أهل الحق. فوصفوا النذر الذين أرسلوا إليهم بأنهم في ضلال. والضلال: هو الضياع والتيه والخطأ، ولم يقتصروا على وصفهم بمجرد الضلال؛ بل قالوا: (كَبِيرٍ)! وهذا حال أعداء الرسل، ومنطقهم دومًا؛ ففرعون، أكبر الطغاة، يقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾ [غافر: ٢٩]، ويقول عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ [غافر: ٢٦]، وهو المفسد حقًّا؟ ومع ذلك يلقي بالتهمة على موسى، عليه السلام، فهذا شأن الطغاة؛ نبز أهل الحق بألقاب السوء؛ لأجل أن ينفِّروا الناس عنهم، ويبغِّضوهم بما جاؤوا به.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾، هذا ندم ولات ساعة مندم، ومن المؤكد أنه كان لهم أسماع وعقول، لكن أسماعٌ لم تنفعهم وعقولٌ لم تنفعهم؛ لأن السمع نوعان:

النوع الأول: سمع إدراك، وهو انتقال ذبذبات الصوت إلى طبلة الأذن، إلى العصب السمعي، فيدرك العقل أنَّ هذا صوت كذا وكذا. فهذا يشترك فيه الآدميون، والحيوانات، والطيور، وغيرها من المخلوقات، وليس المقصود في الآية.

النوع الثاني: السمع الذي نفوه عن أنفسهم: وهو السمع الذي ينفع، فليس كل من سمع انتفع بسمعه. ربما عاد سمعه وبالًا عليه؛ فالنبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ**

النَّارِ»[١]، فقد سمع، لكنه لم ينتفع بسماعه، أما أهل العلم والإيمان فإذا سَمِعوا انتفعوا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣].

كذلك العقل، فليس كل من أدرك فهو عاقل، فكل أحد يدرك أنَّ نصف الاثنين واحد، وأنَّ السماء فوق الأرض، وأنَّ الثلج بارد وأنَّ الماء المغلي حار، فهذا عقل إدراك؛ لكن العقل الذي ينفع صاحبه هو الذي يهديه إلى الحق.

قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾، قد أعذر الله إلى عباده، حيث أرسل رسلًا، وأنزل كتبًا، وأقام الحجة، ولم يُبقِ لأحدٍ عذرًا يعتذر به، إلا الحجة الرسالية، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]. فإن قال قائل: فما القول فيمن لم تبلغه الرسالة، ممن قد يوجدون في مجاهل إفريقيا، أو غابات الأمازون، أو في أطراف الدنيا؟

فالجواب: لو قدر وجود أحد لم تبلغه الرسالة؛ فإن الله تعالى يختبره يوم القيامة، قال النبي ﷺ: «**أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا**»[٢]؛

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٦٣٠١)، وحسَّنه الأرنؤوط، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٣٤)، وله شواهد متعددة، ذكرها ابن كثير في تفسيره (ج٥/ من صفحه ٥٠ إلى٥٣).

والله تعالى أعلم بما هم عاملون، لكن من باب إقامة الحق والعدل، يجعل لهم هذا الاختبار. فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يثق أنه لا يهلك على الله إلا هالك، وأنَّ الله ليس بظلامٍ للعبيد، وأنَّ الله قد أقام الحجة على كل أحد، ولا أدل على ذلك من اعتراف هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ⑪﴾، سحقًا بمعنى بُعدًا؛ والمكان السحيق: هو الأسفل البعيد، كقول الله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ㉛﴾ [الحج: ٣١]، وهذا دعاء عليهم وقضاء. وينبغي للإنسان أن يكثر مداواة قلبه بذكر الجنة والنار. بعض الناس يتحاشى ذكر النار، ولا يريد أن يمره على قلبه؛ لأنه مبعث إزعاج، كحال اليهود الذين قال الله عنهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وقلَّ أن تجد في كتب اليهود ذكر النار، إلا النادر القليل؛ لأنهم يعلمون أنَّ مآلهم إليها، فيجب على الإنسان أن يعظ نفسه بذكر الجنة والنار. ولم يزل أهل العلم يبوِّبون في كتبهم: «باب صفة الجنة»، «باب صفة النار»، وفي القرآن العظيم آيات كثيرة في صفة النار، كقول الله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ㉑ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ㉒﴾ [الحج: ٢١، ٢٢]، وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، كما يجد ذكر آيات الجنة، وما فيها من نعيم كقول الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ㉑﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ㊲﴾ [سبأ: ٣٧]، ونحو ذلك من الآيات التي تُحفِّز الإنسان على طلب الجنة، والنجاة من النار.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫﴾، ما أسعدهم وما أعظم حظهم! فخشية الله تعالى من أقوى دلائل الإيمان؛ لأنها نابعة عن العلم بالله تعالى، بكمال أسمائه، وصفاته، وقدرته،

وعزته، وبطشه، وعظيم أفعاله. فهذا العلم يوجب للعبد الخشية. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فلا يمكن أن يقوم إيمان إلا بالخشية، ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال الله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]؛ فالذي أدرَّ مدامعهم، وأخرَّ جباههم، هو ما وَقَرَ في قلوبهم من العلم بالله تعالى؛ فالخشية تصحبهم في الخلوة والجلوة، والسر والعلن.

وليست الخشية بالتصنع والتظاهر؛ بل الخشية تكون في القلب، كما أنَّ المحبة والرجاء يكونان في القلب، فهذه الثلاث: الخوف، والحب، والرجاء، هنَّ أمهات العبادات القلبية. ومما يروى أن رجلًا خلا بامرأة في ليلة قمراء، كثيرة الكواكب، فقال لها: إني أحبك. فقالت: وأنا والله أحبك، قال: وإني أحب كذا وكذا، يعرض بالفاحشة، قالت: وأنا أحب ذلك، قال: فما يمنعنا ولا يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟ فخرَّ مغشيًّا عليه. فلامس هذا الجواب عصبًا حساسًا، فاستحى، وارعوى، وتأثر، وازدجر. قال النبي ﷺ: «**وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»(١)، كما قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فيجب أن يستزرع المؤمن هذه الخشية الإيمانية في قلبه لتعصمه من الوقوع في الفحشاء؛ فالخوف سوطٌ يضرب الإنسان، إذا همَّ أن يحيد يَمنة أو يَسرة، فيعالج نفسه بالخوف، ويعلم بأنه إذا أوصد الأبواب، وأرخى الستور، فإن الله يراه. قال أبو العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٦٠)، ومسلم رقم (١٠٣١)، متفق عليه.

ولا تحسبنَّ اللَّه يغفل برهة   ولا أن ما تخفي عليه يغيب

قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾، فهم إن خشوا الله في الغيب، فسيخشونه في الشهادة من بابٍ أولى، والمغفرة: هي الستر والتجاوز، ﴿كَبِيرٌ﴾: وحسبك بشيءٍ وصفه الله بهذا الوصف! أي: لهم ثواب عظيم من أنواع النعم والخيرات التي يجدونها في الجنة، كما قال النبي ﷺ: «**أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَى الْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، فِي مَقَامِ أَبَدٍ، فِي حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ وَنَضْرَةٍ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ**» فقالُوا: نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ**»[1].

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»[2]، وأعظم نعيمٍ يناله أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾؛ كقوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠]، فلا تخفى على الله خافية، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٤٣٣٢)، وابن حبان رقم (٢٦٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢١ ـ ٢٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٥٦).

تَخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، فسواءٌ أسرَّ القول في خاطره، أو أعلنه وجهر به، فهما بالنسبة لله سواء. قال ابن عباس: نزلت في المشركين؛ كانوا ينالون من النبي ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد، فنزلت: وأسروا قولكم أو اجهروا به؛ يعني: أسروا قولكم في أمر محمد ﷺ[1]. هكذا ظنوا! فقال الله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]، فينبغي للمؤمن أن يستصحب هذا المعنى في قلبه؛ أنه مكشوف أمام الله، تحت سمعه وبصره.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: بخبايا الصدور ومكنوناتها. فأين المفر؟ صاحبك قد يكون إلى جوارك، ولا تعلم ماذا يجول في خاطره، ولا يعلم ما يجول في خاطرك، لكن الله تعالى يعلم.

قوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾، هذه حجة عقلية أقامها الله تعالى. وقد اختلف المفسرون في قوله: (من)، هل المقصود الخالق أم المخلوق على قولين:

القول الأول: ذهب ابن كثير رحمه الله، إلى أنها بمعنى ألا يعلم المخلوقُ خالقَه.

القول الثاني: وذهب الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله، إلى أنَّ معناها، ألا يعلم الخالق بمخلوقه. وهذا أقرب؛ أي: بما أنه هو الذي خلقه، وركبه، وأعده، وأمدَّه، فهو بصيرٌ به؛ لأن من ابتدأ خلقه يكون عليمًا بخفاياه. وهذا مناسبٌ لما قبله من كونه يعلم سره وجهره، فعلل ذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾، والله تعالى أعلم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾، هذان اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى.

---

(١) تفسير القرطبي رقم (١٨/ ٢١٤).

اللطيف: هو الذي يوصل الإحسان بطريقٍ خفي؛ فيوصل إليهم ما يحتاجون إليه من منافعهم، وقِوام معيشتهم، بطرقٍ قد لا يشعرون بها، ويدفع عنهم من السوء والأضرار أمورًا قد لا يتفطنون لها.

الخبير: هو العليم بدقائق الأشياء، وتفاصيلها. وهذان اسمان كريمان تضمَّنا وصفين: وهما «اللطف»، و«الخُبر» له ﷻ.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، هذا من دلائل الربوبية، التي ينبغي للإنسان أن يسرِّح فيها طرفه، وينتفع بشواهدها المبثوثة في الكون، فإنَّ ما في السمٰوات والأرض لبِنات لبناء العقيدة، فلا يحتاج الإنسان إلى كبير جهدٍ ليستدل على ربه وخالقه ومعبوده، فإنّ دلائل ذلك تملأ فجاج الأرض، وأقطار السماء. فالأرض، أُمنا التي منها خُلقنا، والتي إليها نعود، ومنها نبعث. ومعنى ذلولًا: أي: مهيئةً للسير فيها، والحرث، والزرع، والبناء، ليست جموحًا؛ بل هي ذلُول، كما يقول الناس عن الجمل: إنه ذلُول، إذا كان منقادًا، سهلًا، ليس نافرًا، ولا شَموسًا. فقد امتن الله علينا بأن جعل الأرض التي نعيش عليها ذلولًا، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل: ٦١]، فجعلها قارة، مستكنَّة، لنتمكن من العيش عليها. ولو كانت تضطرب وتميد، فلن يهنأ لنا عيش، ولن نتمكن من البناء، والحرث والزرع.

قوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾؛ أي: في دروبها، ووديانها، وأعطافها، ونواحيها، وكل شيء فيها. وقيل: مناكبها جبالها؛ كأنما أخذوها من المنكب، وهو الشيء المرتفع من الإنسان. والظاهر أنها تدل على ما هو أعم من ذلك، فأتاحها الله لنا لنضرب في الأرض يَمنة ويَسرة، ونستغل ما أودع الله فيها من الخيرات.

قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، هذا دليل على أنَّ الله تعالى أودع في

الأرض من الأرزاق ما يكفي ساكنيها؛ يستنبطونه ويستخرجونه، فمن بديع صنع الله تعالى أن جعل في هذه الأرض مخازن لمن يعيش عليها، تمدهم بما يحتاجون إليه، فقد سخَّر الله تعالى ما في السمٰوات وما في الأرض لمعيشة الإنسان، فأنزل من السماء ماء، وأنبت من الأرض زرعًا، دون أن يحتاجوا إلى شيءٍ من خارجها، وفي الآية لفتة بأن الرزق من الله تعالى ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾، وما أجمل هذا الختام لهذه الآية؛ أي: أنكم ستعيشون ما شاء الله لكم في هذه الأرض، وتمشون على ظهرها، ثم تموتون وتدفنون فيها، ثم تُنشرون منها. والنشر: هو البعث، فهذه الحركة والمعيشة لا بد أن تنتهي إلى غاية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾، يُظهر الله عظيم قدرته على عباده؛ ليعظهم؛ فالذي في السماء هو الله تعالى، فقوله: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من على السماء. وهذا من أدلة الفوقية؛ فإن الله تعالى له العلو المطلق؛ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. والعلو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو الذات.

النوع الثاني: علو القدر.

النوع الثالث: علو القهر.

فأما علو القدر، وعلو القهر، فلا ينازع فيهما أحد من أهل القبلة؛ فلا ريب أنَّ الله هو القاهر فوق عباده، فلا يخرج أحد عن ملكه

وسلطانه، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وكذلك علو القدر، فله المثل الأعلى، ولا يمكن لشخص يدعي الإسلام أن يصف الله بالنقص والعيب؛ بل لا بد أن يعتقد لله المثل الأعلى.

وإنما وقع الخلاف بين أهل القبلة في علو الذات، فأهل السُّنَّة والجماعة؛ من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأصحاب القرون الفاضلة، ومن سار على دربهم، يُقرّون بأنّ الله تعالى سبحانه بذاته فوق سمٰواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيءٌ من خلقه، ولا في خلقه شيءٌ منه. وهذا هو الذي يجب اعتقاده. ولما سأل النبي ﷺ الجارية: («أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»)[١]، فلا ريب أنَّ ربنا ﷻ فوق سمٰواته.

و(في)، في لغة العرب تأتي بمعنى (على)، وشواهد هذا كثير؛ منه قول الله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ أي: على مناكبها، وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ٣٦]؛ أي: عليها. فليس المطلوب أن يتخذ الإنسان نفقًا وسربًا في الأرض، وقال فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل، كذلك قوله: ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: على السماء. وهناك توجيه آخر، أن يقال: إنَّ السماء ليس المراد بها السماء المبنية، وإنما المراد بالسماء العلو، فكل ما علاك فهو سماء. والسماء في كلام العرب لها ثلاث إطلاقات:

الأول: تطلق على السقف المحفوظ المقابل للأرض.

الثاني: تطلق على المطر. ومنه قول الأعرابي:

إذا نزل السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غِضابا

الثالث: تطلق على كل ما أظلَّك.

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧).

فسماء هذا المسجد سقفه، والمعنى: أأمنتم من في العلو، والمقصود على كِلَا التوجيهين أنَّ الله تعالى له العلو المطلق، وأنه يحذرهم نفسه فيقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾، ولقد وقع هذا في طيات التاريخ، وفي الراهن، وسيقع في المستقبل من أمور الخسف ما يظهر للناس عظيم قدرة الله تعالى، ولقد أخبر النبي ﷺ: «**إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ـ فَذَكَرَ ـ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ**»[1]؛ فالله قادر على أن يخسف هذه الأرض القارَّة، التي نطمئن بالسير عليها، فلو شاء الله أن تميد بهم لمادت وخُسفت بهم. ومعنى قوله: ﴿تَمُورُ﴾؛ أي: تضطرب وتميد.

قوله: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾، وهذه طريقة أخرى من طرق الإهلاك، وهي أن يرسل الله الحاصب، كما أرسل على قوم لوط ﷺ. والحاصب: هو حجارة من السماء تنفصل من الأجرام السماوية، فتحصب الناس فتهلكهم. وهذا وقع أيضًا على أبرهة، عندما أراد هدم الكعبة.

قوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾؛ أي: كيف يكون إنذاري.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾، فكما ذكر الله لهم الدلائل الأرضية من الآيات الكونية، ذكر لهم سننه الكونية في المكذبين؛ كقوم عاد، وقوم صالح، وأهل مدين، وآل فرعون، فانظروا كيف كانت النكارة التي وقعت عليهم بسبب تكذيبهم، فيا لها من موعظة بليغة.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٠١).

۞ الفوائد الْمُستنبطة من الآيات السابقات:

الفائدة الأولى: إثبات النار، وشدة عذابها، وتغيُّظها على أهلها، وكونها في أسفل السافلين.

الفائدة الثانية: الإيمان بالجنة والنار، وأنهما مخلوقتان الآن، موجودتان لا تفنيان.

الفائدة الثالثة: إثبات خزنة النار من الملائكة.

الفائدة الرابعة: العقوبة الأليمة بسؤال التبكيت والتوبيخ.

الفائدة الخامسة: أنَّ العبرة بالحجة الرسالية.

الفائدة السادسة: بطلان الاحتجاج بالقدر.

الفائدة السابعة: أهمية الإيمان بالكتب المنزلة.

الفائدة الثامنة: أنَّ الكفر أنواع: منه كفر الجحود، وكفر التكذيب.

الفائدة التاسعة: معرفة طريقة الكافرين في مواجهة الأنبياء والمرسلين، وهو التضليل، والتكذيب، والتشويه، وهو ما يسمَّى بلغة العصر (الحرب الإعلامية).

الفائدة العاشرة: كمال عدل الله، واستحقاق الكافر للعقوبة، واعترافه بالذنب.

الفائدة الحادية عشرة: الدعاء بالجملة، على الكفار، وأهل البدع والأهواء بالسحق، كما في «الصَّحيحين»: «**فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي**»[١].

الفائدة الثانية عشرة: فضيلة الخشية بالغيب، وأنها من أخص صفات المؤمنين.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات موعود الله للمؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٨٥)، ومسلم برقم (٢٤٩).

الفائدة الرابعة عشرة: كمال علم الله وإحاطته بمكنونات الصدور.

الفائدة الخامسة عشرة: أهمية الإخلاص في العمل الظاهر والخفي.

الفائدة السادسة عشرة: استعمال القرآن للحجج العقلية المُقْنِعة.

الفائدة السابعة عشرة: الرد على المتكلمين الذين يقولون: إن القرآن أدلة نقلية فقط، ولا توجد فيه أدلة عقلية.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات اسمَي الله (اللطيف) و(الخبير) وما تضمَّناه من صفتي (اللطف) و(الخبرة).

الفائدة التاسعة عشرة: عظيم قدرة الله، وخطر الأمن من مكر الله.

الفائدة العشرون: عظم إنذار الله، وعظم إنكار الله.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك: ١٩ ـ ٣٠].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾، هذه الآية من دلائل الربوبية، والقدرة الإلٰهية في الآفاق؛ فإن دلائل ربوبية الله تكون في النفس، وتكون في الآفاق، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، فهذه من الآيات الآفاقية؛ فالكل يرى

الطير، لكن قليل من يتأمل في حركة الطير العجيبة، التي أودعها الله إياها حتى مكنَّها من السباحة في جو السماء. فمن مخلوقات الله ما يدبّ على الأرض، ومنها ما يكون في السماء؛ كالملائكة، ومنها المسخّر بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

ومعنى قوله: ﴿صَافَّاتٍ﴾: أي: باسطات أجنحتهن. وقوله: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: أي: يقبضن الأجنحة، وربما قبضن جناحًا، وأرسلن جناحًا. وهذه حركة يدركها المتأمل في عالم الطير، فيرى أسراب الطيور تحلق جماعات، ويرى الطير يسبح بمفرده، ويتأمل في خلق هذا الجسم الانسيابي الذي يشق به أجواز الفضاء، وهذا من دلائل الربوبية، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، فلولا أنَّ الله تعالى أودع هذا الطير هذه الصفات التركيبية، والحركية، وإلا لما تمكّن من البقاء. وفي هذا دعوة لهؤلاء المنكرين لوجود الله، والمنكرين للمعاد، للنظر في خلق الله. وقد عبَّر الله تعالى باسمه الرحمٰن؛ في قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾؛ لأن هذا من الرحمة العامة التي وسعت كل شيء.

والرحمٰن والرحيم من أسماء الله الحسنى، وقد ذكر العلماء في الفرق بينهما قولين:

القول الأول: أنَّ الرحمٰن يدل على اتِّصاف الله تعالى بالرحمة العامة، بحيث تشمل جميع المرحومين؛ من مسلمٍ وكافر، وبرٍّ وفاجرٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. والرحيم يدل على اتصاف الله بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

القول الثاني: أنَّ الرحمٰن يدل على اتِّصاف الله بالرحمة اتصافًا ذاتيًا،

وهي الرحمة الواسعة. والرحيم يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًّا، وهي الرحمة الواصلة. مع اشتراكهما في الدلالة على صفة الرحمة.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾، ووصف الله تعالى بالبصر يشمل بصر العلم وبصر الرؤية؛ فالله تعالى بصير بمعنى أنه يرى كل شيء، ولا تخفى عليه خافية؛ يرى النملة السوداء، على الصخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء، كما أنه ﷻ بصير، بمعنى العليم ببواطن الأمور، فخلقه وتكوينه لهذا الطير، ولغيره من المخلوقات، عن علمٍ، وبُصرٍ، وخُبرٍ، وحكمة.

قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾، هذه الآيات مصدَّرة بالاستفهام، وأسلوب الاستفهام أسلوب مؤثر؛ لأنه يستحث الأذهان، ويضع الإنسان في حال مواجهة ليجيب على السؤال، فيحفِّزه ذلك على التفكير، وأن ينفض عن نفسه غبار الجمود والتقليد، ويحوِّل المشاهد المألوفة التي يراها ليل نهار، وصباح مساء، دون أن تحدث فيه أثرًا، إلى مشاهد حية مؤثرة.

قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾؛ أيّ جندٍ يمكن أن يحشده ابن آدم في مواجهة الرَّب ﷻ، ويستنصر به؟! قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فأي جندٍ مهما عظُم وكثُر عدة وعتادًا لا يمكن أن يكون نصيرًا لهم على الله ﷻ؟، وهذا استفهام إنكاري يُراد به التبكيت والتوبيخ.

قوله: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾، هذه حقيقة الأمر؛ أنَّ الكافر يعيش في غرور، والذي غرَّه هو الشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾ [الحديد: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾

[إبراهيم: ٢٢]؛ فالشيطان يسوِّل، ويزيِّن، ويُغري، ويخدع، ويغر؛ فإذا وافق نفسًا خبيثة، كنفس الكافر، استجابت له، وإذا وافق نفسًا مؤمنة ردَّت ذلك وأنكرته.

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: ليسوا إلا في غرور وانخداع.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، قضية الرزق يعيشونها دومًا وأبدًا؛ إذ أنَّ طلب الرزق قد جُبِل عليه العباد، فكل حي يطلب رزقه؛ فالله تعالى يذكرهم بأخص خصائص معيشتهم، وهو الرِّزق، فمن أين لكم الرِّزق لو قطع الله عنكم رزقه؛ فلو منع قطر السماء، ومنع نبت الأرض، ومنع درَّ الضرع، فمن أين تأكلون وتشربون؟ وقوله: ﴿أَمْسَكَ﴾؛ أي: منع وحجب. والجواب عن هذا السؤال، كالذي قبله: لا أحد ينصرهم من دون الله، ولا أحد يرزقهم من دون الله. فتلك مقتضيات الربوبية التي يقر بها جميع بني آدم، ولا يملكون إنكارها.

قوله: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾، لجُّوا: أي: أمعنوا وتمادوا. والعتو: الكبر والعناد. والنفور: البعد عن الحق.

وختام هذه الآية، والتي قبلها، تُصوِّر نفسية الكافر المسكون بهذه المشاعر التي تحول بينه وبين قبول الحق؛ فهو في غرور، وعتو، ونفور، بينما نفس المؤمن نفسٌ مطمئنة، منقادة، قابلة للحق، إذا وجدته عدته ظفرًا وفرحت به، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1]؛ فالكبر الذي يحجب صاحبه عن الخير له صورتان:

إحداهما: صورة خارجية: وهي (بطر الحق)؛ أي: جحده، يعلم أنَّ هذا هو الحق، ومع ذلك يشيح بوجهه، ويشمخ بأنفه.

(١) أخرجه مسلم رقم (٩١).

الثانية: صورة داخلية: وهي (ازدراء الخلق)؛ أي: احتقارهم، فيستخف بالناس، ويرى أنه فوقهم، وخيرٌ منهم. فعلى المؤمن أن يحذر من هذه الأوصاف والسِّمات، التي تلون نفس الكافر، فلا يتشبه بأخلاق الكافرين؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ حِمَارٌ بِالنَّهَارِ عَالِمٌ بِأَمْرِ الدُّنْيَا جَاهِلٌ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ**»[1]؛ بل يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وأيضًا ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣]، فيجب أن يعوِّد الإنسان نفسه على الخضوع للحق، والانقياد له، فإذا بدا لك الحق بدليله، طأطأ له رأسك، واخضع لسلطانه، وطِب به نفسًا، وقرَّ به عينًا.

قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾، هاتان صورتان متقابلتان.

الصورة الأولى: إنسان مكبٌّ على وجهه؛ أي: أن وجهه إلى الأرض.

الصورة الثانية: إنسان منتصب القامة، يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم.

فحال الكافر التائه الضائع كشخص قد صوَّب وجهه إلى الأرض، وطفق يمشي على غير هدى، يتخبط يَمنة ويَسرة.

أما حال المؤمن فهو منتصب القامة، يرى دربه المستقيم، يسير بخطًى واثقة. هكذا حال المؤمن؛ فالمؤمن على نورٍ من الله تعالى. فحين أهبط الله تعالى الأبوين قال: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بهذا اللفظ رقم (٢٠٨٠٤)، وأخرجه أحمد بمعنًى مقارب رقم (١٢٤٧٦)، وإسناده على شرط البخاري ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه الحاكم بمعناه رقم (٢٠٢)، وقال الحاكم والذهبي: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه.

بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمعه مشعل يستضيء به لنفسه، ويضيء لغيره، لا كمن يتخبط في دياجير الظلمات.

وفائدة ضرب الأمثال أنها تُقرِّب الأمور المعنوية بأمثلة حسية؛ فلهذا كَثُر في القرآن ضرب الأمثال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ [الأعراف: ١٧٧]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فمن حسن التعليم ضرب الأمثال. وإذا مرَّ الإنسان بمثلٍ في القرآن فليرعه سمعه؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فإن كان لا يعقل المثل، فتلك علامة سوء.

وفي معنى قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ قوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨]، وفي الحديث: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا)[1]. فهذا حالهم يوم القيامة فيتحول هذا المثل المضروب إلى حقيقة يوم القيامة، فإذا بهم يمشون على وجوههم، بينما يمشي المؤمن سويًّا على صراطٍ مستقيم.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾؛ أي: أنَّ الله تعالى هو الذي أوجدكم من العدم، على غير مثال سابق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٢٣)، ومسلم رقم (٢٨٠٦)، متفق عليه.

قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، كثيرًا ما يرد في القرآن العظيم ذكر هذه الثلاثة: (السمع ـ والبصر ـ والأفئدة)؛ لأنها أنفع أعضاء الإنسان وحواسه؛ فالإنسان يتلقى العلم عن طريق السمع والبصر، ثم يهبط إلى الفؤاد، فيكيِّفه، ويتصوره، ويكون منه العلم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون: ٧٨]، وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٩]، فبعد أن كوّن هذه العلوم والمعارف، وحاز أعلى الألقاب، إذا بهذا العلم المتراكم يضمحل، ويتلاشى، ويتفكك، ويعود الإنسان شيخًا كبيرًا، هرمًا، تظهر عليه آثار الخرف، حتى يقال له: ما اسمك؟ فلا يحسن الجواب! وهذا هو أرذل العمر.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: ما أقل شكركم! ولو تأمل الإنسان في حاله، لوجد أنه لا يؤدي حق الله بشكره على هذه النعم. فهل تفكر الإنسان في نعمة السمع؟ لو لم تكن تسمع، لكنت في هذه الدنيا مغيبًا، ولو كنت ترى الأشخاص. وعامة الناس لا يدركون تفاصيل هذه النعمة، وكيف هيَّأ الله تعالى الأذن الخارجية، والوسطى، والداخلية، والعصب السمعي، لتتولى نقل الأصوات وتحليلها!، فهذه نعمة يجب على الإنسان أن يحقق شكرها. وتحقيق شكرها بأن يصغي إلى كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، والموعظة الحسنة والعلم النافع، ونحو ذلك من الكلام الطيب، ويصون سمعه عن الخنا، والفجور، والفسق، والمعازف، والغيبة، والنميمة، وغير ذلك من اللغو.

وكذلك الحال في نعمة البصر! هذه البِلَّورة التي في محجر العين، التي يُسرِّح الإنسان فيها الطَّرْف فيرى الألوان، والأشكال، والأحوال، ويتمتع بالنظر! ماذا لو سُلِبها كما الأعمى، فأمسى يتخبط في الظلمات؟

ويؤدي الإنسان شكر هذه النعمة بأن يسخرها في طاعة الله تعالى؛ بالنظر في ملكوت السمٰوات والأرض، والنظر في كتاب الله تعالى، فيتلوه بعينه، وينتفع بهذا البصر للوصول إلى مراضي الله تعالى، ويصونه عن النظر إلى ما حرم الله، والمشاهد المحرمة.

ونعمة الفؤاد الذي جعله الله بين أضلاعك، فله فائدتان:

الأولى: فائدة علمية.

الثانية: فائدة عضوية.

فالقلب هو سرة البدن، كما قال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1]، وهذا يشمل الناحية العلمية، والناحية العضوية، فحينما يتعطل القلب يموت صاحبه، وإذا اعتلَّ اعتلَّ البدن. وكذلك القلب المعنوي، إذا صلح واهتدى، واستنار بنور الله تعالى، صَلُح حال الإنسان واستقام، وإذا استهوته الشبهات، والشهوات، والغفلات، ضلَّ صاحبه. فالسمع والبصر منفذان إلى القلب، يتعلم المرء من خلالهما، وليس كل سمع ينفع صاحبه، وليس كل بصر ينفع صاحبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وفي قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، إلماحة إلى أهمية الشكر، وأن يكون الإنسان من الشاكرين. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]، فما أكثر الصابرين، وأقل الشاكرين. فالصابر يصبر اضطرارًا، فإن اقترن به احتساب، أُجر على ذلك، فتجد الإنسان، يُلحُّ على الله تعالى في الدعاء،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢)، ومسلم رقم (١٥٩٩)، متفق عليه.

حتى إذا ما حقق الله تعالى له مطلوبه، نسي ما كان يدعو إليه من قبل؛ فالشاكر هو الذي يرى أن لله عليه حقًّا في كل شيء.

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجَّبا[(١)]

هكذا يكون شكر الله تعالى، باليد، واللسان، والقلب، فيشكر الإنسان ربه بجوارحه؛ فيسخِّرها في طاعته، ويلهج بشكر المنعم بلسانه، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]، ويغتبط قلبه بنعمة الله تعالى. فعلى المسلم أن يعوِّد نفسه على الشكر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [الأحقاف: ١٥]. وليتأمل الإنسان سورة النحل فلقد عدَّد الله تعالى فيها الكثير من أنواع النعم، حتى أنها تسمَّى (سورة النعم)، فينبغي للإنسان أن يفتتح ديوانًا يسمِّيه ديوان النعم يعدد فيه نعم الله عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [النحل: ١٨]؛ فالعد ممكن، أما الإحصاء فممتنع. فعدِّد نعم الله ما استطعت حتى تفرح بفضله ورحمته.

ومن فوائد شكر النعم أن يذهب عن الإنسان الشعور بالكآبة والقلق؛ لأن الإنسان إذا أبصر نعم الله عليه، انشرح صدره، وإذا ذكر ما ينقصه من لعاعة الدنيا ضاق صدره، وقد قال النبي ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ** ـ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ـ: **عَلَيْكُمْ**»[(٢)]، فلو أنَّ إنسانًا نظر إلى حال الأثرياء والمترفين، وأصحاب المراكب والقصور؛ لانقبض خاطره وقال: لم لا أُمتَّع بما مُتِّع به هؤلاء، وإذا نظر إلى أنَّ الله تعالى قد عافاه، وأقرَّ

---

(١) من الألفية، للإمام أبي عبد الله محمد الشيباني الشافعي (المولود: ٧٠٣ المتوفى ٧٧٧).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٩٦٣).

عينه بالزوجة، والذرية، والصحة، وأعظم ذلك نعمة الإسلام، لشعر أنَّ الله اصطفاه من بين مليارات البشر ليكون من المسلمين. فتلك نعمة لا تعدلها نعمة. فكيف بمنَّة الإيمان، والعلم والقرآن، وسائر النعم؟!

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بثَّكم، ونشركم، إذ لم يكن على وجه البسيطة سوى رجلٌ وامرأة، فبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء. فهذه المليارات التي تملأ الكرة الأرضية من أقصى الصين، إلى أمريكا الجنوبية، ومن كندا وسيبريا، إلى جنوب أفريقيا، كلهم يرجعون إلى أبٍ واحد، وأم واحدة، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، حركة مقابل حركة؛ فالحشر في مقابل الذرأ والنشر. فالله ذرأنا وبثَّنا في الأرض، ثم يوم القيامة يحشرنا ويجمعنا على صعيدٍ واحد. وفيه تذكير بالمعاد.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، هذا من الكبرياء والعناد، وإنكار الثوابت، والمحكمات، والبدهيات، فهم يعاندون الرسل ويقولون: متى؟ فيتشاغلون بأين ومتى عن أصل القضية. وإلا فإن متى وأين لا تؤثران على أصل الموضوع، ولهذا لما سأل أعرابي النبي ﷺ: (قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» فَلَمْ يَذْكُرْ كَبِيرًا، قَالَ: وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: «**فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»)(١)، فَعِلْمُ الساعة عند الله، وهؤلاء المكذِّبون يتحدُّون الرسل بكل بجاحة، وسوء أدب، فأمر الله نبيه أن يرد عليهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أنَّ علم الغيب عند الله، وإنما مهمتي الإنذار والبلاغ، وعلم الساعة مما قد ضنَّ الله به من مفاتح الغيب الخمس كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٣٩).

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦]، وقال هٰهنا في سورة الملك: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾، فمهمتي هي النذارة والبيان ليس إلا! و(إنما)، أداة حصر. فهذا أمرٌ يجب أن يتفطن له المؤمن، وأن يُعنى بالحقائق، وأصل العلم، ولا يتشاغل بزغل العلم. عليك أن تعد للساعة، لا أن تشتغل بالبحث عن موعدها، فلا أحد يعلم متى الساعة، لا النبي ﷺ، ولا جبريل! ولما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»)[1]، وإذا سمعت من يقول: إنَّ نهاية العالم ستكون في عام كذا وكذا، فقل له: كذبت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لما رأوا تحقق موعود الله تعالى بالبعث والنشور، زلفة: اسم مصدر يستعمل للواحد وللاثنين، والمعنى: قريبًا. وسيئت: أي: قبُحت، وقيل: اسودَّت كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فكل ما يدل على السوء فتفسر به هذه الآية، كما قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: ٢٤]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٤٠، ٤١]، ويقال: إن أحد الملحدين قال لأحد المؤمنين: ما هو شعورك حين تموت وتكتشف أنَّ كل ما كنت تعتقده لا حقيقة له؟ قال له: لن يكون أسوأ من شعورك حينما تموت وتكتشف أنَّ كل ما كنت تنكره صار حقًّا.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٧)، ومسلم رقم (٨)، متفق عليه.

قالَ المُنَـجِّمُ وَالطَّبيبُ كِلاهُما لا تُحشَرُ الأَجسادُ قُلتُ إِلَيكُما
إِن صَحَّ قَولُكُما فَلَستُ بِخاسِرٍ أَو صَحَّ قَولي فَالخُسارُ عَلَيكُما

قوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾؛ أي: قيل لهم تبكيتًا: هذا هو الذي كنتم به تستعجلون، هذا هو الذي استخففتم به، ورددتموه، وأنكرتموه على الرسل، وكذبتم به، هذا الذي كنتم تدَّعون بقرب حصوله وتستدعونه، ها قد وقع كما أخبر الله تعالى به على ألسنة رسله. قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فيندمون ولات ساعة مندم.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾، أسلوب استفهام على سبيل المجادلة والتنزل مع المخالف. يقول: هَبُوا أنَّ الله أهلكني أنا ومن معي، أو كانت الأخرى فرحمنا، واستبقانا، فماذا يجدي عنكم ذلك، هل يغني عنكم شيئًا؟ سواءٌ تربصتم بنا ريب المنون فهلكنا ومتنا، أو متِّعنا وبقينا، فماذا ينفعكم ذلك؟ هذا لا يغني عنكم من عذاب الله شيئًا. فالله تعالى هو الذي يجير ولا يجار عليه.

والتعبير بالهلاك يأتي غالبًا في الأمر المستكره، مقابل الرحمة، وهذا من حيث الجملة، وإلا فيجوز أن يستعمل الهلاك في أمرٍ غير مستكره كقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤]، ولا زال أهل الفرائض يقولون: هالك عن أبٍ وأمٍ، وكذا وكذا.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، تكرر اسم الرحمٰن في هذه السورة أربع مرات. وكل اسم من أسماء الله الحسنى يتضمن وصفًا؛ فالرحمٰن يتضمن إثبات صفة الرحمة، ولا عكس، فلا يلزم من إثبات

الصفة إثبات الاسم، مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وليس من أسمائه المريد. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وليس من أسمائه الشائي. وباب الصفات أوسع من باب الأسماء.

والإيمان به ﷻ يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وحقيقة الإيمان قولٌ وعمل؛ قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجَنان، وعملٌ بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، فيجب على كل مؤمن أن يستعلن بالإيمان ويقول: ﴿ءَامَنَّا﴾ كما قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، وأمر نبيَّه ﷺ على وجه الخصوص، فقال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤]، وقال: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، فيجب على الإنسان أن يحقق الإيمان بأركانه الثلاثة؛ باعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الأركان.

قوله: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ التوكل من خصال الإيمان، وهذا من عطف الخاص على العام، لأهمية التوكل في هذا المقام. فلما كان المقام مقام مواجهة للمشركين، ومقابلة، ورد، احتاج الأمر إلى ذكر التوكل؛ لأن التوكل: اعتماد القلب على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع فعل الأسباب الموصلة لذلك.

والتوكل عمل قلب، وقد يعطف الله العمل على الإيمان، مع كونه جزء مسمَّاه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: أن يقال: إنَّ هذا من باب عطف الخاص على العام كقولك: حضر الطلبة، وحضر محمد. مع أن محمدًا من الطلبة، فيكون ذلك للاهتمام.

الأمر الثاني: أن يقال: إنَّ هذه الألفاظ لها دلالة عند الاقتران، ولها دلالة عند الافتراق؛ فهي عند الاقتران تحمل معنًى خاصًا، وعند الافتراق تحمل معنًى عامًّا. مثال ذلك: حديث جبريل المشهور، حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان، ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، فقال: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ**»، وقال عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

ففسر الإيمان بالعقائد الباطنة. فإذا اقترن الإسلام والإيمان حُمِل الإسلام على الأعمال الظاهرة، وحُمِل الإيمان على الأعمال الباطنة، وإذا انفرد كلٌّ منهما فإنه يشمل صاحبه، ودلَّ على الدين كله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وكقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وهذه قاعدة ينبغي أن يتنبه لها طالب العلم. ويعبر عنها بالقول: (إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا).

والفرق بين التوكل والتواكل: أن التواكل نوع من العجز والكسل وعدم الأخذ بالأسباب، وهو مذموم. أما التوكل فإنه اعتماد القلب على الله، والأخذ بالأسباب التي نصبها الله؛ سواءٌ كانت أسبابًا شرعية

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٧)، ومسلم رقم (٨)، متفق عليه.

أو حسية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ونبينا ﷺ، حينما دخل مكة، وضع على رأسه المِغفر، وظاهَرَ بين دِرعين، وهذا من اتخاذ الأسباب، ولما هاجر إلى المدينة كان يكمُن نهارًا، ويسير ليلًا. ففِعلُ الأسباب لا ينافي التوكل. والتوكل قرين الإيمان؛ قال موسى لقومه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]، والتوكل من أعظم مظاهر الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨]، فحقِّق يا عبد الله عبادة التوكل عليه ﷻ، وقل كما أمر الله نبيه ﷺ: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾، يعلمون ذلك حينما يَحضُرهم الأجل، ويبصرون ملائكة الرحمٰن، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، وحينما يُبعثون من قبورهم فتقول لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا من أساليب مخاصمة الكفار ومجادلتهم؛ لأن الله أودع فطرهم هذا الإقرار. ولذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فكل كافر ينطوي قلبه على علم بالحق، لكنه يحجبه بالإباء والاستكبار. وإنما سمِّي كافرًا؛ لأنه كَفَره: أي: غطاه، والكَفْرُ: هو الستر والتغطية. ومنه سمِّي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذور في الأرض، ويغطيها بالتراب. ولذا قال الله تعالى عن فرعون وآل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾، هذا من الدلائل التي يجبههم الله تعالى بها، ويجعلهم أمام مواجهة سافرة لا

يمكنهم دفعها، فيقول لهم: أرأيتم هذا الماء الذي جعلناه سبب الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]، لو أنَّ هذا الماء غار في الأرض، فلن تدركُوه بالمعاول والفؤوس، فمن يأتيكم بماءٍ جارٍ؟ وهذا الاستفهام، وما سبقه، كقوله آنفًا: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، وأمثالها، تهزهم هزًّا، وتنفض عنهم غبار العادة والبلادة، وتجعلهم في مواجهة صريحة مع دلائل الإيمان. فمن أراد الله به خيرًا استبصر وجلَّى الغشاوة عن عينيه، والوقر عن أذنيه، والأكنة عن قلبه، واتبع الهدى، ومن تنكب الطريق، وأبى، فإنه لا يزيده ذلك من الله إلا بُعدًا. ويقال: إن أحدهم لما سمع قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾، قال: تأتي به الفؤوس والمعاول، فغار ماء عينيه.

۞ الفوائد الْمُستنبطة من الآيات السابقات:

الفائدة الأولى: التفكر في بديع خلق الله وتدبيره، وهذه من أجلِّ العبادات.

الفائدة الثانية: إثبات اسم الله الرحمٰن، وإثبات ما تضمَّنته من صفة الرحمة.

الفائدة الثالثة: إثبات اسم الله البصير، وتضمُّنه لصفة البصر رؤيةً وعلمًا.

الفائدة الرابعة: ضعف الآدميين واضطرارهم إلى الله تعالى.

الفائدة الخامسة: غرور الكفار وضلالهم.

الفائدة السادسة: فاقة الآدميين وافتقارهم إلى الله.

الفائدة السابعة: استكبار الكافرين ونفرتهم من دلائل الحق.

الفائدة الثامنة: تكييف حال الكافر بالله، بحال التائه المكب على وجهه، لا يهتدي، وفي المقابل تكييف حال المؤمن بالسائر منتصبًا على دربٍ مستقيم.

الفائدة التاسعة: جواز المقارنة بين طرفين في وصف ليس في أحدهما منه شيء كقول الله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل: ٥٩]، كما في قوله هنا: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾، فمن يمشي مكبًّا على وجهه ليس معه من الهدى شيء، ومع ذلك قارن بينهما.

الفائدة العاشرة: مشروعية ضرب الأمثال وفائدتها.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات صفة الخلق، والإنشاء من العدم، لله ربِّ العالمين.

الفائدة الثانية عشرة: أهمية السمع والبصر والفؤاد، وبيان العلاقة بينها.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات الذرء في الدنيا، والحشر في الآخرة، والمقابلة بينهما.

الفائدة الرابعة عشرة: عناد الكفار للحقائق الثابتة، وتشاغلهم بـ«متى» و«كيف».

الفائدة الخامسة عشرة: طعن الكفار بالمرسلين وأتباعهم من المؤمنين.

الفائدة السادسة عشرة: تفويض المؤمن علم ما لا يعلم إلى الله تعالى، وبيان مهمته ووظيفته، وهي البلاغ المبين.

الفائدة السابعة عشرة: اختصاص الله تعالى بعلم الساعة والرد على من ادَّعى علم ذلك.

الفائدة الثامنة عشرة: بيان حال المنكرين للبعث حين تحققه.

الفائدة التاسعة عشرة: أنَّ الوجه مرآة القلب، ولهذا كان نبينا ﷺ من أصدق الناس وجهًا، فكان ﷺ إذا سُرَّ تهلل وجهه حتى كأنه مُذهبة، وإذا كره شيئًا عُرفت الكراهة في وجهه، وهذا يدل على نُبل المشاعر وصدق العواطف.

الفائدة العشرون: تبكيت المنكرين للبعث.

الفائدة الحادية والعشرون: تفنيد حجج المشركين، وإبطال متعلَّقاتهم.

الفائدة الثانية والعشرون: جواز التعبير بالهلاك عن الموت مطلقًا.

الفائدة الثالثة والعشرون: مشروعية قول: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾.

الفائدة الرابعة والعشرون: الجمع بين الإيمان والعمل؛ ومنه التوكل.

الفائدة الخامسة والعشرون: التلازم بين الإيمان والتوكل.

الفائدة السادسة العشرون: تحدي الكفار باضطرارهم إلى الله في أخصِّ حاجاتهم ومقوِّماتهم، وهو الماء.

الفائدة السابعة والعشرون: توظيف دلائل الربوبية لإثبات الألوهية.

الفائدة الثامنة والعشرون: العناية بأسلوب الاستفهام، فعدد الجمل الاستفهامية في هذه السورة اثنتا عشرة جملة؛ أي: أكثر من الثلث، وفائدة الاستفهام: أنه يستثير الذهن، وينفض عنه البلادة والعادة، ويحركه للتبصر والنظر.

الفائدة التاسعة والعشرون: أنَّ الله نزَّل القرآن العظيم مثاني، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أي: يُثنَّى فيه بالمعاني، فتجد الآية يتكرر معناها في أكثر من موضع.





سورة القلم

سمِّيت بهذا الاسم لورود لفظ القلم فيها، ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾. وهي سورة مكية، تتضمَّن ما تتضمَّنه السور المكية مما يتعلق بأصول الاعتقاد، وإثبات المعاد، والنبوة، وغير ذلك من المباحث العقدية التي اعتنى بها القرآن المكي.

ولهذه السورة العظيمة **مقاصد متعددة، من أبرزها وأهمها:**

١ ـ الانتصار للنبي ﷺ والمؤمنين. ودفع ما نبزه به المشركون من وصفه بالجنون، فإنه قد قال في أول السورة: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾، وقال في آخر السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾ [القلم: ٥١].

٢ ـ الرد على المشركين والمستكبرين، وتزييف دعاواهم.

٣ ـ التحذير من فتنة الدنيا وزُخْرفها، ووسوسة النفس، كما يتضح ذلك في قصة أصحاب الجنة.

٤ ـ الترغيب في الآخرة، والتصبير لحكم الله.

يقول الله ﷻ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾، في القرآن العظيم جملة من السور تفتتح بحرف أو حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر من ذلك؛ فالحرف مثل: (ن)، و(ق) و(ص)، والحرفان مثل: (حم)، والثلاثة أحرف مثل: (الم)، (الر)، والأربعة مثل: (المص)، و(المر)، والخمسة مثل: (حم عسق)، و(كهيعص). فما سر هذه الحروف المقطَّعة، وهل لها معاني مدركة يمكن الوصول إليها؟

يورد بعض المفسرين في هذا روايات متعددة في أنَّ المراد بهذا الحرف كذا، والمراد بهذا الحرف كذا، ويجهد في تفسيرها، حتى إنهم قالوا: إن المراد بـ(طه، ويس) النبي ﷺ! والصحيح في هذا أنَّ هذه الحروف المقطَّعة ليس لها معنى، ولكن لها مغزى.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ فِي هَذِهِ الْفَوَاتِحِ شَيْءٌ يَصْلُحُ لِلتَّمَسُّكِ بِهِ؟ قُلْتُ: لَا أَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهَا؛ بَلْ غَايَةُ مَا ثَبَتَ عَنْهُ هُوَ مُجَرَّدُ عَدَدِ حُرُوفِهَا، فَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«من قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»**)[1].

فكلما مرَّ بك أنَّ المراد بكذا كذا، وأنَّ المراد بكذا كذا، فاعلم أنه لا يثبت، ولا يصح إلى رسول الله ﷺ. فهي حروف من حروف المعجم ليس لها معنى ولكن لها مغزى. والمغزى منها: تعجيز أرباب الفصاحة، وأئمة البيان من العرب الذي يفتخرون بالسجع، وبالشعر، وبالمعلقات، أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكأنما يقول الله عَزَّوَجَلَّ لهم: إنَّ هذا القرآن مؤلَّفٌ من مثل هذه الأحرف؛ من الألف، واللام، والميم، والصاد، والنون، والقاف، وغير ذلك مما تنطقون به، وأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة، لا تستطيعون أن تأتوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورةٍ من مثله. وهذا هو الواقع، فإن العرب قاطبةً لم يتمكنوا من مضاهاة القرآن، وأدركوا أنه لا سبيل لهم إلى ذلك.

---

(١) فتح القدير الجامع بين فنَي الرواية والدراية من علم التفسير (١/ ٣١ ـ ٣٢)

وقد جرَّبوا الكهانة، وسجع الكهان، والشعر، والمعلَّقات، والنثر، والنظم، ومع ذلك فإنهم عجزوا أن يأتوا بمثله؛ بل وانبهروا منه، كما يدل على ذلك وقائع كثيرة، فكان معجزة خالدة إلى يوم الدين.

ثم مما يدل على هذا أنه لا يكاد يذكر شيء من هذه الحروف المقطَّعة إلا ويتبعه إشارة إلى القرآن، تأمل مثلًا: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: ١]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١]، وهكذا، وها هنا أيضًا إشارة؛ فقد قال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾؛ لأن هذا القرآن مسطور في اللوح المحفوظ، مكتوب محفوظ.

فهذه الحروف المقطَّعة ليس لها معنى، ولا يصلح أن يقال: لها معنى لا يعلمه إلا الله! أو: الله أعلم بمعناها! فلا يمكن أن يخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ عباده بشيءٍ له معنى لا يمكن الوصول إليه، فإنَّ الله تعالى قد قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، فكيف يأمرنا بتدبُّر ما لا سبيل إلى الوصول إلى معناه، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]، كيف نتعقل ما لا سبيل إلى العلم بمعناه؟

كما أنَّ هذا المسلك يفتح الباب لأهل التجهيل الزاعمين أنَّ آيات الصفات مجهولة المعنى، فضلًا عن الكيفية، وأنَّ لها معانٍ لا يعلمها إلا الله، وأنَّ حظنا منها مجرد قراءة ألفاظها، دون علم بمعانيها، بمنزلة حروف المعجم، فيكونون كمن ذمَّ الله من أهل الكتاب بقوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨]؛ أي: مجرد تلاوة. فهذا هو خلاصة الكلام فيما يتعلق بالحروف المقطعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القلم: ١ ـ ١٦].

قوله: ﴿نٓ﴾ حكى بعض المفسرين روايات متعددة ليس لها زمام ولا خطام، مردُّها إلى الإسرائيليات؛ كقول بعضهم: المراد به الحوت؛ أخذًا من قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقالوا: هو حوت عظيم خلقه الله، وركبت الأرض من فوقه، ويذكرون من الخيالات المروية في الكتب الإسرائيلية ما لا يصح، ولا يجوز التعويل عليه.

وقيل: (ن)، يراد به: الدواة التي يغمس فيها القلم للكتابة، وقيل: (ن)، لوح من نور، إلى آخر ذلك، والمقصود أنَّ جميع هذه الأقوال ليست صوابًا، ولا يعوَّل عليها؛ بل هو حرف من حروف المعجم ليس إلا، ليس له معنى مراد عند الله تعالى؛ بل له حكمة ومغزى، كما أسلفنا.

قوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ هذه واو القسم، فأقسم الله ﷻ بالقلم، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به. والمراد بالقلم يحتمل أمرين: يحتمل جنس القلم، فإن القلم شريف لأنه أداة العلم؛ ولهذا ذكره الله ﷻ في أول ما أنزل من كتابه فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فيكون المراد بالقلم جنس القلم، الذي هو وسيلة لحفظ العلم ونقله ونشره، فهو شريف بهذا الاعتبار، فلشرفه أقسم الله به.

ويحتمل أن يراد بالقلم قلم القدر، الذي جاء ذكره في الأحاديث، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»[١]، وربما كان عدة أقلام، كما جاء في حديث المعراج أنَّ النبي ﷺ بلغ منزلة فوق سدرة المنتهى، سمع فيها صريف الأقلام؛ أي: أقلام القدر، وفي حديثه لابن عباس: «**رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[٢]؛ يعني: أقلام القدر.

ولا مانع من حمل هذه اللفظة على المعنيين، على القلم المخصوص الذي هو قلم القدر، وعلى جنس القلم الذي هو أداة لحفظ العلم وسطره.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ وَمَا يَسْطُرُون: إن قلنا: هو قلم القدر؛ فالذين يسطرون هم الملائكة، فهم يكتبون، وإن قلنا: هو جنس القلم، فيتناول كل مكتوب، بما فيه ما تكتبه الملائكة من أعمال بني آدم، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠].

فعلى هذا يكون وما يسطرون؛ يعني: ما يكتبون في السطور، وهذا يدل على فضل الكتابة، وأنها نعمة من الله ﷻ على بني آدم، إذ لولا الكتابة لضاع العلم، وضاعت الحقوق. والحفظ له سبيلان:

السبيل الأول: حفظٌ في الصدور، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

لكن هذا النوع من الحفظ يضمحل ويذهب مع التقادم في العمر، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٠٠)، والترمذي رقم (٣٣١٩)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٥١٦)، وأحمد رقم (٢٦٧٠)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، فإذا بهذه المحفوظات التي تراكمت عبر عقود من الزمن تضمحل، وتتلاشى، وتفنى، ويعود هذا الشيخ الهرم لا يعلم شيئًا مما اقتناه من علوم.

السبيل الثاني: حفظٌ في السطور، وهو أدوَم وأثبت من الحفظ في الصدور، وذلك أن يُكتب العلم في الصحف والمدوَّنات. ألم تروا أنّا نملك علومًا مضى عليها قرون مما كتبه المتقدمون.

قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾، هذا جواب القسم. نفى الله تعالى عن نبيه الجنون الذي وصمه به أعداؤه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦]، والجنون: ذهاب العقل. فبرَّأه الله تعالى ونعَّمه. ونعمة ربه النبوة؛ يعني: ليس ما جئت به من النبوة والحكمة جنونًا، والحكمة: هي السُّنَّة، فليس ما يخرج من فيك جنون، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١ ـ ٤]. فكل ما فاه به النبي ﷺ فهو إما وحي، وإما حكمة.

وقد يكون المراد بقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ من فضل الله عليك، كما يقول أحدنا: ما أنا، بحمد الله، بكذا وكذا، ما أنا، بفضل الله، بكذا وكذا، فيكون ذلك نوعًا من الجملة الاعتراضية التي يراد بها التنويه بالنعم، كقول الشاعر:

فإني بحمد اللَّه لا ثوب ذلةٍ لبست ولا من ريبةٍ أتقنَّعُ

وقد يراد بالنعمة خصوص النعمة عليه ﷺ، بالنبوة والحكمة، أو أن يراد بذلك عموم النعمة التي أنعمها الله ﷻ عليه، فعصمه من الاتصاف بالجنون والسفه، وغير ذلك من أوصاف السوء التي ينبزه بها المشركون، وحسبك بتبرئةٍ تصدر من ربِّ العالمين للنبي ﷺ.

فكل من وصمه بهذا الوصف فكلامه باطل مردود عليه، فإن الله،

خالقه، قد امتن عليه بكمال العقل، ووفور الحكمة، وسداد الرأي والقول والعمل، بأبي هو وأمي ﷺ.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾، أتى بكلمة (أجر) نكرة، لتدل على طلاقته، وعدم تقييده، وكثرته، وتنوعه، (غَيْرَ مَمْنُون)، غير منقطع، ولا ناقص. ولا يقال: لا مِنَّة فيه؛ لأن المِنَّة لله تعالى قطعًا، الله ﷻ له المِنَّة على جميع عباده. والمقصود بقوله: غَيْرَ مَمْنُون، في سورة التين وسورة الانشقاق، وهاهنا؛ أي: غير مقطوع، كما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]؛ يعني: غير منقطع، وغير منتقص، فكل ذلك لنبينا ﷺ.

قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، لم يقل: وإنك لذو خلق عظيم؛ بل قال: لعلى، فأتى بلفظ يدل على الاستعلاء والتمكن، كأنما أحاط به، وأشرف عليه. وتأمل وقع هذه الآيات على نبيِّنا ﷺ الذي يعاني من كفار قريش ما يعانيه، وهم يؤذونه في نفسه، وبدنه، ويقذفونه بأنواع التهم، في حربٍ نفسيةٍ مُستعرةٍ عليه ليل نهار، فيأتيه هذا المدد من الله، لينفِّس عنه ما يجد. فأي أثر تتركه هذه الكلمات الربانية الحانية في نفس النبي ﷺ؟.

فما هو ذلك الخُلُق العظيم الذي كان عليه النبي ﷺ؟.

هذا يحتمل أمرين لا تعارض بينهما، **الأمر الأول:** أنَّ ذلك الخُلق هو الدين والإسلام، فإن الله ﷻ قد أوحى إليه الكتاب والحكمة، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]. فذلك هو الخلق العظيم. ويدل عليه حديث عائشة، رضي الله عنها، حين سُئلت عن خُلق النبي ﷺ قالت: «**كان خُلُقه القرآن**»[1]؛ يعني: أنه

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٤٦٠١)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، يأتمر بأمره، وينتهي عن نهيه. فهذا هو خلقه، وهذا هو هديه، وهذا هو سَمْته. فقد تمثل القرآن بالأوامر والمناهي، فصار القرآن خُلقه وسجيته. والدين كله خُلق، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (الدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ. فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ: زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ)[(١)]. وفي بعض سياقات حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لما سئلت عن خلق النبي ﷺ قَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، تَقْرَأُونَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَتِ: اقْرَأْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، قَالَ يَزِيدُ: فَقَرَأْتُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إِلَى ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: ٥]، قَالَتْ: هَكَذَا كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(٢)].

المحمل الثاني: أن يراد بالخلق الصفات الكريمة، والأخلاق الفاضلة، والطباع السوية، والشمائل الطاهرة، التي كان عليها النبي ﷺ، ولا ريب أنَّ نبينا ﷺ قد بلغ الذروة والغاية في هذا الباب، يقول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فكان على الغاية ﷺ في دماثة الخُلق، والصبر، والسماحة، والحلم، والكرم، والشجاعة، وحسن العشرة، ولين الكلام، وطيب المعشر، وما شئت من الأخلاق الكريمة.

ومما يروى من شمائله الطاهرة: عن جابر أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي لِتَمَامِ صَالِحَ الأَخْلاقِ، وَتَمَامِ مَحَاسِنِ الأَفْعَالِ**»[(٣)]، وعن

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٣٠٨)، ضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد رقم (١/ ٤٢). وقولها: (كان خلقه القرآن)، ثابت بإسناد صحيح عند الإمام أحمد.

(٣) أخرجه أحمد رقم (٨٩٥٢)، وقال الأرنؤوط: صحيح، وأخرجه البخاري في الأدب =

البراء قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ البَائِنِ، وَلَا بِالقَصِيرِ**»)[١]، فهناك تلازم بين حُسن الخَلْق وحُسن الخُلُق، وليس المقصود بحسن الخَلق بالضرورة أن يكون وسيمًا قسيمًا، وإن كان ذلك متحققًا في نبينا محمد ﷺ؛ بل أن يظهر أثر خُلقه في تباشير وجهه، وانطلاق أساريره. قد تنظر إلى الرجل ويكون دميم الخلقة، لكن فيه من البِشْر والسماحة ما يجعله جميلًا، وربما تجد الإنسان الجميل القسيم الوسيم، تغشاه قترة، وتجد منه نفرة. فهناك تلازم بين حسن الوجه، وحسن الخلق كما دل عليه حديث البراء.

وعن أنس بن مالك قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ»[٢]، من يطيق هذا؟ هذا خادم طوال عشر سنين، لم يبدر من سيده ﷺ أن تأفف منه! وأحدنا يتأفف من زوجته، ومن ولده، ومن كثير ممن حوله. ولم يعتب عليه في فعل أو ترك أبدًا! وانظر ذلك في يومياتك! كم مرة تقول لأهلك: لمَ فعلتم كذا وكذا؟ لمَ لم تفعلوا كذا وكذا؟ والنبي ﷺ، على علوِّ قدره، وشريف منزلته، لا يصدر منه ذلك، ولا لخادمه! وحتى أنه إذا سمع أهله يلومون أنسًا على شيء قال: «**دَعُوهُ، فَلَوْ قُدِّرَ** ـ أَوْ قَالَ: **لَوْ قُضِيَ ـ أَنْ يَكُونَ كَانَ**»[٣].

بهذا تحصل السعادة. أما العتب فإنه مجلبة للحزن. وعن أنسٍ، أيضًا، قال: (وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا)[٤]، وعنه أيضًا: (وَلَا مَسِسْتُ خَزَّةً وَلَا حَرِيرَةً، أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا

= المفرد رقم (٢٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٥).

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٥٤٩)، ومسلم رقم (٢٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٨)، ومسلم رقم (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٣٤١٩). (٤) أخرجه مسلم رقم (٢٣١٠).

شَمِمْتُ مِسْكَةً، وَلَا عَبِيرَةً أَطْيَبَ رَائِحَةً مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[١].

وعن عبد الله بن عمر، قال: (لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا**»)[٢]، وقال: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[٣].

وعن أنسٍ: (أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**» فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا)[٤]. ومن الناس من إذا تقدم إليه صاحب حاجة، تبرَّم منه، واستنكف عن مخاطبته، فضلًا عن أن يذهب معه، أو أن يقضي حاجته.

وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ «إِذَا صَافَحَ الرَّجُلُ لَمْ يَنْزِعْ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ يَدَهُ، وَلَا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ»)[٥]، ومن الناس من يشيح بوجهه عن محدثه، وينفض يده من مصافحه، ويتصدد عمن يريده بأمر من الأمور.

وعن عائشة قالت: (وَاللهِ مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ، وَلَا خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ)[٦]، وعن أنسٍ قال: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٩٧٣).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٥٥٩)، وأخرج مسلم أوله رقم (٢٣٢١).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٨٩٥)، وابن ماجه رقم (١٩٧٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٣٢٦).

(٥) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٩٠)، وابن ماجه رقم (٣٧١٦)، وقال الترمذي: حديث غريب.

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٩١١٨)، وأحمد رقم (٢٥٩٢٣)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى «نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ»، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، «فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[١].

انظروا إلى فظاظة هذا الأعرابي، في القول وفي الفعل؛ في الفعل جبذه جبذة شديدة حتى أثَّرت في عاتقه! وفي القول بمخاطبته بهذه اللغة الجافية، يا محمد! لم يقل يا رسول الله، ثم يقول له بصيغة الأمر: مُرْ لي من مال الله الذي عندك، وكأن في الكلام تهمة.

ماذا لو جرى مثل هذا لأحدنا؟ لو أن طفلك الصغير جرَّ شماغك فوقع على الأرض، كيف تكون ردة فعلك غالبًا؟ أما رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء! موقف يستدعي الغيظ، ويستثير الغضب، من سوء الأدب، لكنه، بأبي هو وأمي، ضحك؛ لأنه استوعب الموقف، وعرف طبيعة هذا الأعرابي، وأنه على هذا نشأ، فلم يحمل الأمر على قصد الإساءة، فتجاوز الموقف.

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: **«مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ»**[٢]، يبلغ الإنسان بحسن الخلق، درجات عالية، والفاحش البذيء، من الناس، مَن لسانه نتن، لا يتحدث إلا بما تحت السرة، أو بالسباب، والشتم، والقذف، يدخل وهو يلعن، ويخرج وهو يلعن، يتكلم بلغةٍ سُوقية.

وهذا لا يختص بالحديث المباشر؛ بل يدخل فيه ما يوجد الآن في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٨٠٩)، ومسلم رقم (١٠٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٩٩)، والترمذي رقم (٢٠٠٢)، وقال: حديث حسن صحيح.

الوسائط الإلكترونية من الحديث الساقط الهابط، الذي تقشعر منه الجلود، وتشمئز منه النفوس، ويثير الغثيان، فما أشد انطباق هذا الوصف النبوي على عددٍ من الناس الذين ابتُلوا بهذه الخصلة الذميمة.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: **«تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ»**، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: **«الفَمُ وَالفَرْجُ»**»[١].

وعن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»**[٢]، وكان النبي ﷺ يدعو ويقول: **«اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَقِنِي سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»**[٣]. فهذه نبذة يسيرة دعا إليها الحديث عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾، جملة مخيفة، فيها تهديدٌ ووعيدٌ لأولئك المكذِّبين، الذين وصموا النبي ﷺ بالجنون، والمعنى: سيتكشف الحال، ويتبين من هو المفتون حقًّا. فإنهم وصفوا النبي ﷺ بالفتنة؛ يفتن الرجل عن أهله وقبيلته، والزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها، وغير ذلك. وقيل: إنَّ معنى مفتون: مجنون، كما تقدم؛ فالمقصود بالفتنة هنا، وصف السوء، وللفتنة معاني متعددة.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٠٠٤)، وابن ماجه رقم (٤٢٤٦)، وأحمد رقم (٧٩٠٧)، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب. وحسَّن الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة رقم (٩٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٩٨)، وأحمد رقم (٢٤٣٥٥)، والحاكم رقم (١٩٩)، وقال: هذا حديث على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وشاهده، صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه النسائي رقم (٨٩٦)، والدارقطني في سننه رقم (١١٣٩)، وصححه الألباني (في السلسلة الصحيحة ـ رقم ٣٢٥٥).

وقد أبصروا، وأبصر النبي ﷺ وأبصر الخلق، أنَّ هؤلاء المشركين الضَّالِّين المكذِّبين هم المفتونون، كما قال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٤]، فذاقوا فتنتهم، وذاقوا العذاب من جراء ذلك. والباء هنا بمعنى «في»؛ أي: أنتم أم هو، أو أي الفريقين، في الفتنة، والمعنى متقارب.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾، جملة تقريرية، ثقيلة، رصينة، تدل على كمال علم الله تعالى بخلقه، وضمير الفصل هنا للتأكيد، فلستم أنتم الذين تمنحون شهادات حسن السيرة، والسلوك، والتزكيات، ذاك إلى الله، كما قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩]. وسبيله: دينه وشرعته، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦]، فالله أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين الذين اهتدوا إلى سبيله.

وفي هذه الآية ما يدل على إثبات القدر؛ لأن علم الله السابق بمن يضل عن سبيله، ومن يهتدي إليه، دليلٌ على أنه قد قدَّر المقادير على العباد، «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**»(١)، يُضل من يشاء، ويهدي من يشاء، لكنه أخفى ذلك عنهم، وأظهر لهم شرعه، وقال: اعملوا! فمن ضلَّ فإنه يضل عن سبق إصرار، ومحض اختيار، ومن يهتدي كذلك. لهذا أسند الله الأفعال إلى المكلفين فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]، فهذه الجملة تدل على إثبات القدر،

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٧٦٦٠).

وتدل أيضًا على إثبات المشيئة للعباد من حيث سلوك طريق الهدى وسلوك طريق الضلالة.

وهذا الذي تجتمع به الأدلة، فنثبت للعبد مشيئةً وفعلًا واختيارًا، لكنها تابعة لمشيئة الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]، فليس للعبد مشيئة منفصلة عن المشيئة الكونية التي قدَّرها الله وقضاها في الأزل، لكن إثبات المشيئة السابقة لا يمنع من إثبات مشيئة حقيقية، وفعل حقيقي للعبد، وهذا من مباحث القدر.

قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾، فإن في طاعتهم الهلاك، والمراد بالمكذبين: المكذبين بالرسل وبالقرآن وبالبعث.

قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ ودُّوا: أي: تمنوا ورغبوا، والمراد بالإدهان: المصانعة، والنفاق، والرياء، والتقية؛ يعني: لو طاوعتهم لجرُّوك إلى أحوالٍ ومقاماتٍ تزل فيها، وتنسلخ عما أمرك الله ﷻ به.

وفي هذا إشارة إلى عرضٍ عرضوه على النبي ﷺ، فعن ابن عباس: أنَّ قريشًا وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالًا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوّجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكفّ عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل، فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك، ولنا فيها صلاح. قال: **«ما هي؟»** قالوا: تعبد آلهتنا سنة؛ اللات والعزى، ونعبد إلٰهك سنة، قال: **«حتى أنْظُرَ ما يأْتي مِنْ عِنْدِ رَبّي»**، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١][1]. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ فلا مانع عندهم من التنازل لأن أمر الاعتقاد بالنسبة لهم قضية قابلة للمتاجرة، أما أنت فحاشاك أن يقع ذلك منك، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٦٢).

عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

فلا تجوز المصانعة، والمسايرة، والمجاملة في أصل الدين، أما ما سوى ذلك من أمور الحياة فقد يحتاج إليها الإنسان أحيانًا؛ إما دفعًا لشر، أو جلبًا لمصلحة، والآية توحي بالنهي والتحذير؛ أي: لا تفعل هذه الملاينة، والمداهنة، والتملُّق، والمصانعة التي هي استزلال عن أصل الدين.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾، هذه السلسلة من ألقاب السوء التي وصم الله ﷻ بها عدو نبيه ﷺ، ويقال: إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، سيد من سادات قريش، ويقال: أنها نزلت في الأخنس بن شُريق، وهي تنطبق على عامة أعداء الرسل الذين انتصبوا لعداوتهم.

ومع أنه قال قبل ذلك: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾، أعاده لمزيد التأكيد والتحذير من هذا الصنف خاصة، فقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ﴾؛ أي: كثير الحلف، أهون ما عليه أن يشقق الأيمان بالدعاوى العريضة، كما هو حال المنافقين، فإنه إذا أكثر الحلف أوهم السذج بأنه صادق في دعواه، وهو مجرد حلّاف، ﴿مَّهِينٍ ۝١٠﴾؛ أي: ذميم وسامج وحقير. ومن امتهن الكذب، هانت عليه نفسه؛ لأن الذي يحلف ويكذب لا يحترم نفسه، لو كان يحترم نفسه ما حط منها، ووضعها في منزلة الكذب، وإظهار خلاف ما يبطن، ولهذا وصفه الله بأنه مهين، حقير، ذليل، وضيع.

وقوله: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾؛ أي: كثير الهمز، وهو الطعن في الآخرين، وذكر معايبهم، كقوله في سورة الهُمَزة: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]، فيُحمل الهمز على القول واللمز على الإشارة، أو

العكس ويمكن أن يقع هذا بالعين بأن يغمز، ويمكن أن يقع باللسان بأن يتفوه بكلمة نبز. ﴿بِنَمِيمٍ ⑪﴾؛ يعني: أنه يسعى بالوقيعة بين الناس، وإيغار صدور بعضهم تجاه بعض. ولهذا قال في الحديث: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[1]، وهو النمَّام، عكس حال المؤمنين الذين قال الله عنهم: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

قوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫﴾؛ يعني: فيه بخل وشح، يمنع الخير من الوصول إلى مبتغيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦﴾ [الماعون: ٧]، أو المراد بالخير الإسلام؛ يعني: أنه يصد عن دين الإسلام، إذ الإسلام هو الخير كله.

قوله: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫﴾ معتدٍ على الآخرين، أثيم؛ أي: في نفسه، فهو صاحب عدوان، لا يسلم منه أحد، إما من لسانه أو فعاله، «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[2]، أما هذا فإنه معتد، يعتدي على الناس في أشخاصهم، وأموالهم، وأعراضهم. كما أنه منغمسٌ في الإثم فيقع في الموبقات والمحرَّمات لا يبالي.

قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ⑬﴾، العُتُل: هو الغليظ الجافي القاسي، العتْل مأخوذ من القسوة والغلظة، فبعض النفوس الخبيثة تكون على هذا الحال، ولذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ، حِمَارٌ بِالنَّهَارِ، عَالِمٌ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٌ بِالْآخِرَةِ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠٥٦)، ومسلم رقم (١٠٥)، متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٠)، ومسلم رقم (٤٠)، متفق عليه.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بهذا اللفظ رقم (٢٠٨٠٤)، وأخرجه أحمد بمعنى متقارب رقم (١٢٤٧٦)، وإسناده على شرط البخاري ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه الحاكم بمعناه رقم (٢٠٢)، وقال الحاكم والذهبي: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه.

قوله: ﴿زَنِيمٍ ۝١٣﴾، هذا وصف فيه سخرية بهذا الكافر، كما توجد الزنمة، وهي اللحمة المتدلية في عنق الشاة، أو في عنق الماعز، تسمى زنمة، فكأنها شهرة له بها يعرف، لا يعرف إلا بهذا، فإذا ذكر السوء والفحش والغلظة والقسوة، قيل: فلان.

وقيل: معنى زنيم: أنه لصيق بالقوم وليس منهم، فإن هذا الرجل، سواء كان الوليد بن المغيرة، أو الأخنس بن شريق، أو الأسود بن يغوث، قيل: أنه كان لصيقًا بقريش، وأنَّ أباه لم يُلحقه به إلا بعد أن بلغ ثمان عشرة سنة، فهو لصيق بهم وليس منهم.

هذا وصف هؤلاء الممسوخين، المحجوبين عن نور النبوة، وهدى الله، ينعكس على أخلاقهم وعلى سلوكهم. فهذه الآيات ذم لهم، وانتصار للنبي ﷺ، فكما أنك يا محمد على خلق عظيم، فتلك أخلاق أعدائك وخصومك. هذه الحزمة القبيحة من ألقاب السوء: حلَّاف، مهين، همَّاز، مشاء بنميم، مناع للخير، عتل، زنيم، يستحقها أولئك الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء وصاروا يسمونه بألقاب السوء.

قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾ فيها قراءات، (أن)، بفتح همزة مفردة، و(أإن)، بتحقيق الهمزتين، وفي قراءة بتسهيل الثانية، والقراءة المشهورة بهمزة مفردة والمعنى: ألأن كان ذا مال وبنين. فكان سبب هذا الإثم والتكذيب أنه كان ذا مال وبنين، ظن المغرور أن وفرة المال، وكثرة البنين، تسوِّغ له الاستطالة، والتفاخر، والتباهي، ولهذا تهدده في سورة المدثر كما سيأتي: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٣]. وهذا يرجِّح أنّ المراد هو الوليد بن المغيرة؛ لأنه المقصود في سورة المدثر، فقد قال في سورة المدثر: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٢ ـ ٢٥] وقال هنا: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾.

قال ابن هشام: وَكَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيَنْصِبُ لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَكَانَ قَدْ قَدِمَ الْحِيرَةَ، وَتَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وَأَحَادِيثَ رُسْتُمَ وَاسْبِنْدِيَارَ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسًا فَذَكَّرَ فِيهِ بالله، وَحَذَّرَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ، خَلَفَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَاللهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، فَهَلُمَّ إِلَيَّ، فَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مُلُوكِ فَارِسَ وَرُسْتُمَ وَاسْبِنْدِيَارَ، ثم يَقُول: بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنِّي؟[1]. ظنَّ أنَّ المسألة مجرد حكايات! ولم يدرك المعنى العظيم الذي جاء به القرآن العظيم، فظنَّ أنه من جنس أساطير الأولين.

وهذا كِبْرٌ ما بعده كِبر؛ لأن الكِبْرَ: بطر الحق، وازدراء الناس. وقد جمع بينهما، فبطر الحق؛ يعني: جحده، يعلم أن هذا حق وينكره، كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنعام: ٢٦]، يأتون في ظلمة الليل يستمعون إلى قراءة النبي ﷺ ويتعجبون، ثم يتواصون ألَّا يعودوا حتى لا يغتر الناس بذلك، فيفقدون رياستهم، كما قال أبو جهل، لما وُوجه بذلك، قال: نحن وبنو هاشم كفرَسي رهان، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي، فمن أين لنا ذلك؟[2]. وأما ازدراء الخلق فقد ذموا النبي ﷺ وقالوا: مجنون مفتري كذاب... إلخ.

قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾، ختم الله تعالى هذه الآيات بهذا

---

(١) سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٣٠٠). (٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢).

الوعيد المخيف. والوسم: وضع علامة لا تفارق صاحبها، كما يقول جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وسما البعيث جدعت أنف الأخطل

فالميسم: هو العلامة التي تجعل على الشخص لا تفارقه، وأراد بالخرطوم الأنف؛ لأنه أبين ما في الوجه، فوسمه بأبين ما فيه، وذلك حينما يعذبه الله تعالى، وتلفح وجهه النار، أو حينما خطمه السيف يوم بدر، فضرب وجهه وأنفه، فوقع له ذلك في الدنيا قبل الآخرة.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: إعجاز القرآن للفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، مع تمكنهم من لغته وحرفه.

الفائدة الثانية: عظيم شأن القلم، والكتابة، والمكتوب، والله لا يقسم إلا بمعظَّم.

الفائدة الثالثة: أهمية الحفظ في السطور كما في الصدور.

الفائدة الرابعة: براءة النبي ﷺ من شعب الجنون كافة.

الفائدة الخامسة: امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بنعمة النبوة، والحكمة، والعصمة، وموفور العقل، وسداد الرأي والقول والعمل.

الفائدة السادسة: موعود الله لنبيه ﷺ بجزيل الأجر ودوامه.

الفائدة السابعة: تزكية الله لأخلاق نبيه ﷺ وشمائله الطاهرة.

الفائدة الثامنة: أهمية الخُلُق، وعظيم أثره، وجزيل ثوابه، فينبغي للإنسان أن يهذب أخلاقه وأن يدعو ربه بتحصيله.

الفائدة التاسعة: أن كمال الخُلُق في امتثال هدى الله في القرآن؛ فالدين كله خُلق.

الفائدة العاشرة: وعيد الله للمخالفين للحق وتحققه.

الفائدة الحادية عشرة: تلبس الكفار بالفتنة.

الفائدة الثانية عشرة: كمال علم الله بعباده، وسبق قدره فيهم.

الفائدة الثالثة عشرة: التحذير من موافقة أهل الزيغ والتكذيب.

الفائدة الرابعة عشرة: التحذير من طرائق المخالفين للرسل وأنها ملتوية، ومنها الادِّهان.

الفائدة الخامسة عشرة: التحذير من التنازل عن الحق تحت أي دعوى؛ كالمصلحة الملغية.

الفائدة السادسة عشرة: استعداد الكفار للادّهان والمصانعة، والتقية، ورغبتهم في ذلك.

الفائدة السابعة عشرة: التحذير الخاص من المكذِّب الحلّاف بالباطل.

الفائدة الثامنة عشرة: دناءة المخالف للنبي ﷺ واتصافه بصفات السوء.

الفائدة التاسعة عشرة: الحذر من مشابهة أخلاق الكفار الذميمة.

الفائدة العشرون: ذم الهمز، والنميمة، والشح، والعدوان، والإثم، والغلظة.

الفائدة الحادية والعشرون: وصم الكافر المنتصب لعداوة النبي ﷺ بالدخيل اللصيق.

الفائدة الثانية والعشرون: اغترار الكافر بأعراض الدنيا من المال والبنين.

الفائدة الثالثة والعشرون: كِبْر الكافر وغمطه للحق.

الفائدة الرابعة والعشرون: أنَّ الجزاء من جنس العمل.

لما ذكر الله ﷻ هاتين الصورتين الخُلُقيتين المتقابلتين وذكر نعمته ﷻ على قريش وعلى مشركي العرب ببعثة محمد ﷺ وكيف قابلوا هذه النعمة بالنكران، ضرب لهم مثلًا واقعيًّا وقصة ذات عبرة، فقال تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٤١].

هذه القصة تحكي حال نَفَرٍ ورثوا بستانًا عن أبيهم، ويقال: إن أباهم كان ذا فضلٍ وإحسانٍ إلى الفقراء والمساكين، فإذا أثمرت حديقته ردَّ جزءًا منها في إصلاحها وتعميرها، وادَّخر ما يكفيه وذويه، وتصدَّق بالثلث على الفقراء والمساكين، فبورك له فيها.

ثم إن بنيه من بعده، رأوا في هذا التصرف إضاعةً لأموالهم، فنشأ عندهم، بسبب الشح والبخل، ما حملهم على الإمساك، ومخالفة طريقة أبيهم، فتآمروا وتواطؤوا على منع المساكين، وقابلوا النعماء بالكفران.

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: بلونا مشركي العرب، وكفار مكة، كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ. والبلاء: هو الاختبار، والله ﷻ يبتلي عباده بأنواع البلاء ليستنبط ما في قلوبهم من خيرٍ أو شر، وهذه سُنَّته سبحانه في خلقه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، لا بد من ابتلاء، لا يدع الله الناس دون بلاء، كل أحد سيُبتلى. وقد سُئِل النبي ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ**

الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ»(١)، فلا بد أن يُبتلى الإنسان بالسراء والضراء، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والواجب على من ابتُليَ أن يقابل السرَّاء بالشكران، والضرَّاء بالصبر والسلوان، قال نبينا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٢)؛ فالابتلاء له حكمة: وهي تميز المؤمنين من الكفار، والأبرار من الفجار، والصادق من الكاذب؛ فالبلاء هو المحك، الذي يكشف معدن الإنسان وحقيقته، فاستمسك واعتصم بالله ﷻ حتى تنجو في هذا الاختبار.

والجَنَّة: هي البستان، وإنما سمِّيت بذلك؛ لأنها مُجتَنَّة، تحيط بها الأشجار، وتحجبها من كل جهة، وفيها من الزروع والثمار ما تشتهيه الأنفس.

قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧﴾، حلفوا أيمانًا ليؤكدوا ما عزموا عليه، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: أي: ليجُدنَّ ثمرة هذه الجنة في الصباح الباكر، وقال بعض المفسرين: أن معنى مصبحين: أي: في الليل، كأن مراده: مستقبلي الصباح، حتى لا يفطن الفقراء والمساكين كعادتهم، فيستعدوا لينالوا ما تعوَّدوه. لكن ظاهر الآيات أنَّ ذلك وقع في الصباح الباكر، لقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾، وذلك لا يتأتى نصف الليل؛ بل يكون بعد انبلاج الفجر، ولقوله: ﴿وَغَدَوْا﴾، والغُدُو: الذهاب أول النهار في الصباح

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٩٨)، وأحمد رقم (١٤٨١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٩).

الباكر. وقد لا يتفطن الفقراء والمساكين لخروجهم حتى يرتفع النهار، والصرم: معناه الجذاذ، وقطف الثمار، وحصد الزروع.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾، ومعنى وَلَا يَسْتَثْنُونَ: أي: أنهم لم يقولوا: إن شاء الله، هذا هو الاستثناء، ومن المعلوم أنه يجب على الإنسان إذا هَمَّ بأمرٍ من الأمور، وعزم عليه، وقال: إني فاعل ذلك غدًا! أن يستثني ويقول: إن شاء الله، وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. إذ أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]، فكل شيء مقرون بمشيئته، لا سيما إذا عبَّر بالجملة الاسمية، «إني فاعل»، الدالة على الاستقرار والثبوت.

فلما أقسموا قسمًا مؤكدًا بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، أنهم سيفعلون، كان ذلك دليلًا على تصميمهم وعزمهم، ولكنهم لم يستثنوا، ولم يقولوا: إن شاء الله. فلا بد من أن يتفطن الإنسان لمشيئة الله تعالى، فلا يطلق العبارات الجازمة بأنه فاعل كذا، ويفعل كذا، دون أن يقرنها بالمشيئة، ولا يتوهم أنه قادر على إنفاذ ما أراد؛ فالعبد يشاء، والرب يشاء، ولا يكون إلا ما يشاء الله، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

بعض الناس يطلق القول على عواهنه بأنه سيفعل ويفعل، ويقوم ويقعد، ويقدِّم ويؤخِّر، ثم يُحال بينه وبين ما أراد! يعمد أحدنا في الليل قبل أن ينام فيخطط لما سيعمل غدًا، وربما كتب قائمة بأعمال اليوم التالي، ثم يصبح مريضًا طريح الفراش، أو يجد سيارته متعطلة، فلا يصنع شيئًا مما أجمع عليه ألبتة. فعلى الإنسان أن يعوِّد نفسه على التعليق بالمشيئة، لا سيما إذا خرج الكلام منه مخرج الجزم؛ كالجملة الاسمية، قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾. وكذا لو اقترن به القسم، ونون التوكيد، ولام القسم كما فعل

هؤلاء، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧﴾، فكان من شؤم تركهم للاستثناء ما سمعتم. وإذا قال الإنسان: إن شاء الله، فإنه يحصل بها بركة، حتى إنَّ الاستثناء يكون في الأمور المحققة، قال الله ﷻ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، مع أنّ القائل هو الله، وجاء بالقسم، ولام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، ومع ذلك قال: إن شاء الله.

قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾، الطائف لا يكون إلا ليلًا؛ كالطارق، **قوله**: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ ۝١٩﴾؛ أي: في وقت هجدتهم وهجوعهم، سلَّط الله عليها آفةً من السماء فأهلكتها بعد أن زهت أشجارها، وأينعت ثمارها، وباتت في غاية الحسن والنضارة.

قوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾؛ أي: فصارت تلك الجنة الغنَّاء، المليئة بالثمار، والزروع؛ كالصريم. قال ابن عباس رضي الله عنه: كَالصَّرِيمِ؛ أَيْ: كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ[1]؛ يعني: أنها احترقت فصارت سوداء فاحمة، وقيل: إنَّ الصريم فعيل، بمعنى مصروم، كقول الله تعالى: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٥]؛ فالشيء المصروم: هو الذي وُطئ ودِيس، ويسمَّى صريمًا.

يخيل للناس، أحيانًا، أنهم قد تمكنوا، وضبطوا أمورهم، وأعدوا، واستعدوا، لكن يأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]. ومن تأمل في مجريات الأمور الواقعية، والتاريخية، رأى أمثلة عجيبة من نفاذ مشيئة الله تعالى وقدرته.

وهذا أمرٌ له صلة بالإيمان بالقدر؛ فالعبد له مشيئة حقيقية، لكن مشيئته تلك تابعة لمشيئة الله تعالى، قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وإنما أنكر مشيئة العبد، الجبرية الذين يقولون: العبد مجبورٌ

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٤٤).

على فعله، العبد كالريشة في مهب الريح، العبد مسيَّر! والشرع والواقع يدلان على خلاف ذلك. لكن هذه المشيئة الحقيقية تابعة لمشيئة الله تعالى، الله هو الذي وهبك المشيئة، ووهبك القدرة، وواهب ذلك قادر على منعه وقطعه. لهذا قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، فعليك يا عبد الله أن تضبط العلاقة بين مشيئتك ومشيئة الله، فلا تدع العمل وفعل الأسباب، اتكالًا على القدر السابق؛ بل اعمل، وافعل الأسباب، وسَلِ الله ﷻ التمام والكمال، فإنه قد يحول بينك وبين ما حاولت.

قوله: ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾، نادى بعضهم بعضًا في الصباح الباكر، وهم في غرة.

قوله: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾، هلموا إلى ما عقدتم العزم على أن تصرموه. فقد كان بعضه زرعًا، وبعضه ثمرًا. ويقال: إنه كان من العنب.

قوله: ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾، يتصور المرء هؤلاء المُلَّاك يسيرون بغلس، متجهين إلى بستانهم، يتساروُّن فيما بينهم ويتناجون، خشية أن يسمعهم أحد فينقل كلامهم إلى الفقراء والمساكين. وهذا يقع كثيرًا عند بعض الناس، تجد أن بعضهم يشجع بعضًا، ويؤيد بعضهم بعضًا على أمر سوء، ولا يصغون لقول الناصحين، فهذا التواصي والتعاون على الإثم والعدوان يثمر النتيجة المُرَّة.

قوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾، تواطؤوا، وتعاقدوا، أن يغلقوا بستانهم عليهم، فلا يدخله عليهم مسكين، خلافًا لما كان أبوهم يفعل من قبلهم. رغم أنّ غلة بستانهم تكفيهم وزيادة، لكن كما قال ربنا: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]؛ فالشح جزء من تكوين ابن آدم، وعلى الإنسان أن يستعيذ بالله تعالى من الشح؛ لأنه يحمله على

المنع، وعدم إيصال الحقوق لمستحقيها. فعلى الإنسان أن يسأل الله ﷻ أن يخلصه من شح نفسه. ويُذكر عن أحد الصحابة أنه طاف بالبيت وهو يقول: اللَّهُمَّ قني شح نفسي، فقيل له في ذلك؟ قال: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]، فإذا وقي الإنسان شح نفسه أفلح؛ لأن النفس جمَّاعة منَّاعة، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١]، هذه حقيقة الشح.

فأطلق نفسك من إسارها، وأطلق يديك من غلها، فلا تبخل، ولا تمسك، حينئذٍ تكون سعيدًا، أما الشحيح فإنه في شفقة مستمرة، وفي هلع دائم.

قوله: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥﴾، الغدو هو الذهاب أول النهار، والحرد، يدل على معانٍ منها: القصد، والعزم، والمنع، والغيظ والغضب، فهم متغيِّظون على الفقراء والمساكين، كأنما يقاسمونهم غلتهم، وينازعونهم حقهم.

هكذا وصف الله تعالى حالتهم النفسية، والعملية؛ خرجوا مُصبحين، مُنطلقين، مُستوفزين، مُهتمين، مُجمعين على خطة مبيَّتة؛ بل كانوا في غاية التصميم والقصد لحرمان غيرهم، يرون في أنفسهم القدرة على إنفاذ ما عزموا وخططوا عليه.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦﴾، صُدموا بهذا المشهد الذي لم يخطر ببالهم! إذا بتلك الجنة الخضراء، قد استحالت سوداء قاتمة محترقة، فبُهتوا من هول المطلع، وقالوا: لعلنا ضللنا الطريق، هذا ليس بستاننا! فلما تحققوا وتيقنوا قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾، أدركوا بأن هذا حرمان، وأنَّ الله ﷻ حال بينهم وبين ما يشتهون، ليريهم قدرته عليهم، رغم أنهم قد اتخذوا جميع الوسائل والتدابير، وأقسموا الأيمان المغلَّظة، ولم يستثنوا، أنهم سيصرمونها، ويمنعون المساكين.

قوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾، انتدب واحد منهم، وهو أمثلهم، وقد كان يعظهم، ويُذكِّرهم بحق الله، وحق الفقير، فذكَّرهم بما كان يقول لهم، ولا يلقون له بالًا، ولا يكترثون به: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾؛ أي: هلَّا تنزِّهون الله ﷻ، وتثنون بالخير عليه، وتضعون الأمور في مواضعها، وتنفذون حق المسكين الذي أمركم به. وهذا مما يقع! تجد بعض الناس يكون فيهم رجل رشيد، يدعوهم إلى الخير فلا يأبهون له، ولا يصغون إليه، ولا يتذكرون قوله إلا بعد فوات الأوان، كما قال الأول:

أمرتهم أمري بمنعرج اللِّوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

فهذا من شؤم الإعراض عن سماع الناصحين، فإذا وجدت ناصحًا فأيده وشجعه وأعنه.

قوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٩﴾، لعل من الخير الذي أريد بهم؛ أنهم كانوا سريعي الفيئة، فبادروا بالاعتراف بخطيئتهم، فقد كانوا ظالمين؛ لأن الظلم هو النقص، فقد ظلموا أنفسهم بأن ارتكبوا هذه المعصية، وظلموا الفقير بأن منعوه حقه.

وقد جعل الله تعالى في الخارج من الأرض حقًّا، قال تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فإذا أنعم الله ﷻ على امرئٍ بخارجٍ من الأرض؛ من الزروع، أو من الثمار، فاللَّه تعالى فيه حق، وللفقير فيه حق، فيجب أن يؤدي الحق الذي فيه، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، فهم في الواقع لم يقدِّروا الله حق قدره حينما أزمعوا على منع حق الفقير.

واستنبط بعض العلماء أنَّ معنى قوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾، أنهم أرادوا أن ينزِّهوا الله تعالى عن الظلم، وأنَّ ما أجراه الله ﷻ على بستانهم لم يكن ظلمًا منه سبحانه؛ بل كان

عدلًا، لكن يشوش على هذا الاستنباط أنه قد ذكر ذلك بصيغة الماضي، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وما قالوه بعد ذلك بعد وقوع المحذور.

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، يلوم بعضهم بعضًا.

قوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾، وهذا نداء على النفس بما يسوء.

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أقروا على أنفسهم بالطغيان وبتجاوز الحد، وأبدوا الأسف والندم، ثم ضرعوا إلى الله ﷻ أن يبدلهم خيرًا منها، وأنهم راغبون إليه، تائبون. فعلى الإنسان أن يحذر من الأماني الفارغة، ولا يقتات على الوهم، عليك دومًا أن تسأل، وأن تتبين ما أنت عليه؛ أحق هو أم باطل؟ في اعتقادك، وقولك، ومعاملاتك، وكسبك، وسائر أمرك، وأن تكون على بينة من ربك.

فهذا مثلٌ حكاه الله ﷻ في كتابه، ووجه الشبه بينه وبين حال المشركين في مكة، أنَّ الله تعالى أنعم عليهم ببعثة محمد ﷺ، فقابلوا هذه النعمة بالكفران والتكذيب، كما أنَّ أصحاب الجنة منَّ الله عليهم بهذه النعمة، بهذا البستان الذي يغل لهم كل عام ما يكفيهم ويكفي سواهم، ثم تعاقدوا، وتواطؤوا على منع حق الله تعالى، وحق الفقير، فقوبلوا بهذه العقوبة. فاعترفوا بظلمهم لأنفسهم، وظلمهم لإخوانهم الفقراء.

وينبغي للإنسان أن يكون رجَّاعًا إلى الحق، وهذا هو الذي جرى لأبينا آدم عليه السلام، فإنه لما عصى ربه تاب فتاب الله عليه، ولو أصر لهلك، كما هو حال إبليس، فإن إبليس لما قال له ربه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]، أبى أن يرجع إلى الحق وقال معترضًا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾

[ص: ٧٦]. فشؤم كبريائه، وعدم رجوعه إلى الحق، أودى به، وحقق عليه اللعنة إلى يوم الدين. فينبغي دومًا أن يعوِّد الإنسان نفسه على الرجوع إلى الحق، فإذا استبان له الدليل طأطأ رأسه وخضع له، فإن هذا أدعى لنجاته.

ويقال أن الله ﷻ: أعاضهم عن جنتهم تلك بعد ذلك بخير منها.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فثم وجه شبه بين حال أصحاب الجنة، وحال مشركي العرب، فجنوا العاقبة المُرة، وهذا من تمثيل الأدنى بالأعلى، فإن حال هؤلاء لم يبلغ مبلغ الكفر. وهذا العذاب الدنيوي يكون بفوات بعض الأموال والأنفس والثمرات، لكن العذاب الأخروي أشد وأبلغ، فهو العذاب المصيري الذي لا نجاة بعده، فتفطنوا وتيقظوا أيها المشركون واحتاطوا لأنفسكم.

ويجوز تمثيل الأدنى بالأعلى، والأعلى بالأدنى لجامعٍ بينهما. ومن شواهد ذلك حديث ذات أنواط، أنَّ النبي ﷺ كان معَ أصحابه فمروا بشجرةٍ يقال لها: ذات أنواط، فقال: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وقد كان المشركون يعلِّقون أسلحتهم بشجرة في الجاهلية يبتغون بركتها فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] **إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**»(١)، فمثَّل الأدنى بالأعلى، فلم يكن الذي صدر من أصحاب النبي ﷺ شركًا أكبر؛ بل كان أصغر، إذ اعتقدوا سببًا لم ينصبه الله سببًا، فتبرَّكوا بما لم يجعله الله سببًا للبركة، بينما بنو إسرائيل طلبوا عبادة غير الله!، فيصح تمثيل الأدنى بالأعلى، والعكس، لوصف جامع بينهما.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى رقم (١١١٢١)، وأحمد رقم (٢١٩٠٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وهكذا أسدل الستار على هذه القصة العجيبة، وهذا المثل المضروب، لتنبيه المخاطبين على أهمية شكر النعمة، وعدم الاغترار بزُخْرُف الدنيا، وتسويغ النفس الأمارة بالسوء، وتسويل الشيطان.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾، لما ذكر الله حال المعذبين، ذكر حال المنعَّمين، وهم المتقون، الذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. والمتقون هم أكرم الناس عند الله ﷻ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]. والتقوى حالة تقوم بالقلب، توجب لصاحبها حساسية مرهفة تحجزه عن تقحم معاصي الله، وتحفِّزه على طاعة الله، وقد وصفها بعضهم بقوله:

خلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض ... الشوك، يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

التقوى: أن يتوقَّى الإنسان حرمات الله فلا يتجاوزها قائلًا: هذا لمم، وهذه صغيرة، وهذا سهل، ويستكثر من مُحقَّرات الذنوب. وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلًا لأصحابه، فقال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يَأْخُذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ**»[1]، فعلى الإنسان أن يستنبت في قلبه تقوى الله ﷻ، والحذر من الوقوع في معاصيه؛ لأنه إذا أحاطت به خطيئته أهلكته.

والثناء على المتقين في القرآن عظيم، كثير، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٥٨٧٢).

﴿ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، فمن اتقى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب مناهيه، فهو الحقيق بهذا الثواب، له جنات النعيم.

وتأمل التعبير بجنات النعيم بعد ذكر جنة هؤلاء، فهي جنة دنيوية، زائلة، ليست بشيء، بإزاء الجنة الأخروية، الدائمة، التي لا تفنى ولا تبيد. وهي موعود الله للمؤمنين، حتى قال النبي ﷺ في حديث الكسوف لما رأوه تقدم قال: «**إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**»[1].

قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾، هذا استفهام إنكاري، ينكر الله تعالى على من سوّى بين المختلفات، ميزان الله تعالى ميزان عدل، ميزان قسط، لا يسوي الله تعالى فيه بين المختلفات، كما لا يفرق بين المتماثلات، فلا يكون المسلم الذي أسلم وجهه لله تعالى، وانقاد له؛ كالمجرم سواءً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]؛ يعني: لا يكون هذا؛ فالله تعالى حَكَمٌ عدلٌ مُقسط، لا يمكن أن يسوِّي بين الأبرار والفجار، ولا بين المسلمين والمجرمين، فكل يأخذ ما يستحق. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ - ٧]، الجنة، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨ - ١٠] النار. فلا يمكن أن يسوِّي الله تعالى بين المسلمين والمجرمين، لا في الدنيا ولا في الآخرة. حتى وإن بدا

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٨)، ومسلم رقم (٢٤٥٧).

للإنسان أنه يلحق المؤمنين في الدنيا الأذى، والضنك، وغير ذلك، ويرى الكفار يعيشون في رفاهية، فإن هذه صورة ظاهرة، فلا تظنن أنَّ هذا متاع تام؛ بل هو منغص عليه، فالله تعالى حكمٌ عدلٌ مُقسط. وحاشا الرَّب ﷻ أن يقع منه ذلك، فقد قال في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا**»[1].

وإذا سكن القلبَ الشعور بعدل الله تعالى، زال منه كل شعور بالغبن، والتغيظ، والأسى، وعلم أنَّ الله ﷻ لا يظلم مثقال ذرة، كما قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾**﴾ [النساء: ٤٠].

قوله: ﴿**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ استفهام إنكار وتعجُّب؛ أي: كيف يُخيَّل إليكم أنَّ لكم كرامة عند الله، ومنزلة، ومقامًا؟! القضية ليست بالدعاوى، ولا بالأماني الفارغة، ولهذا قال ربنا ﷻ: ﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣]، وقد قيل: هذه أخوف آية في كتاب الله.

وأراد الله تعالى أن يزيف مقالاتهم، وشبهاتهم، وحُججهم التي يتشبثون بها، ليسوِّغوا ما هم عليه من الشرك، والكفر بنعمة الله، وتكذيب أنبيائه ورسله، فذكر الدعاوى المحتملة وأبطلها، فقال: ﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾**﴾، أعندكم كتاب ترجعون إليه، وتستشهدون به، وتستدلون؟ لو قدِّر ذلك، فحالكم أنكم تخيرون، وتنتقون ما يعجبكم، وتَدَعون ما لا يعجبكم.

قوله: ﴿**إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾**﴾، استهجان لطريقتهم في الاستدلال. وفي هذا تنبيه على أن من أراد أن يستدل، فيجب على طالب العلم، والمفتي، أن يكون دافعه إصابة الحق، فلا يتشهَّى في

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٧٧).

استنباط الأحكام، ولا يتتبع الرخص، والبحث عن المخارج والحيل، وما يطلبه المستمعون، ويروق لهم؛ بل يكون حاديه إصابة الحق. وليعلم أنَّ إصابة الحق فيها اليسر، لكن عليه أن يتبع الدليل، ولا يكون همه أن يرضي السائل، ويتزلَّف لذوي السلطان، كما حكى الله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، فما أعجبهم أظهروه وما لم يرق لهم تأوَّلوه، فليحذر العالم من هذا المسلك.

قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، هل أخذتم عهدًا من الله ﷻ موثَّقًا بضمان الجنة، ساريًا إلى يوم القيامة؟ كلا! بل هو مجرد تحكم ليس إلا. فآلت مزاعمهم إلى أحد أمرين: التشهي والتحكم.

قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، من يستطيع منكم أن يزعم هذا الزعم، فيقول: أنا زعيم بذلك، أنا أدعي ذلك؟ لا يستطيع أحد أن ينتصب لهذه الدعوى الباطلة، وهذا أسلوب تحدي.

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾؛ يعني: أيزعمون أنَّ لهم آلهة تحول بينهم وبين عذاب الله وتدخلهم الجنة وتمنعهم من النار؟ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾، والحق أنَّ أولئك الشركاء من الأصنام والمعبودات دون الله ﷻ لا تُغني عنهم شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥]. هذا حال المشركين المتعلِّقين بهذه المعبودات؛ سواء كانت أصنامًا، أو أمواتًا، أو بشرًا، أو جِنًّا، أو ملائكة، كل من تعلَّق بمعبود سوى الله ﷻ فإنه لا يُغني عنه من الله شيئًا.

والشرك كخيط العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ

كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ فالذين يتخذون شركاء يدعونهم من دون الله ﷻ ويلتجئون إليهم فإنهم في الواقع قد جازفوا وغامروا في حياتهم بدنياهم وأخراهم، ولا يغني عنهم ذلك من الله شيئًا.

فعلى الإنسان أن يعتصم بالعُروة الوثقى التي هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، وهذا هو مشروع الأنبياء جميعًا جاءوا لأقوامهم ليثبِّتوا التوحيد ويرسِّخوه في نفوسهم ويقطعوا جميع التعلقات التي يتعلق بها المشركون من عبادة غير الله ﷻ.

وهكذا يتقصَّى القرآن كل دعوى يدَّعونها، وكل شبهة يتذرعون بها، فينسفها نسفًا. وهذا مسلك شرعي، وينبغي لأهل العلم والإيمان أن يأخذوا به، ويتصدوا لأهل الضلالات، ومتبعي الشبهات، فيردوا عليهم بالحجة والبرهان، ويبطلوا قولهم على الملأ. وأسلوب التحدي يحتاج إليه طالب العلم أحيانًا، لمحق الشبهة، وهو يدل على الثقة، والاعتداد بالحق. وهذا شأن العالم الرباني.

ونحن في زمنٍ بات كل زنديق يتمكن من نشر غثائه على الملأ، عن طريق الوسائط الإعلامية، فلا بد لأهل العلم والإيمان أن يردوا عليه، ويقطعوا دابر فتنته؛ لأن من الناس من يكون ساذجًا، ضعيف العقل، رقيق الدين، يشرق بالفتنة، ويشقى بالشبهة فتضله، فمسؤولية أهل العلم والإيمان أن يردوا على الملاحدة، والزنادقة، وأهل البدع والأهواء، بالحجة والدليل.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: سُنَّة الله الكونية في الابتلاء.

الفائدة الثانية: مشابهة المشركين الناكرين لنعمة النبوة، لأصحاب الجنة الناكرين لنعمة الجنة.

الفائدة الثالثة: الاستثناء عند الإخبار عن الأمور المجزوم بها.

الفائدة الرابعة: كمال قدرة الله.

الفائدة الخامسة: الفرق بين مشيئة العبد، ومشيئة الرب.

الفائدة السادسة: إحضار الشح في النفوس.

الفائدة السابعة: شؤم التعاون على الإثم والعدوان.

الفائدة الثامنة: إثبات حق الله، وحق المسكين، في الخارج من الأرض.

الفائدة التاسعة: شؤم الإعراض عن سماع الناصحين.

الفائدة العاشرة: وجوب تسبيح الله، وتنزيهه عن العجز والظلم.

الفائدة الحادية عشرة: فضيلة التوبة، والمراجعة، والاعتبار.

الفائدة الثانية عشرة: تمثيل الأدنى بالأعلى، والأعلى بالأدنى، لجامعٍ بينهما.

الفائدة الثالثة عشرة: فضيلة التقوى، وحسن عاقبتها.

الفائدة الرابعة عشرة: كمال عدل الله بين عباده، وتنزيهه عن الظلم.

الفائدة الخامسة عشرة: النكير على من سوَّى بين المختلفات، وفرق بين المتماثلات.

الفائدة السادسة عشرة: إبطال حجج المكذِّبين وتقصِّيها بالرد والإنكار.

الفائدة السابعة عشرة: التحذير من الهوى والتشهي في استنباط الأحكام والفتاوى.

الفائدة الثامنة عشرة: التحذير من الأوهام والأماني الباطلة.

الفائدة التاسعة عشرة: أسلوب التحدي والمواجهة.

الفائدة العشرين: إبطال الشرك وتهافته وعدم جدواه لأصحابه.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَاجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

[القلم: ٤٢ ـ ٥٢].

قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾، يوم: ظرف، والظرف له متعلق، فذهب ابن كثير إلى أنَّ ذلك اليوم متعلق بقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ۝٣٤﴾، فبينما يكشف عن ساق، ويلحق الكافرين كَربٌ عظيمٌ وشدة؛ فالمتقون في جنات النعيم. وقال بعض أهل العلم: بل متعلقة بـ(يأتوا)، في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾؛ أي: أنهم يطالبون بأن يأتوا بشركائهم من دون الله تعالى، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وكلاهما متوجه، ولا تمانع بين المعنيين.

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فذهب ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وسعيد بن جبير، إلى أنَّ المراد بالساق هنا: الشدة والكرب، قال ابن عباس: عن أمر عظيم، كقول الشاعر: وقامَتِ الحَرْبُ بنا على ساقٍ... وقال: حين يكشف الأمر، وتبدو الأعمال، وكشفه: دخول الآخرة وكشف الأمر عنه... وقال: هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة... وقال: هي أشد ساعة في يوم القيامة[1].

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المقصود بالساق هنا، صفة لله عز وجل،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).

كما أنَّ لله تعالى وجهًا كريمًا لا يشبه وجوه المخلوقين، وكما أنَّ له يدان كريمتان لا تماثلان أيدي المخلوقين، فله ساق عظيم يليق بجلاله وعظمته. وظاهر الآية لا يدل على هذا؛ لأن الله لم يضف الساق إلى نفسه كما أضاف اليد إلى نفسه في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، أو الوجه إلى نفسه في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، فظاهر الآية لا يدل على أنها صفة.

لكن الذي يدل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا قال: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[1]، وفيه: «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»[2]، فيكون الحديث مفسرًا للآية.

ولا ينبغي للمؤمن أن يستشنع شيئًا من آيات الصفات وأحاديثها، فالله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، وهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، كما أنَّ نبيه ﷺ أعلم بربه، وأصدق قولًا من سائر البشر، وأفصح لسانًا، وأبين بيانًا، وأنصح للأمة، فلا يحل لأحدٍ أن يرد ما نطق به من لا ينطق عن الهوى، لمجرد شناعة استشنعها. فتكون الآية دالة على إثبات صفة الساق لله سبحانه وتعالى. ولا يمنع أن يكون هذا الحال موافقًا لكرب وشدة تعتري الناس في مواقف القيامة، فإن يوم القيامة يوم طويل، وفيه من الأهوال، والأحوال الجسام، ما لا يحيط به وصف، فيكون هذا من أشد ما يبتلون به.

وقد حرر ابن القيم رحمه الله، هذه المسألة، أعني مسألة دلالة الآية على صفة الساق، في الصواعق المرسلة، فقال: (والصحابة متنازعون في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٨٥١)، ومسلم رقم (٦٣٣)، متفق عليه.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٩١٩).

تفسير الآية هل المراد الكشف عن الشدة أو المراد بها أنَّ الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أنَّ ذلك صفة لله لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردًا عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والإصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه «**فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدًا**»، ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مطابق لقوله: فيكشف عن ساقه فيخرون له سجدًا وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجهٍ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشفت الشدة عن القوم لا كشف عنها كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف: ٥٠] وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [المؤمنون: ٧٥]؛ فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة)[1].

فالذي يتحصَّل: أنَّ هذه الآية، المقرونة بحديث أبي سعيد الخدري، تدل على إثبات هذه الصفة لله ﷻ على الوجه اللائق به.

وقد ورد عدة قراءات في هذا اللفظ، والقراءة المشهورة {يُكْشِفُ}، وورد أيضًا: {نكْشِفُ}، وورد بالتاء، {تُكْشَفُ}، وورد قراءات أُخر.

وفيها دلالة على أنَّ التكاليف لا تنقطع بالموت، وأنَّ الدار الآخرة

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١/ ٢٥٢).

فيها أوامر ونواهي؛ فالسجود عبادةٌ مأمورٌ بها. فليس صوابًا إطلاق القول بعدم التكليف في الآخرة، وإن كان الله تعالى أراد بذلك أن يميز بين من كان يعبده عبادةً لا رياء فيها ولا سمعة، ومن كان يستنكف عن عبادته، أو يفعله نفاقًا.

قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، تعود ظهورهم كصياصي البقر، وكما عبر بعض المفسرين: كأنما فيها سفافيد. والسفُّود: هو الحديدة أو السيخ الذي ينظم فيه اللحم، فكأن فقار ظهره شُكَّ بسفود، فلا يستطيع أن يحنيه، فإذا هَمَّ أن يسجد تلقاء وجهه، انقلب على قفاه. وهذا مناسب لحاله في الدنيا؛ فإن المنافق الذي يتظاهر بخلاف ما هو عليه، هكذا يجازى يوم القيامة، فيتحول سجوده إلى سجود عكسي، فينقلب على قفاه والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾، ليس هذا من التكليف بما لا يطاق؛ بل من العقوبة وإظهار الخزي، فلا يدخل في مسألة العجز لعذر، فالله ﷻ قد عذر من لا يستطيع أن يصلي قائمًا أن يصلي جالسًا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، فهذا غير داخل في هذه المسألة.

قال النبي ﷺ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»(١)، وإنما ركَّبهم الله تعالى على هذه الصفة يوم القيامة ليُظهِر خِزيهم، ويكون جزاءهم من جنس عملهم.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فصل في الاستدلال بالكتاب، أما الكتاب فالدليل الأول قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فوجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١١١٧).

يجعل المسلمين كالمجرمين وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه، ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ وأنهم يُدعون إلى السجود لربهم تبارك وتعالى فيُحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا، وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي «أي قرون» البقر، ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين[(١)].

قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، خاشعة بمعنى خاضعة، والبصر يعبِّر عما في القلب؛ بل الوجه كله يعبر عما في القلب. وأشد مظاهر التعبير من الوجه العينان، ولهذا قال الله ﷻ عن الكفار يوم القيامة: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وذلك لما يعتريهم من الرعب، والرهبة، والخوف مما يعاينون.

قوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ أي: يعتريهم خزي وعار، وأي عار وشنار أشد من ذلك الموقف، حينما يوقفون على حقيقة حالهم، وكفرهم بالله رب العالمين، المستحق للعبادة دونما سواه.

قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، هذه مقابلة ذات عبرة! في الدنيا كانوا يتمتعون بالصحة، والعافية، والقدرة على فعل الطاعات، وترك المحرمات، لكنهم كانوا مستكبرين مستنكفين، واليوم بدل الاستكبار ذلة، وبدل التباهي، والتفاخر، خضوع، وخشوع، وانكسار، وقد كانوا سالمين.

والسجود من أعظم مظاهر العبودية؛ حينما يضع الإنسان أشرف ما فيه؛ وهو وجهه وجبهته على الأرض؛ فالسجود عبادة عظيمة، ولا صلاة بغير سجود، فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ: (أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى

---

(١) الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم (ص٤٤/ ٤٥).

رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا وَلَا يُجَبُّوا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا وَلَا تُعْشَرُوا، وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ»**(١).

وفي الآية دليل لطيف على وجوب صلاة الجماعة؛ فإن الدعاء إلى السجود في الدنيا، بأن يقول المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح؛ فالذي لا يجيب دعاءه، ولا يسعى إليه، عاصٍ لله بترك صلاة الجماعة.

وفي هذا إشعارٌ للمؤمن بأنَّ عليه أن يغتنم صحته، ونشاطه، وشبابه، قبل أن يُحال بينه وبين ذلك حتى في الدنيا قبل الآخرة، **«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»**(٢)، وقال: **«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تُنْظَرُونَ إِلَّا إِلَى فَقْرٍ مُنْسٍ، أَوْ غِنًى مُطْغٍ، أَوْ مَرَضٍ مُفْسِدٍ، أَوْ هَرَمٍ مُفَنِّدٍ، أَوْ مَوْتٍ مُجْهِزٍ، أَوِ الدَّجَّالِ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةِ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»**(٣).

فالعاقل من يغتنم فرصة التمكُّن فيستكثر من العمل الصالح، ويزيد من رصيده فيما يفرح به يوم القيامة، أما أولئك فقد عكسوا القضية، وتركوا العمل وهم سالمون، حتى أُظهر لهم حاجتهم وافتقارهم إلى العمل لما حيل بينهم وبينه.

قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، كأنما يقول: خلِّ بيني وبينه، دعْ أمره إلي، أنا أتولاه، فهي عبارة تهديد ووعيد، لو صدرت من أحد سلاطين الدنيا وجبابرتها لكان لها وقعٌ مخيف، فكيف وقد صدرت

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٧٩١٣)، وأبو داود رقم (٣٠٢٨).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (١١٨٣٢)، والحاكم رقم (٧٨٤٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٠٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

من الله ﷻ؟! كما قال في المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ [المدثر: ١١، ١٢]. والمراد به من ذكر في أول السورة من المكذبين بالقرآن العظيم، الواصفين له بأنه أساطير الأولين، فأعاد ذكرهم، وتوعَّدهم.

والمراد بالحديث القرآن العظيم. ومن أسماء القرآن الحديث، ولا شك أنَّ الله تحدَّث به، وقال سبحانه عنه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء: ٥]؛ لأن الله يتكلم متى شاء، كيف شاء، فهو سبحانه تكلم بالقرآن العظيم حين اقتضت حكمته ومشيئته.

قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾، الاستدراج كما وصفه: من حيث لا يعلمون، نوع من المكر والكيد، فهو استزلال لهذا الكافر شيئًا فشيئًا، فيخيل إليه أنه على شيء، ثم يكتشف فجأة أنه ليس على شيء، وأن أمره ذهب سدى. فالاستدراج يكون بأن يمهل الله للظالم، والكافر، والفاسق، والفاجر، والمشرك، حتى يأخذه على حين غرة.

وقد جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»[1]، ومن تأمل فيما جرى في سابق العصور؛ من الأقوام الذين خالفوا أنبياءهم، وفي مجريات الأحداث المعاصرة، يجد هذه السُّنَّة الربانية مطردة. يتبجح الظالم، ويرى لنفسه السيطرة والاستطالة، فيأتيه الله تعالى من حيث لم يحتسب.

ففرعون على سبيل المثال بلغ به الحال أن يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وأن يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٦)، ومسلم رقم (٢٥٨٣). متفق عليه.

غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ويقول لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]، ويقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩]، ويقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] هكذا يبلغ الغرور، والعُجب، والزهو بالإنسان حينما ينسى حقيقة العبودية، إزاء حقيقة الألوهية، يأتي بهذه العجائب والمضحكات. فماذا كان شأنه؟ أغرقه الله في الماء الذي كان يتمدح به، وأن الأنهار تجري من تحته، أهلكه الله وأغرقه في اليم.

فعلى المؤمن أن يتفطن لنفسه، فإن كان يقع منه ظلم للآخرين، فليعلم أن تمكين الله له بهذا لا يعني أنه بمنأى، ومنجى، ومعزل عن العقوبة، فإنه يمهل له، والظلم مرتعه وخيم. من يظلم مَنْ تَحت يده؛ من زوج، أو ولد، أو أجير، أو غير ذلك، فلا يظن أنَّ قدرته عليه تعني استباحة حقه، والنيل منه، ليعلم أنَّ الله ﷻ يمهل لكنه لا يهمل.

وكذلك من يظلم نفسه بالإسراف بالمعاصي والذنوب، قد يأتيه الله على حين غرة، كما أخبر الله ﷻ عن أهل القرى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

فالذي ينبغي للمؤمن أن يكون على وجل، وأن ينشأ في قلبه ورع، وخوف، وتحرُّج، وتحوُّط من الظلم، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾، في الآية إثبات صفة الكيد لله تعالى، فقد وصف نفسه بالكيد، والمكر، والمخادعة، والاستهزاء، في آياتٍ صريحات، فقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:

٣٠]، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣].

فالواجب إثبات ما أثبت الرب لنفسه في كتابه، أو أثبته له نبيه ﷺ، على الوجه اللائق به. لكن هذه الصفات من الصفات المتقابلة، التي تنقسم مدلولاتها إلى محمود ومذموم؛ فالكيد، والمكر، والخداع، والاستهزاء، والمحْل، نوعان: محمود، ومذموم.

الكيد والمكر يدلان على إيصال العقوبة بطريقةٍ خفية، فإن كانت العقوبة تصل إلى مستحق فهو محمود، وإذا كانت تصل إلى غير مستحق فهو مذموم، مثال ذلك: لو أن رجلًا محتالًا، احتال على الناس، ومكر بهم، واستولى على أموالهم، وأغراهم بأنه يريد أن يتاجر بها، وأطمعهم بالأرباح، ثم فرَّ بها، فهذا نسمِّيه ماكرًا، ونسمي عمله مكرًا، نسميه كائدًا، ونسمِّي عمله كيدًا، لكنه مذموم؛ لأنه أوصل الأذى والضرر إلى الآخرين، بطريقٍ خفي، بغير وجه حق.

فلو انتدب له رجل من رجال الأمن، من الشرطة الجنائية، واستدرجه، وقال: لدي مال، وأحب أن أتجر به، وأغراه حتى تمكن من القبض عليه وإيداعه السجن، فهذا مكر وكيد وخداع محمود؛ لأنه وصل إلى مستحقه.

فالذي يُثبت لله تعالى من هذه الأوصاف ما كان محمودًا؛ لأن الله له صفات الكمال، لا يتطرق إليه النقص بحالٍ من الأحوال، ولهذا نجد أنَّ الله يثبتها على سبيل المقابلة، كما في الآيات السابقات، مثل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

ولا يجوز أن يشتق منها أسماء لله، فلا يقال من أسمائه الماكر، الكائد، المخادع، المستهزئ، حاشا وكلَّا! لأنها توهم معنًى فاسدًا. فلما كانت يمكن أن توهم معنى فاسدًا لم يشتق منها أسماء حسنى؛ بل

ولا يخبَر بها عن الله، إلا على سبيل التقييد، فيقال: يخادع المخادعين، يستهزئ بالمستهزئين، يكيد بالكائدين، يمكر بالماكرين، تعظيمًا لجناب الرب، وتنزيهًا له عن صفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين.

قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥﴾؛ أي: شديد، بخلاف كيد الناس، فإنه واهٍ، ضعيف. فإنه سبحانه، يُحكم الوقيعة بأعدائه، ويستدرجهم، ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر.

قوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦﴾؛ أي: هل طالبتهم بعوض، وغُرم، لقاء دعوتك إياهم؟ فهم إنما ردوا دعوتك لأنهم لا يطيقون تحمُّل هذا الغرم الثقيل، لا والله!، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، قالها جميع أنبياء الله لأقوامهم، وبينوا لهم بأن ليس لهم غرض دنيوي، وأنهم لا يسعون لأمجادٍ شخصية، ولا لدواعي حزبية، أو قومية، أو إقليمية؛ بل هي خالصة لله، كما أمر نبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فدعوة الأنبياء جميعًا، نقية، خالصة لله ربِّ العالمين، ليس فيها شائبة. وهذا أمرٌ مهم، يجب أن يتلبس به الداعية إلى الله ﷻ، فيحرص أن تكون دعوته غير مشوبة بأغراضٍ شخصية. فالناس حين يشعرون أنَّ داعية من الدعاة له غرضٌ شخصي، أو يريد أن يستجدي بموعظته بعض الأعطيات، يسقط من أعينهم، ولا يولونه ثقتهم، ولا يسلمون قلوبهم إلا لمن رأوا أنه يريد نفعهم وبرهم، وأنه لا ينشد إلا الله والدار الآخرة، فلا بد للداعية أن ينسج على منوال الأنبياء.

قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾، إن لم يكن ما سبق، فهل يدَّعون أنهم مستغنون عن دعوتك بما عندهم من العلوم، فهم يستنسخون من وراء سُجُف الغيب؟ والحقيقة: لا هذا ولا هذا، فليس لهم متعلق يتعلقون به.

فلمَّا فنَّد جميع شبهاتهم، وأبطل جميع متعلقاتهم، أمر نبيه بالصبر على أذاهم، واتهامهم إياه بالتهم المذكورة في صدر هذه السورة؛ كالجنون، والفتنة، والضلال، والكذب، فقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ يعني: فاصبر على أذاهم فسيحكم ربك. والنبي ﷺ، وجميع المؤمنين، مأمورون بالصبر لحكم الله الشرعي، ولحكم الله القدري؛ فالحكم الشرعي هو الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، فكل ما حكم الله ﷻ به شرعًا فيجب أن نقبله، ونسلِّم له، قال الله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فلا يعترض أحد على حكم الله الشرعي؛ من الحدود، كقطع يد السارق، ورجم الزاني، أو التشريعات؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، أو الكفارات؛ كالديات في الجنايات.

وهذه الآية دليل على أنَّ من ردَّ شرع الله، وارتضى الأحكام البشرية، والقوانين الوضعية، أيًّا كان مصدرها، واستعاض بها عن حكم الله ﷻ فقد زال عنه وصف الإيمان.

كما أنَّ الإنسان مطلوب منه أن يؤمن بحكم الله القدري؛ وهو ما يقضيه الله قدرًا وكونًا من أنواع المصائب والبلاء، فإنه لا يخلو منها مسلم ولا كافر، ولا بر ولا فاجر، فأما المؤمن فيتلقاها بالصبر، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة: (هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسلِّم)[(١)]. ولا يعترض على حكم الله القدري، كما يقع من بعض الجهلة، فيقول: رب لما فعلت بي كذا؟ ها

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٤٢١).

أنا أصلي، وأزكي، وأصوم، وأحج! فلمَ أصبتني بكذا؟ بل يجب أن يحسن الظن بربه، فإن الله لا يقضي على المؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له.

والصبر، في أصل معناه في اللغة: المنع والحبس، وفي الاصطلاح: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، وعادات الجاهلية. والصبر ثلاثة أنواع:

- الصبر على طاعة الله: بأن يصبِّر نفسه على الطاعات، والمأمورات، فلا يستثقلها؛ بل ينتدب لها، ويأتي منها ما استطاع.

- الصبر عن معصية الله: بأن يردع نفسه عن الوقوع في معاصي الله، فلا يقترفها؛ بل يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية باجتنابها.

- الصبر على أقدار الله المؤلمة: هو ما تقدم بيانه.

وقد اختلف العلماء هل الرضا واجبٌ أم مستحب؟ والصحيح أنه مستحب. وقد ذهب أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله، إلى أنَّ الرضا واجب، ورجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، رحمهما الله، أنَّ الواجب هو الصبر، وأنَّ الرضا مستحب. ومعنى الرضا: أن يستوي عنده الحالان، وهذا لا يبلغه كل أحد. أما الصبر فالحد الأدنى أن يعقل لسانه؛ فلا يتكلم بالسخط، ويعقل جوارحه، فلا يفعل فعل الجاهلية، ويعقل قلبه؛ فلا يسيئ الظن بربه؛ بل يحسن الظن بربه[1].

قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾، صاحب الحوت هو يونس عليه السلام، ذو النون، فصاحب الحوت ﷺ ضجر من قومه، بسبب كفرهم، وإبائهم، واستكبارهم، فخرج مغاضبًا، قبل أن يأذن الله تعالى له بذلك، وفارق قومه، فساقه الله تعالى إلى الفُلك

---

(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٨٢)، وقاله ابن القيم رحمه الله في «عدة الصابرين» (ص٢٣١).

المشحون، فركب معهم، فثقل بهم الفلك حتى كاد أن يغرق، فاتفقوا على أن يُجْرُوا قرعة، ويرموا أحدهم، ليخف الفلك، فوقعت القرعة على يونس، عليه السلام. وجاء في بعض الآثار أنهم أسفوا لذلك، فأعادوا القرعة ثانيةً، وثالثة، فتقع عليه! فأُلقي في اليم؛ فالتقمه حوت قد فَغَر فَاهُ، وتلقاه بمجرد إلقائه، وانحدر إلى جوفه! فكان في ظلماتٍ ثلاث؛ ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

ومعنى مكظوم: أي: مهموم مغموم، بلغ به الأمر شدته، أو كظم عليه جوف الحوت. والأقرب أنَّ المقصود بالكظم هنا: ما اعتراه من الهم، والغم، والكرب الشديد. والنداء الذي نادى به فسَّرته الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فارتفع نداؤه إلى السماوات العلا، وسمعته الملائكة، وقالت: يا رب صوت لم يزل يرتفع منه دعاء مجاب، وكلم طيب، فقال: ذاك عبدي ذا النون كذا وكذا، فقالت الملائكة: يا رب ألا تغفر له بسابقة عمله؟ فأنجاه الله تعالى.

والقرآن يبسط القصة في مواضع، ويختصرها في مواضع. قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

والمقصود أنَّ الله نهى نبيه عن هذا الصنيع، وهو أن يحمله الضجر على العجلة، وفعل ما لم يأذن الله عز وجل به.

قوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾، في بعض القراءات: (تَدَّارَكُهُ) بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، وفي بعضها بالتخفيف، ومعناها واحد.

والنعمة التي أدركته هي نعمة التوبة، تاب فتاب الله عليه، ولو أنه لم يتب ويُسبِّح، لكان كما قال الله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]؛ أي: لكانت مقبرته الدائمة.

ومعنى نُبذ: أي: أُلقي بالعراء، والمراد به: الأرض الفضاء، حيث إنَّ الله أمر الحوت أن يشق أطباق الماء، ويلفظه. فخرج هذا الكائن الهزيل، الذي تساقط جلده، وصار كفرخ الطير، على ضفاف البحر.

وليس المراد بقوله: وهو مذموم: وصفه بالذم؛ بل نفيه عنه؛ فإن (لولا) حرف امتناع؛ أي: لولا تسبيحه وتوبته، لنبذ مذمومًا، لكنه لم ينبذ مذمومًا؛ بل محمودًا. ففرق بين حاله حين أُلقي، وحين نُبذ؛ فحين أُلقي كان ملومًا، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]، وحين نُبذ كان منعمًا عليه، محمودًا، غير مذموم، كما في سياق الآيات هنا، وفي الصافات، كما قال الله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٦، ١٤٧]. واليقطين: نوع من القرع، ورقها لين، له ظل، فأظلته حتى استعاد عافيته وقوته.

قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾، اجتباه: بمعنى اصطفاه، ورضي عنه، وآمن به قومه، كما قال في الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، وذلك أنَّ قومه بعد أن خرج من بين ظهرانيهم، ندموا على ما وقع منهم، وخرجوا يطلبونه فنجوا. كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

والمقصود هنا ضرب المثل لتصبير النبي ﷺ، وليس التثريب على ذي النون، عليه السلام، فإنَّ الله قد تاب عليه، ولا يجوز لأحد كائنًا من كان أن يذمه، فإن الله ﷻ رفع عنه المذمة، واجتباه، وأصلحه، كما أخبر. وقد جاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[1].

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٣٩٥)، ومسلم رقم (٢٣٧٦).

كما أنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس لأحد أن يذمه على أكله من الشجرة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد تاب عليه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟»** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**)[١].

وهكذا مَنْ دون الأنبياء، فليس لأحدٍ أن يذمَّ من تاب. فإن رحمة الله أوسع من مذمته ولومه.

وأما المفاضلة بين الأنبياء ففيها تفصيل؛ فلا ريب أنَّ الأنبياء يتفاضلون؛ لأن الله قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فأفضلهم الخليلان: إبراهيم، ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وأفضل الخليلين محمد ﷺ، ثم يليهما موسى، ثم يليهما نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنها - أي المفاضلة - في درجة واحدة عند معظم العلماء. وهؤلاء أولو العزم من الرسل، الذين ذكرهم الله في موضعين من القرآن مقترنين، ثم بقية أنبياء الله.

أما المفاضلة على سبيل التباهي والتفاخر، أو على سبيل تنقّص الطرف الآخر، فلا تجوز، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: **«مَنْ؟»**، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: **«ادْعُوهُ»**، فَقَالَ: **«أَضَرَبْتَهُ؟»**، قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، قُلْتُ: أَيْ: خَبِيثُ، عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ،**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٠٩)، ومسلم رقم (٢٦٥٢).

فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى»[(١)] . فهذا النهي محمول على المخايرة التي تكون على سبيل المباهاة، كأن يقول: نبينا خير من نبيكم! فيقابله آخر ويقول: بل نبينا خير من نبيكم، فهذا ليس من شأن العقلاء. أو أن يكون على سبيل التنقص للنبي الآخر، لأمرٍ ابتلاه الله به لحكمةٍ بالغة.

قوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾، وفي قراءة: {لَيَزْلِقُونَكَ}؛ لأنها إما من «زلق» أو «أزلق»، فإذا اعتبرنا فعلها أزلق فالقراءة: لَيُزْلِقُونَكَ، وإن كانت من زلق فهي لَيَزْلِقُونَكَ.

وللمفسرين في هذه الآية قولان، بعضهم يقول: أي: يعينونك، من العين، والعين حق، وأنَّ من طرائق المشركين لإيصال الأذى إلى النبي ﷺ أن يصيبوه بالعين، فنظر إليه قوم من قريش، وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إنَّ البقرة السمينة، أو الناقة السمينة، تمر بأحدهم فَيُعَايِنُهَا ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم، فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت، فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئًا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء، فتمر به الإبل، أو الغنم، فيقول: لم أر كاليوم إبلًا، ولا غنمًا أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلًا حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين، فأجابهم، فلما مر النبي ﷺ أنشد:

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسِبُونَكَ سَيِّدًا ... وَإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

فعصم الله نبيه ﷺ وَنَزَلَتْ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤١٢)، ومسلم رقم (٢٣٧٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الآية لا تدل على العين، وإنما المراد بذلك أنهم ينظرون إليك نظرًا حديدًا شديدًا، من شدة تغيّظهم عليك، حتى تكاد تقع في مشيتك. وهذا أمرٌ يدركه الناس، فحينما يمشي إنسان بين قوم يحدون النظر إليه، قد يرتبك، ويلحقه الحرج، ويقع من شدة نظرهم.

والعين حق ولا شك، وإنما الخلاف المراد بهذه الآية. وقد ذهب ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، على أنَّ الآية تدل على إثبات العين، وساق جملة من الأحاديث الدالة على إثبات العين:

منها: حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا رُقْيةَ إلا من عَيْنٍ أو حُمَةٍ أو دَمٍ لا يَرْقأ**»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»[2]، وقال النبي ﷺ: «**الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**»[3].

وعن ابن عباسٍ قال: كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين وَيَقُولُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**»[4].

ومنها: حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اشتكى؛ يعني: مرض، فأتاه جبريل فقال: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، وَاللهُ يَشْفِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**»[5]، وقال ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ**»[6].

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٣٨٨٩)، قال الأرنؤوط في نفس الموضع: صحيح دون قوله: (أو دَم لا يَرْقأ).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٧٠٥)، ومسلم رقم (٢٢٠).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢١٨٨). (٤) أخرجه البخاري رقم (٣٣٧١).

(٥) أخرجه أحمد رقم (٩٧٥٨).

(٦) اخرجه البخاري رقم (٥٧٤٠)، ومسلم رقم (٢١٨٧).

ومنها: حديث أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ يعني: أطلب لهم الرقية؟ قال: «**الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**»(١).

ومنها: حديث عائشة أنَّ رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين، أخرجه الشيخان وابن ماجه، وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ**»(٢)، أخرجه ابن ماجه، وعنها قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ، ويغسل منه المَعين، ـ يعني: الذي أصابته العين ـ، رواه أبو داود(٣).

يفسر هذا حديث أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ، وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ مِنَ الْجُحْفَةِ، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ، حَسَنَ الْجِسْمِ، وَالْجِلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ؛ فَلُبِطَ بِسَهْلٌ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ؟ وَاللهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَمَا يُفِيقُ، قَالَ: «**هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟**» قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ؟**» ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**اغْتَسِلْ لَهُ**» فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ، وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ)(٤).

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢١٨٨).
(٢) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٥٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥١).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٨٠)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه أحمد رقم (١٥٩٨٠)، وابن ماجه رقم (٣٥٠٩).

فهذا يدل على كيفية معالجة العين، وأنه إذا تحقق الإنسان أنَّ أحدًا عان أحدًا، فإنه يؤخذ أثر من العائن؛ من وَجْهِهِ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وما يباشر بدنه؛ كالإزار، أو الفانيلة، أو الطاقية التي يعرق عليها، ويغمس في ماء، أو من فضل وضوئه، ثم يصب صبًّا فوق رأس المَعين، وعلى ظهره، فيعود معافى بإذن الله تعالى.

وليس في الأحاديث أنه يشرب منه، كما يتوهم بعض العامة، وإنما يصب عليه. وهذا أمرٌ ثابتٌ حقًّا ولا ينكره إلا مكابر أو جاهل. فإن العين حق يعرفها الناس قديمًا وحديثًا، لكن مِن الناس مَنْ يبالغ في الخوف من العين إلى درجة الرُّهاب، فيحمله ذلك على تعطيل مصالحه، وعدم المضي في حاجته، وهذا نقص في التوكل. كما أنَّ مِن الناس مَنْ ينكرها، أو يستهين بها.

فالذي ينبغي للإنسان أن يؤمن بأن العين حق، ويستعيذ بالله من شرها، ويحافظ على المعوذتين، وأذكار الصباح والمساء، ويمضي لشأنه، ولا يعطل مصالحه، فإن الله ﷻ قد قدَّر المقادير. فإن أصابه شيء من ذلك، سعى في رفعه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**»[1]، فمن طُلب منه أن يستغسل، لم يمتنع بدعوى دفع التهمة، فربما وقع منه ذلك! فلا يضره أن ينفع أخاه، فإن هذا أدعى لإبراء ذمته.

لكن ينبغي الحذر من المغالاة في ذلك، فإن من الناس من يصيبه نوع من الوسواس في العين، فيُخيل إليه أنَّ كل ما يطرأ عليه من الأعراض البشرية بسبب العين، دون قرينة أو سبب، ويدخل في دوامة من الأوهام، وينتقل من باب ظن إلى باب، ويوزع التهم على عباد الله يَمنة ويَسرة. وهذا لا يجوز، فإنه من الظن المحرم، والظن أكذب

(١) أخرجه مسلم رقم (٢١٨٨).

الحديث. وقد قال النبي ﷺ: «**هل تتهمون من أحد؟**» يعني: هل لديكم قرينة على العين؟، أما إذا لم يكن شيء، فما أكثر الأعراض البشرية المشتركة، قد يصاب الإنسان بالصداع، بالمغص وغيرها من الأمراض ويكون لأسبابٍ أُخر سوى العين، فهذا لون. واللون الآخر من ينكر العين ولا يؤمن إلا بالمحسوسات، فهذا جهل مقابل؛ فالتوسط مطلوب في جميع الأمور.

قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾، الذكر هو القرآن، والمبطلون يلقون بالتهم جزافًا، ويفتقون الدعاوى، ويبتكرون المصطلحات الإعلامية، في وصم المؤمنين بالسوء؛ كمصطلح الإرهاب، والأصولية، وغيرها. وقد برَّأ الله نبيه في أول السورة من هذه التهمة الصلعاء، فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢]، فهذه دعوى تذرعوا بها، لينفروا الناس من نبينا ﷺ، وما جاء به من الوحي المبين.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾؛ فالقرآن العظيم ذكر للعالمين جميعًا، لا يختص بقريش وحدها، ولا بالعرب وحدهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فالقرآن ذكر للعالمين؛ يعني: يذكرهم بما خلقوا لأجله من عبادة الله، ويذكرهم بحق ربهم عليهم من العلم به وبأسمائه وصفاته، ويذكرهم بعبوديتهم له، وما ينبغي له تعالى من الطاعة، وفعل الأوامر، واجتناب المناهي، ليس لمجرد التطريب بسماعه بأنواع الأداء والقراءات، وحسب! لكن ما هو أعظم من ذلك؛ وهو ما يتضمنه من المعاني والحقائق.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات صفة الساق لله تعالى، باقتران دلالة الكتاب والسُّنَّة.

الفائدة الثانية: أنَّ التكليف والعبادة لا ينقطعان بالموت.

الفائدة الثالثة: فضل السجود، وأنه من أجلى مظاهر العبودية.

الفائدة الرابعة: وجوب صلاة الجماعة.

الفائدة الخامسة: أنَّ الجزاء من جنس العمل.

الفائدة السادسة: المذلة البليغة التي تلحق بالكفار، وظهورها في الأبصار.

الفائدة السابعة: المقابلة العجيبة بين حال الكفار في الدنيا بالاختيار، وحالهم في الآخرة بالاضطرار.

الفائدة الثامنة: الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، في قوله: فَذَرْنِي.

الفائدة التاسعة: شؤم التكذيب بالقرآن.

الفائدة العاشرة: خطورة الاستدراج والإملاء، وحقيقته، وفظاعة عاقبته.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات صفة الكيد المحمود لله تعالى، وأنه شديد متين.

الفائدة الثانية عشرة: تبرئة النبي ﷺ من كل غرض دنيوي.

الفائدة الثالثة عشرة: أهمية نزاهة الداعية، وعدم تلبّسه بأدنى شبهة قادحة.

الفائدة الرابعة عشرة: افتقار الكفار للحجة والدليل، وتعويلهم على الظن والتخمين.

الفائدة الخامسة عشرة: وجوب الصبر لحكم الله الشرعي والقدري.

الفائدة السادسة عشرة: النهي عن الضجر على ما يترتب على حكم الله.

الفائدة السابعة عشرة: فائدة ضرب الأمثال في تقريب المعاني.

الفائدة الثامنة عشرة: فضيلة الذكر والتسبيح، في تنفيس الكربات.

الفائدة التاسعة عشرة: إسناد النعمة إلى الله وحده، والحذر من نسبتها لغيره.

الفائدة العشرون: بيان نعمة الله على يونس عليه السلام، وتداركه بنعمته وفضله.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات القدر السابق، بما تقتضيه حكمته؛ فالذي قدَّر على يونس أن يخرج مغاضبًا، وأن يلتقمه الحوت، هو الذي قدَّر بعد ذلك أن يجتبيه، وأن يصطفيه، وأن يجعله من الصالحين، كل ذلك بقدر الله.

الفائدة الثانية والعشرون: شدة بغض الكفار للنبي ﷺ، ولأتباعه من المؤمنين.

الفائدة الثالثة والعشرون: إثبات العين، وأنها حق، والحذر من إنكارها.

الفائدة الرابعة والعشرون: تسمية القرآن بالذكر، وأنه عَلَمٌ عليه، ووصف له.

الفائدة الخامسة والعشرون: التنبه لأسلوب المبطلين في اصطناع التهم وترويجها.

الفائدة السادسة والعشرون: عالمية القرآن وتناوله لجميع الثقلين؛ الإنس والجن.





سورة الحاقة

سورة الحاقة، سمِّيت بهذا الاسم لتكرر هذا اللفظ فيها ثلاث مرات، في مستهلها، وأسماء سور القرآن يؤخذ من تسمية النبي ﷺ لها، أو تسمية الصحابة. وربما كان للسورة الواحدة أكثر من اسم.

مقاصد السورة:

لهذه السورة مقصدان عظيمان:

أحدهما: الإيمان بالمعاد، وبيان جزاء منكريه.

المقصد الثاني: الإيمان بالقرآن، وأنه كلام الله المحفوظ.

افتتح الله ﷻ هذا السورة بهذا الافتتاح المهيب ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، الحاقة: اسم من أسماء يوم القيامة، وليوم القيامة أسماء متعددة، عدَّ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها أكثر من خمسين اسمًا، وعدَّ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في النهاية في الفتن والملاحم، أكثر من ثمانين اسمًا؛ كالحاقة، والصاخة، والطامة، والآزفة، ويوم التناد، ويوم الحشر، ويوم التغابن، وغيرها.

وأسماء يوم القيامة أعلام وأوصاف، كما نقول في حق ربنا ﷻ: إن أسماءه أعلام وأوصاف، وكما نقول في حق نبينا ﷺ إن أسماءه أعلام وأوصاف، وكما نقول في حق القرآن: إن أسماءه أعلام وأوصاف، فكذلك أيضًا بالنسبة لليوم الآخر، فإن ما سمَّى الله ﷻ به اليوم الآخر، أو الساعة، أعلام وأوصاف.

ومعنى كونها أعلامًا: أنها تدل على ذلك اليوم المعيَّن، ومعنى كونها أوصافًا: أنَّ كل اسم منها يتضمن وصفًا خاصًّا يميزه عن غيره، بخلاف أسماء الآدميين فإنها أعلام عليهم، ولا يلزم أن تكون أوصافًا لهم، فقد يُسمَّى شخصٌ ما صالحًا، وهو من أفسق الناس، وقد يسمَّى أمينًا، وهو من أسرق الناس، وقد يسمَّى شجاعًا، وهو من أجبن الناس.

فأسماء الآدميين لا يلزم أن تكون أوصافًا؛ بل هي أعلام عليهم، أما أسماء الله الحسنى، وأسماء نبيه ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء القيامة، فهي أعلام وأوصاف. ويتضح ذلك بمعرفة كل اسم على حدة؛ فقد سمِّيت بالحاقة لأمرين:

الأمر الأول: لتحقق وقوعها، فإنها واقعة لا محالة، لا بد أن تحق.

الأمر الثاني: لأنها تأتي بالحق الذي يزهق الباطل. فهي إذًا تحق بالحق.

ومن أسمائها ما ورد في أثناء السورة: {الْقَارِعَةُ}؛ لأنها تقرع الآذان والقلوب، لهول وقعها، قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١ ـ ٣].

ومن أسمائها ما ورد أثناء السورة: {الْوَاقِعَةُ}، سمِّيت بذلك لتحقق وقوعها، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ [الواقعة: ١]. وقل مثل ذلك في الطامة، التي تطم كل شيء، والصاخة، التي تصخ الأسماع وهكذا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١ - ١٨].

قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾، الاستفهام هنا للتعظيم والتفخيم؛ يعني: إنَّ شأنها عظيم، سيما وإنه قال بعد ذلك: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ فهذا التساؤل والتكرار يدلَّان على تعظيم هذا الأمر، والاحتفاء به، وأنَّ شأنه ليس كسائر الحوادث، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: ١ - ٢]. فينبغي للمؤمن أن يعظِّم ما عظَّمه الله، وأن يقدِّم ما قدَّم الله، وأن يفخِّم ما فخَّم الله، وأن يوليه ما يستحق.

قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾، ربما كان هذا جوابًا للسؤال في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾.

وهاتان الأمَّتان بائدتان؛ وهما ثمود، وعاد، فأما ثمود فهم قوم صالح الذين كانت مساكنهم في وادي الحِجر، الذي يقع بين مكة والشام، ولا تزال مساكنهم شاهدة خاوية، كما قال ربنا: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ

عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، فكان من شأنهم أن آتاهم الله تعالى قوةً وبأسًا شديدًا، حتى أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، ويتخذون من سهولها قصورًا. فبعث الله فيهم نبيه صالح عليه السلام، ودعاهم إلى توحيد الله عز وجل وعبادته قائلًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١]، لكنهم أبوا، فلما استيئس منهم قال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]، فكان أن أهلكهم الله تعالى هلاكًا مدويًّا، لا نظير له، وذلك بالصيحة.

قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾، الطاغية: هي الشيء الذي يطغى، ويربو، ويزيد. وقد اختلف المفسرون في المراد بالطاغية، فقال بعضهم: هي الصيحة التي صاح بهم جبريل عليه السلام، صيحةً مدوِّية، قطعت نياط قلوبهم في صدورهم، صوتٌ فظيع، عظيم، دوَّى في أرجاء قراهم، حتى لم يبق إلا مساكنهم، ولا زالت شاهدة شاخصة.

ولذا؛ كان من المتعيَّن ألا يمر بها الإنسان إلا باكيًا أو متباكيًا، خلافًا لما يفعله كثير من السفهاء؛ يذهبون إليها للاستجمام، والتفكه، والسياحة، وربما تناولوا المطعومات والمشروبات، وتبادلوا النكات، وأطلقوا القهقهات، وهم يتقلبون في أرجائها! أما حال نبينا ﷺ فقد وصفه ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: (لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالحِجْرِ قَالَ: «**لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الوَادِيَ**)[1]، وعنه: (أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ - أَرْضِ ثَمُودَ - فَاسْتَقَوْا مِنْ آبَارِهَا، وَعَجَنُوا بِهِ الْعَجِينَ «فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا، وَيَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ»)[2].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٤١٩)، ومسلم بمعناه رقم (٢٩٨٠).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٣٧٨)، ومسلم رقم (٢٩٨١).

وقيل: إنَّ معنى الطاغية مأخوذٌ من الطغيان؛ يعني: أهلكوا بعصيانهم وطغيانهم، لما عتوا عن أمر نبيهم. وقيل: إنَّ المراد بالطاغية: هو عاقر الناقة، ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٢ ـ ١٥]، وهو قدار بن سالف، هذه ثلاثة أقوال في المراد بالطاغية.

قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، عاد: قوم هود عليه السلام، الذين كانوا يسكنون الأحقاف، في حضرموت، جنوب الجزيرة العربية، ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١﴾ [الأحقاف: ٢١]، وكان الله سبحانه وتعالى قد آتاهم قوةً شديدة، وبأسًا، وكانوا طوال الأجسام، ويبتنون المدائن العظيمة، ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: ٧، ٨]. فبعث الله تعالى فيهم هودًا عليه السلام، ودعاهم إلى توحيد الله وعبادته، فاستنكفوا واستكبروا وقالوا لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، اتهموه بالخبل والجنون، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] هكذا تحدَّاهم أجمعين!

لهذا يقال: إنَّ آية هود عليه السلام أنه تحدى القبيلة بأجمعها، أن يصلوا إليه بسوء، فلم يستطيعوا. فكان أن عذبهم الله سبحانه وتعالى بعذابٍ مهين، وذلك أنهم قد أعجبوا بقوتهم وحالهم، فأذلهم الله عز وجل، وأهلكهم بالريح، فاستحال الهواء اللطيف، عذابًا مدمرًا.

قوله: ﴿صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، معنى صرصر: فقد قال بعض المفسرين: إنها شديدة البرودة، حتى جرس الكلمة يشعر ذلك. وقيل: إنّ معنى صرصر: صوت فظيع حاد نافذ. عاتية: أي: شديدة الهبوب،

فقد انبعثت عليهم، وهبَّت عليهم هبوبًا عاتيًا، شديدًا، حتى قال بعض المفسرين: إنها خرجت عن سيطرة الخُزان من الملائكة! ولكن هذا لا يستقيم، فإن كل شيء بقدر، ولا يكون شيء إلا بأمر الله تعالى. فهذا العتو بمعنى الشدة على هؤلاء المعذبين، لا بمعنى التمرد والخروج عن السيطرة والتحكم.

قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾، سخَّر هنا: بمعنى سلَّط، إذ هي عقوبة وعذاب، قوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، هذه المدة التي ضربتهم فيها هذه الريح العاتية الشديدة، متتابعات حتى حسمتهم، واستأصلت شأفتهم تمامًا. ومن معاني حسومًا: أنها مشؤومات، نحسات، كما وصف الله ﷻ ذلك في مواضع أُخر في القرآن: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

ومن معاني حسومًا: أي: كاملات، لا نقص فيهن. قال بعض المفسرين: إن ابتداءهن من يوم الأربعاء، ومنهم من قال: من يوم الجمعة، وهذا لا يؤثر، وغالب ما يكون هذا الاختلاف في الروايات الإسرائيلية. ويكفينا أنَّ الله تعالى أخبرنا بأنهن سبع ليالٍ، وثمانية أيام حسومًا، فهن متتابعات حتى قال ابن كثير: أسكنتهم وأسكتتهم، فكانت الريح تحمل الرجل، ثم تهوي به حتى ينشدخ رأسه، فيكون جسدًا قائمًا بلا رأس.

قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾: أي: هلكى مطروحين في العراء.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، أعجاز: جمع عجز، وهو أصل النخلة المنخور، البالي، الذي لا جوف فيه، منكفئًا، لا سعف فيه. فهكذا كان قوم عاد بعد أن أهلكهم الله، قد انفصلت رؤوسهم عن أجسادهم، بهذه الريح التي هي في الأصل خلق لطيف. حتى أنهم لما رأوها مقبلة قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ

هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]. وقد مرَّ بنا، من قبل، أنَّ الله تعالى يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

والقرآن لا يضاهيه، ولا يدانيه شيء من كلام الفصحاء والبلغاء، كما في هذا التشبيه البديع العجيب! وتشعر به حين تمر بموضعٍ مهجور، فيه نخل خاوٍ، فتذكر فعل قوم عاد.

والقرآن جاء بصور بلاغية، وبيان عجيب، يأسر الألباب، أدهش العرب، أرباب الفصاحة والبلاغة فخضعوا له، وعجزوا أن يأتوا بمثله، حتى إنَّ لبيد بن ربيعة، صاحب إحدى المُعلَّقات السبع، لما سمع القرآن، أسلم، وأمسك عن الشعر، حياءً من القرآن، ولم ينشد إلا بيتًا واحدًا:

الحمد للَّه الذي لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قوله: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾﴾، هذا استفهام يراد به النفي؛ أي: لا، ليس لهم باقية، ولذلك يسمون العرب البائدة، ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: ٩٨]؟ لم يبق منهم أحد، استأصلهم الله جميعًا، إلا الذين نجاهم الله ﷻ مع أنبيائه، وهم قليل.

فهاتان أمتان، كثيرًا ما يضرب الله بهما المثل، وإنما يمثِّل الله تعالى بأممٍ في جزيرة العرب، كصالح، وهود، وشعيب، ومن كان حولها، كإبراهيم في العراق، وموسى عليه السلام وعيسى، في الشام وفلسطين ومصر؛ لأن المخاطبين عرب. وإلا فلا ريب أنَّ هناك أمم وأقوام، كذبوا أنبياءهم في أطراف الكرة الأرضية، لم يسق الله تعالى ذكرهم،

كما قال الله ﷻ عن أنبيائه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وما تقدم من ذكر الأمتين من أسلوب الطي والنشر المرتب؛ لأنه طوى، فقدم ثمود على عاد، فلما نشر بدأ بثمود ثم عاد. لكن في قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦]، طي ونشر مشوَّش.

قوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾، فرعون الذي كان ملك مصر، الذي تباهى بها قائلًا: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، والذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قوله: ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ من الأمم السابقة، وفي قراءة: (قِبْلَهُ)؛ يعني: من كان من أتباعه، وفئته. وهي قراءة معروفة.

قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾، جمع، فربما أريد بها الأمم المؤتفكات؛ يعني: التي وقعت في الإفك، وتلطخت به، وربما أريد بها قرى قوم لوط خاصة، وهي قرى سدوم، الذين ذكرها الله آخر سورة النجم: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٥]. وقد كانت سلسلة من القرى، تقع في المنطقة التي تسمَّى الآن البحر الميت، وكانوا مشركين، وكانوا يأتون الذكران من العالمين؛ فيهم شذوذ، وفسق، وفجور وعهر، ويأتون في ناديهم المنكر، فقام فيهم لوط عليه السلام، يدعوهم إلى الله، وإلى عبادته وتوحيده، وينهاهم عن هذه القاذورات، فما كان منهم إلا الصَّد، والرَّد، وعدم القبول، حتى امتحنوه في ضيفه، في قصةٍ معروفة، مبسوطة في القرآن في مواضع عدة.

والقرآن العظيم يبسط بعض القصص في موضع، ويجملها في موضع. وهذا التنوع يمنح قارئ القرآن شوقًا لقراءته، والاستشهاد بآياته، فبعضها يصدق بعضًا وإن اختلفت الكلمات والعبارات، لتعطي معاني إضافية، لكن فحواها واحدة لا تتعارض. فهنا لا نجد عن ثمود سوى آية واحدة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾، ووجدنا في شأن عاد بضع آيات، ونجد فرعون، والمؤتفكات، مجموعين في آية واحدة.

قوله: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾؛ أي: بالفعل الخاطئ؛ من الكفر بالله، وتكذيب رسله، والوقوع في الفواحش والمنكرات العظيمة.

قوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾، رسول ربهم هنا، اسم جنس؛ لأنهم عصوا جميع رسل الله ﷻ.

والتكذيب برسولٍ واحدٍ تكذيبٌ بجميع الرسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنَّ نوح عليه السلام، كان أول المرسلين، فكان تكذيب قوم نوح تكذيبًا لجميع المرسلين؛ لأن التكذيب بنبي واحد تكذيب ببقية الأنبياء. وسبب ذلك أنَّ دعوة الأنبياء واحدة، فمن كذب نبيًّا واحدًا فقد كذب الباقين، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠﴾ [الشعراء: ١٦٠]، فهذا أمر مطَّرد.

وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، أما حال المؤمنين، فكما وصف الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلا يجوز التفريق بين رسل الله لأن دعواهم واحدة،

وهي الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ومعنى رابية: أي: زائدة؛ لأن ربوَّ الشيء زيادته. فهذه الأخذة في حق فرعون، أنَّ الله ﷻ أغرقه في اليمِّ هو وملأِه، وأما في حق المؤتفكات، فهو أنّ الله ﷻ اقتلع قراهم من تخوم الأرض، حتى ارتفعت إلى السماء ثم قلبها عليهم وأتبعهم بالحجارة، فيا له من أخذ! ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

ثم أشار الله ﷻ إلى ما كان من أمر نوح ﵇، وهو مثالٌ خامس، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾، طغى الماء حين كذب قوم نوح نبيهم، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فما زادهم إلا نفورًا، كما سيأتي في سورة نوح: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٧ ـ ٩]، بذل قصارى جهده ووسعه، لكنهم أبوا، فدعا عليهم، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٢]، انشقت السماء كأفواه القِرب، وتفتقت الأرض عيونًا؛ فالتقى ماء السماء وماء الأرض، وطغى، حتى بلغ رؤوس الجبال، كما وصف الله بقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

ما أهون الخلق على الله ﷻ! إذا شاء إهلاكهم سخَّر جند السماوات والأرض بكلمة، يقول للشيء كن فيكون. والجارية: هي

السفينة التي صنعها نوح عليه السلام، ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٤، ١٥].

فهذه السفينة التي علَّم الله عز وجل نوحًا صناعتها، بقيت عبرة وآية. وكثيرًا ما يمتن الله عز وجل بالفلك على الناس جميعًا، حتى إنَّ الله عز وجل ذكر الفلك في القرآن ثلاثًا وعشرين مرة! وهذا جدير بالتأمل، فهي تجري فوق ظهر الماء، ولولاها ما تمكن الناس من النقلة، وقطع البحار والمحيطات والأنهار، وفق موازين فيزيائية (قانون الطفو). يحمل الناس، والأثقال الضخمة فوق ظهر الماء؛ فيتمكن الناس من التواصل، والتبادل التجاري، وغير ذلك.

قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، مرجع الضمير في (نجعلها)، و (تعيها)، إلى الجارية، ويقال: إن أوائل هذه الأمة أدركتها؛ لأنها رست على الجودي، وهو جبل لعله في شمال العراق، أو جنوب تركيا، وأستبعد أن تكون السفينة بقيت آلاف السنين. فيكون مرجع الضمير إلى حمل بني آدم على السفينة، وحفظهم، وتناسلهم إلى قيام الساعة، باعتبار أنهم منحدرون من صلب نوح عليه السلام، فهم ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]. فهذا الحمل، يتناول حمل نوح، ومن آمن معه، وحمل نطفكم في صلب نوح عليه السلام، حتى إذا استوت على الجودي، وهبطوا، عاد التكاثر من جديد، فأبونا الأول آدم عليه السلام، وأبونا الثاني نوح عليه السلام. هذا توجيه صيغة الجمع.

فحمل بني آدم في السفينة، فيها عبرة وتذكرة، حيث أغرق الله الأرض بالطوفان، ونجّى الله تعالى بها المؤمنين. ويحتمل أن يكون المراد جنسها؛ يعني: جنس الفلك، كما قال في سورة يس: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم

﴿مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤٢]، وكثيرًا ما يمتن الله ﷻ بخلق الفُلك، فلا مانع من المَحْمَلين.

قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، ليس كل أذن واعية، بعض الآذان واعية صاغية وبعضها مجرد صوان، وطبلة، تلتقط الأصوات، لكنها لا تنتفع بما تسمعه؛ فالمقصود بالوعي هنا: هو التذكّر، والتعقّل، والتفهّم، لا مجرد إدراك الصوت؛ فإن الصوت يدركه الإنسان، والحيوان، والطير، والحشرات، وإنما المراد سماع الوعي، سماع التعقل، كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

منافذ الفؤاد: العينان، والأذنان، فبهما يلتقط الإنسان العلوم. فينبغي أن يبصر بنور الله، وأن يسمع على هدى من الله، أما مجرد الحاسة التي يشترك فيها المسلم والكافر، والبر والفاجر، والإنسان والحيوان، فلا تغني شيئًا، ولهذا قال الله ﷻ ذامًّا وناعيًا على الغافلين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لأن الأنعام ليست أهلًا للتكليف، فهي تشترك وإياهم في سمع الإدراك، وبصر الإدراك، لكنها غير مُكلَّفة، فتنقلب تلك الأدوات حجة عليهم؛ فالمقصود بالسماع: هو الذي يحصل به التفهّم، والتعقّل، والتذكّر، والادِّكار.

ولما ذكر الله تعالى، ووصف هذه الوقائع الأرضية، التي فيها عبرة للمعتبرين، انتقل السياق إلى الحديث عن مشهدٍ أخروي أشد فظاعة وأبلغ دلالة على قدرته. فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾، النافخ

هو إسرافيل عليه السلام كما جاء اسمه في الأحاديث الصحيحة، فهو الموكَّل بحياة الأبدان بعد البعث. والصور: قرنٌ ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام صيحة مدوِّية.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ النفخات ثلاث:

ـ **النفخة الأولى**: نفخة الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧].

ـ **والنفخة الثانية**: نفخة الصعق.

ـ **والنفخة الثالثة**: نفخة البعث. وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]. وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله. وذهب بعض المفسرين إلى أنهما اثنتان، كما دلَّت عليه الآية السابقة. وهذا هو ظاهر القرآن؛ وأن نفخة الفزع، ونفخة الصعق شيء واحد، فهي فزع وصعق في آنٍ واحد. والمراد بها هنا، والله أعلم، النفخة الثانية، التي يحصل بها البعث.

قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: أن هذه الأرض تُرفع، وهذه الجبال الثقيلة، الصلبة، الراسية، تُنزع، ثم بعد ذلك تحط. فمعنى: دكتا: أي: دقتا، من الدق، كما قال الله عز وجل: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥، ٦]. وقال في آية أخرى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، تقع هذه التغيرات الكونية يوم القيامة، أحوال مهولة، مخوفة، فظيعة، لا يستطيع العقل أن يتصور كيفيتها، لكنه يدرك ما تدل عليه العبارات من المعاني المعهودة في الأذهان.

والملاحظ أن الله سبحانه وتعالى يعظِّم من شأن الجبال، حتى لكأنها قسيم

للأرض فيخصها بالذكر، كما في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]. فالجبال خلقٌ عظيمٌ هائل، سلاسل ضخمة، شاهقة، كسلسلة جبال الهمالايا، وسلسلة جبال الألب، وجبل كلمنجارو، وجبال أطلس، تعلو عشرات الكيلو مترات شاهقة في السماء! حينما تقف في سفحها تتضاءل، وتتصاغر أمام قدرة الله الذي أرساها، فلذلك يخصها ﷻ بالذكر.

وكثير من الناس لا يأبه لهذه المظاهر، وينسبها للطبيعة. وليس له حظ منها إلا المشهد الظاهري فقط، لا ينتفع بما وراء الصور والأشكال، ولا يعتبر، ولا يستدل بدلائل الربوبية على عظيم خلق الله، وكمال صفاته، واستحقاقه للعبادة.

وكلمة واحدة في الآيتين، تعني لا معقب لها، وليس عليها مزيد.

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾، الواقعة التي كنتم توعدون بها، وتكذبون، وتنكرون، باتت واقعة حقًّا. وما أقوى عبارات القرآن في إحقاق الحق، تجدها قاطعة، جازمة، حاسمة، ليس فيها تردد.

قوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾، لفت انتباههم إلى المشهد العلوي بعد المشهد الأرضي، السماء التي قال الله عنها في مطلع سورة تبارك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤]، تلك السماء المحكمة، والسقف المرفوع، المبني بأيد، الذي نراه صباح مساء، ليل نهار، في غاية الإتقان والإحكام، تصبح يوم القيامة واهية، مهترئة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩]، وقال في آية: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ

ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، يجري للسماء مثل ما يجري للأرض من التغيير والتبديل، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾، الملَك اسم جنس للملائكة، والملائكة الكرام لا يحصيهم كثرة إلا خالقهم ﷻ، وهم سكان السماوات وعمّارها، حتى قال النبي ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ. لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى، ـ أَوْ ـ إِلَى، الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**» قَالَ: فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: «وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ»[١]، [٢] هذا شيء يراه النبي ﷺ ويسمعه، ولا نراه ولا نسمعه، كما قال.

فيوم القيامة، يكونون على أرجائها؛ لأنها تشققت، فهم في نواحيها، وأطرافها، وقد جاء في حديثٍ فيه مقال، عن ابْنِ عَبَّاسٍ: (يَجْمَعُ اللهُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالْبَهَائِمَ وَالسِّبَاعَ وَالطَّيْرَ وَجَمِيعَ الْخَلْقِ، فَتَنْشَقُّ السَّمَاءُ الدُّنْيَا، فَيَنْزِلُ أَهْلُهَا ـ وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ـ فَيُحِيطُونَ بِالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَبِجَمِيعِ الْخَلْقِ... ثُمَّ كَذَلِكَ كُلَّ سَمَاءٍ، حَتَّى تَنْشَقَّ السَّمَاءُ السَّابِعَةُ، فَيَنْزِلُ أَهْلُهَا وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ نَزَلَ قَبْلَهُمْ من أهل السمٰوات وَمِنَ الْجِنِّ

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٣١٢)، وقال: حسن غريب، وأحمد رقم (٢١٥١٥)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٢) ثقلت وسمع لها صوت كصوت أطيط الرَّحل إذا ثقل بصاحبه، الرَّحل الذي يوضع على ظهر البعير، يكون مشدودًا بالسيور والجلود، فإذا ثقل بالراكب سمع له صوت، يسمى أطيط.

وَالْإِنْسِ، وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَيُحِيطُونَ بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السمٰوات، وَبِالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَيَنْزِلُ رَبُّنَا عَجَّلَ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَحَوْلَهُ الْكَرُوبِيُّونَ، وهم أكثر من أهل السمٰوات السَّبْعِ وَمِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ) الحديث[١].

وهذا يوافق قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠].

قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، له العلو المطلق، سبحانه وبحمده. وعرش الرحمٰن: أكبر المخلوقات، وأعظمها، وأجلّها، وأعلاها، وهو سقف العالم. والرب ﷻ مُسْتَوٍ عليه، كما قال في ستة مواضع: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال في الموضع السابع: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، وهو خلق عظيم القدر، هائل الحجم، لا يحيط به وصف، إلا ما بلغنا من النصوص القرآنية، والأحاديث الصحيحة، كقول النبي ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ** - أُرَاهُ - **فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ**»[٢]، فهو سقف الجنة، والله من فوقه، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]. وأخبر النبي ﷺ في حديثٍ آخر، بأن له قوائم، فقالَ: «**لا تُخَيِّرُونِي على مُوسَى، فإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يومَ القِيَامَةِ، فأَصْعَقُ معهُمْ، فأَكُونُ أَوَّلَ مَن يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فلا أدْرِي أكانَ فِيمَن صَعِقَ، فأَفَاقَ**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير، رحمه الله: مَدَارُهُ عَلَى عليِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعان، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَفِي سِيَاقَاتِهِ غَالِبًا نَكَارَةٌ شَدِيدَةٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ. تفسير ابن كثير ت: سلامة (١٠٧/٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٧٩٠).

قَبْلِي أَوْ كانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ»(١).

ومعنى العرش في اللغة: سرير الملك، كما قال الله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣]، لكن العرش المضاف إلى الرب يليق به، وهو خلق من خلقه، ولا يجوز تحريف معنى العرش إلى الكناية عن الهيمنة والسيطرة، كما وقع لبعض المفسرين، فإن هذا تحريفٌ فاسد، مخالفٌ للُّغة، مصادمٌ للنصوص.

هل يستقيم أن يقال: ويحمل هيمنة ربك، وسيطرة ربك ثمانية؟! هذا كله من شؤم المقدمات الفاسدة، التي تحمل بعض الناس على تحريف الكَلِمَ عن مواضعه، تحت دعاوى باطلة، وشبهات موهومة. والواجب على كل مؤمن ومؤمنة، أن يحمل كلام الله على ظاهره اللائق به، وألَّا يتجنى على النصوص بتحريفٍ أو تكييف.

قوله: ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: فوق الملائكة الذين في أرجائها.

قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾، هم حملة العرش؛ فالعرش له حملة، لا لأن الله يحتاج إليهم، الله غني عن العرش، وعن حملته، لكن أراد الله ﷻ أن يُظهِر عظمته، وعظمة خلقه، حملة العرش ملائكة عظام، لا يستطيع أحد أن يصفهم إلا بما نطقت به النصوص، ومن ذلك حديث جوَّد إسناده ابن كثير رحمه الله، أنَّ النبي ﷺ قال: **«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»**(٢).

وفي الحديث دليلٌ على أنَّ النبي ﷺ لا يتكلم عن الأمور الغيبية إلا بإذن، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم رقم (٢٣٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٢٧).

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧]. ولذلك ينبغي للمؤمنين أن يحبوهم؛ لأنهم يدعون الله لهم، ويستغفرون لهم.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝٤٨﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال ﷺ: «**يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ: فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ**»[1]، فهذا العرض لا بد منه. ويتضمن محاسبة الخلائق، فأما الكفار فيقال لهم في العرض: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: ٦٦]، ولا جواب لهم، كلٌّ يتبرأ من معبوده، يلعن بعضهم بعضًا ويكفر بعضهم ببعض، فلا عذر لهم، فلذلك يلقون في النار.

وأما المؤمنون فمحاسبتهم على نوعين: عرض ومناقشة، فأما **العرض** فهو الذي دلَّ عليه حديث ابن عمر، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[2]، ما أسعده! ما أهنأه حينما يقول له الرب الرحيم ذلك، هذا السعيد المعافى، هذا الناجي الذي زُحزِح عن النار، وأُدخِل الجنة ففاز.

وأما النوع الثاني من المحاسبة، فهو الذي يتضمن **مناقشة** وتدقيقًا في الحساب، قَالَ ﷺ: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨] قَالَتْ:

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٩٧١٥)، وابن ماجه رقم (٤٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٤٤١).

فَقَالَ: **«إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ»**[١]؛ أي: تتخطفه الكلاليب ويقع في النار ويعذب بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة، فيخرج بشفاعة الشافعين أو برحمة أرحم الراحمين.

قوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾، كيف يخفون على الله، وقد أخرجهم من قبورهم حفاةً، عراةً، غرلًا، بُهمًا، فهم مكشوفون بدنيًّا ونفسيًّا، لا يخفى على الله منهم خافية، حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختونين، كما بدأنا أول خلق نعيده. بُهمًا ليس معهم شيء، لا يمكن أن يكذبوا على الله ﷻ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: **«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»** قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»**)[٢].

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: صدق تحقق الساعة، وتعظيم شأنها.

الفائدة الثانية: أنَّ أسماء الساعة، واليوم الآخر، أعلام وأوصاف.

الفائدة الثالثة: أنَّ تكذيب الأمم السابقة بالساعة، سبب تعجيل هلاكهم.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى أسلوبٍ من أساليب القرآن؛ وهو أسلوب الطي والنشر المرتب والمشوش، كما يقول أهل البيان.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٠٣)، ومسلم رقم (٢٨٧٦).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٩٦٩).

الفائدة الخامسة: تنوع العقوبة والإهلاك بما يستحقه المكذبون، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

الفائدة السادسة: أسلوب البسط والإيجاز في القرآن الكريم.

الفائدة السابعة: بلاغة التشبيه في القرآن وقوة دلالته.

الفائدة الثامنة: هوان الخلق على الله، وكمال قدرته عليهم.

الفائدة التاسعة: شدة عذاب الله، وعظيم أخذه.

الفائدة العاشرة: شؤم العصيان، وتكذيب الرسل وأنه سبب لوقوع المثلات.

الفائدة الحادية عشرة: أنَّ التكذيب بواحدٍ من الرسل، تكذيبٌ بجميعهم.

الفائدة الثانية عشرة: تسخير الله تعالى للقوى الطبيعية بما تقتضيه مشيئته؛ نفعًا وضرًّا، ومثوبةً وعقوبةً؛ فالريح تكون تارةً نصرًا وتارةً هلاكًا، قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**»(١)، والماء يكون تارةً بركة ورواء للأرض، وتارةً يكون طوفانًا وإغراقًا، كل ذلك بيد الله.

الفائدة الثالثة عشرة: امتنان الله تعالى بالفلك، وتكرار ذكره في القرآن.

الفائدة الرابعة عشرة: أهمية الوعي، والإصغاء، والتعقل، للمواعظ والذكرى.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات الصُّوْر، والنفخ فيه، وعدد النفخات.

الفائدة السادسة عشرة: تعظيم الجبال، وذكرها قسيمًا للسماوات والأرض.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٠٣٥)، ومسلم رقم (٩٠٠).

الفائدة السابعة عشرة: صدق وقوع الساعة.

الفائدة الثامنة عشرة: بيان أحوال الساعة في السماوات والأرض.

الفائدة التاسعة عشرة: إثبات الملائكة الكرام، ووجوب الإيمان بهم.

الفائدة العشرون: إثبات عرش الرحمٰن، وأنه خلق عظيم، وإثبات علوِّ الله عليه.

الفائدة الحادية العشرون: الرد على من حرف معنى العرش إلى معاني مجازية.

الفائدة الثانية والعشرون: إثبات العرض وأنواعه.

الفائدة الثالثة والعشرون: صفة الحشر، وانكشاف الخلق لله تعالى.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ (١٩) إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧) فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢)﴾ **[الحاقة: ١٩ ـ ٥٢]**.

هذا هو حال المؤمن يوم القيامة، والقرآن العظيم يصور مشاهد القيامة صورة دقيقة معبرة، حتى لكأن السامع أو القارئ يعيش أحداثها، وإن كانت أمورًا غيبية، لا يمكن للعقل أن يدرك كيفيتها على ما هي عليه

في الواقع، لكن تصوير القرآن لها تصوير بديع، يأخذ بمجامع القلوب، كما في تصوير حال المؤمن، وهو يُعرِب عن فرحه الشديد، وسروره واغتباطه بنعمة الله تعالى عليه.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ وإيتاء الكتاب باليمين دليل تكريم، وبهذا يكون قد نجا، وأفلح، وأنجح، فلذلك يُبدي سروره قائلًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ و«هَاؤُمُ»: بمعنى هاكم، وقال بعض العلماء: إنها ها التنبيه، وأضيفت إليها الميم علامة الجمع، والمعنى: خذوا، اقرؤوا كتابي، كما يُسَرُّ الطالب إذا حصل على شهادة نجاح، فهو يُطلع عليها الآخرين وينشرها بينهم، لما يجد من فرط السرور، فأي سرور أعظم من سرور ذلك الإنسان الذي نجا، وزُحْزِحَ عن النار وأُدخل الجنة؟!

قوله: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾؛ أي: كتاب أعمالي.

قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، ظننت هنا، بمعنى أيقنت؛ فالظن يأتي بمعنى اليقين، كما قال الله ﷻ عن الثلاثة الذين خلِّفوا: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ أي: أيقنوا. والمعنى أنني كنت موقنًا بأنني سأحاسب، وسيأتي يوم يجازى المحسن على إحسانه، والمسيئ على إساءته. وقال بعض أهل العلم: يعني: ظننت أنني أجازى على ما فرط مني من سيئات، لكن ربي عفا عني، بدليل قوله في الحديث: «**وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ**»، وكلاهما له محمل حسن.

قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾، المراد بالعيشة: الحياة الأخروية في الجنة، ومعنى راضية: أي: مرضية، لكنها لفرط الرضى عنها، باتت وكأنها محل الرضا، فلم يقل فهو في عيشة مرضية؛ بل وصف العيشة نفسها بأنها راضية.

قوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾، وذلك أنّ الجنة درجات، وغرف بعضها فوق بعض، قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا

﴿غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرَفَ فِي الجَنَّةِ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ**»(١)، فهذا طرف من نعيم الجنة؛ فالجنة درجات، كما أنَّ النار دركات، أعاذنا الله وإياكم.

وكون الجنة درجات لا يمنع لقاء أهلها، فإن أهلها، وإن تفاوتت رتبهم، ودرجاتهم، يمتِّع الله بعضهم بلقاء بعض، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]، فيحصل بين أهل الجنة لقاء، واجتماع، وتزاور، على تفاوت منازلهم، في مجامع عامة، كما يقع في الدنيا؛ هذا يعيش في منزل حسن فسيح، وهذا يعيش في منزل دون ذلك، ثم تجمعهم الجوامع والأعياد.

قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، ثمارها التي تقطف في متناول مشتهيها، فمهما اشتهى ساكن الجنة قطفًا من ثمارها، فإنه يتدلى إليه جالسًا كان أو مضطجعًا، أو قائمًا، أو ماشيًا، فيدنو من يده فيقطفه، وهذا من كمال النعيم، فلا يتعنَّى الصعود إليه، كما نفعل في الدنيا من رقي النخل وغيرها من الأشجار، وقد يلحقه من جراء ذلك مشقة، ويصيبه أذى. فهذا طرف من نعيم الجنة، ألمح الله تعالى إليه بهذه الإشارات.

قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾، هذا يدل على أنهم نالوا هذه الدرجات بسبب أعمالهم، وبما قدموا من العمل الصالح، وهذا لا يتعارض مع قول النبي ﷺ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»(٢). فإن الآية ونظائرها تدلُّ على أنَّ الجنة تكون جزاءً للعمل، كما

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٥٥)، ومسلم رقم (٢٨٣٠).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤٦٤)، ومسلم رقم (٢٨١٨).

قال في آية أخرى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ فالباء في الآيات «باء السببية»، والباء في الحديث باء «الثمنية»؛ أي: ثمنًا لعمله؛ فالباء المثبتة: باء السببية، والباء المنفية: باء المعاوضة والثمنية والمقابلة.

فمهما عمل الإنسان من الأعمال الصالحة، فإنها لا يمكن أن تكون مقابل نعيم الجنة؛ لأن الله ﷻ لو احتسب على الإنسان نعمة من نعمه، كنعمة البصر، لرجحت بعمله أضعافًا مضاعفة، وبقيت سائر النعم بلا مقابل.

فالعمل سببٌ وليس ثمنًا، لكيلا يُدِلَّ أحد بعمله على ربه، ويمتنَّ به؛ فالفضل لله. وذهبت المعتزلة إلى أنَّ الباء في الآية باء الثمنية، وأنه يجب على الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ أن يجازيهم بذلك وجوبًا بناءً على أصلهم الفاسد في التحسين والتقبيح العقليين، ووجوب فعل الأصلح على الله! فيقولون: إنه يجب على الله أن يثيب المحسنين، ويحرم عليه أن يعاقبهم، ويجب على الله أن يعاقب المسيئين، ويحرم عليه أن يعفو عنهم! ولهذا أنكروا الشفاعة، وهذه جُرأة على الله، وسوء أدب، والحق، كما قرر أهل السُّنَّة والجماعة، أنَّ العمل سبب لدخول الجنة وليس ثمنًا لها. قال ابن القيم:

ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الحق العظيم الشأن
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله والفضل للديان

قوله: ﴿ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: الأيام الماضية، وهي أيام الدنيا. فتأملوا هذه السعادة والغبطة، التي يحصل عليها المؤمن ذلك اليوم؛ نعيمٌ معنوي، يتمثل في حالة الفرح والسرور التي يلهج بها، ونعيمٌ حِسِّي بما وصف الله ﷻ من نعيم الجنة أنها جنة عالية وقطوفها دانية، وأنه يأكل منها ويشرب، وفيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. فينبغي للمؤمن أن يُطرب قلبه بذكر الآيات الدالة على نعيم الجنة، ليحس بالاطمئنان،

والرضا، والفرح، والاستبشار، والرغبة فيما عند الله، ورجاءه، ونظائرها في القرآن كثيرة، ووفيرة، وفيها من المشاهد ما لا يحيط به وصف، ولا تتسع لها عبارة أدبية.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وقد قال في سورةٍ أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠] ولا تعارض بينهما، فإنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وهذا أبلغ في تبكيته، وتحقيره، وإذلاله، وإهانته. والإيتاء بالشمال دليل الإهانة والتحقير، ولهذا يكره الأخذ والإعطاء بالشمال.

قوله: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾، يتحسَّر ويتندم غاية الندم، ولات ساعة مندم، فيتمنى أن لم يؤت كتابه، لما فيه من الفضائح، كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾؛ أي: لم أعلم حقيقة عملي، ومآل أمري. ولو شاء الله ﷻ لأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، دون أن يطلعهم على كشف الحساب، لكنه يظهره لكمال عدل الله تعالى.

قوله: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾، تمنَّى أنَّ موتته في الدنيا كانت النهاية، وأنه لا يُبعث بعدها، مع أنه في الدنيا كان يفر من الموت أشد الفرار، ويكرهه أشد الكراهة، لكنه يتمنى بعد أن اطَّلع على عاقبته البئيسة أنه لم يك شيئًا، وصار نسيًا منسيًّا. ثم يمعن في التندم والتحسُّر مبيِّنًا خسارة صفقته قائلًا: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾؛ أي: ذاك المال الذي جمعته، ولبدته في الدنيا تلبيدًا لم يغن عني شيئًا!

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾، أولئك الجمع من الخدم، والحشم، والجند الذين كانوا يحيطون بي تفرقوا عني! فيوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ

﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]. فكلٌّ يتنصَّل من وليه في الدنيا. وقد ذكر الله ﷻ الخصومة والجدال بين المستكبرين والمستضعفين في النار، في آيات كثر من القرآن. فهذه حسرات موتور، ونفثات متندم مصدور، حيث لا ينفعه الندم في ذلك اليوم.

تنبيه: الهاء في «كتابيه» و«حسابيه» و«ماليه» و«سلطانيه»، تسمَّى هاء السكت، وهي تثبت وقفًا ووصلًا، كما في المصحف الإمام، وجرى به الإقراء. وبعضهم لم يثبتها في حال الوصل فيقول: {ما أغنى عني مالي * هلك عني سلطاني} فحذفها في حال الوصل، والمشهور الأول.

قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾، هذا الحكم الإلٰهي يُشعر بالعنف والشناعة، والأخذ الشديد، والمخاطب ملائكة العذاب، خزنة النار، فيؤخذ أخذًا شديدًا، يُتَلُّ تلًّا، ويُجَرُّ جرًّا، ويُسحب سحبًا على وجهه في النار. والغَلُّ: هو جعل الأيدي إلى الأعناق، فتربط أيديهم إلى أعناقهم، فلا يتمكن من المدافعة.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ معنى صَلُّوه: ألقوه في النار، وربما كانت مأخوذة من الصلي، كقول الله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾ [الليل: ١٥]؛ أي: الشيَّ، كما يستدفئ الإنسان فيقال: يستصلي، فهي تشوي الكافر وتحرقه.

قوله: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾، والسلسلة حديدة مكوَّنة من حِلَق متصل بعضها ببعض، وقد جاء في بعض الآثار أنها تُدخَل في دُبره، وتُخرَج من منخريه، حتى شبَّه بعض المفسرين ذلك بالجراد حينما ينظم في عود، ويشوى على النار. وهي سلسلة رهيبة عظيمة، جاء وصفها في بعض الآثار بما تقشعر منه الأبدان، ويكفي قول الله تعالى: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ﴾، قيل بذراع الملَك؛ يعني: انظموه فيها، كما يجعل اللحم في سيخ الحديد، أو في السفُّود.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾، هذه جملة تعليلية، فالله حكمٌ عدلٌ مُقسط، لا يظلم مثقال ذرة، وهذا الكافر استحق هذه العقوبة الأليمة لكونه أمضى عمره لا يؤمن بالله العظيم، الذي خلقه، وأعدَّه، وأمدَّه، وأوجده من العدم، وهيأ له أسباب المعيشة، واستخلفه في الأرض، ورغم ذلك عَبَدَ غيره، وترك عبادته! فهو حقيقٌ بهذه العقوبة، إنَّ الشرك لظلم عظيم. قال الله تعالى، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

الإيمان بالله لا يتم إلا بأن يؤمن الإنسان بوجود ربه ﷻ، ويؤمن بربوبيته؛ بأنه الخالق المالك المدبِّر، ويؤمن بألوهيته بمعنى أنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، فلا يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغيره؛ سواء كانت عبادة قلبية؛ كالمحبة والخوف والرجاء، أو كانت عبادة قولية؛ كالذكر والدعاء، أو كانت عبادة بدنية؛ كالركوع والسجود، أو كانت عبادة مالية؛ كالزكاة. فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى لم يحقق الإيمان بألوهيته. ويؤمن بأسمائه وصفاته؛ بأن يعتقد له المثل الأعلى، ويثبت ما أثبت لنفسه في كتابه؛ من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما أثبته له نبيه ﷺ، وينزه الله ﷷ عما نزَّه عنه نفسه من صفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين، أو نزهه عنه نبيه ﷺ.

فتلكم هي العُروة الوثقى، الإيمان بالله ﷷ، فيجب على كل حيٍّ أن يحقق الإيمان بالله، كما أراد الله، وأن يبرأ مما ينافي ذلك الإيمان؛ فيبرأ من الإلحاد، وإنكار وجود الله، ويبرأ من إنكار ربوبيته، ونسبة الخلق، أو المُلك، أو التدبير لغيره، ويبرأ من الشرك وصرف شيء من العبادات لغير الله، ويبرأ من التعطيل، والتمثيل؛ فلا يعطِّل ما وصف الله به نفسه، ولا يمثِّله بصفات المخلوقين. فإذا انطوى القلب على هذا الإيمان، فهو حقيقٌ بأن يكون من أهل الجنة.

قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾، هذا مما استوجبوا به

هذه العقوبة؛ فقد أهدروا حق الله، وأهدروا حق عباد الله. وهذا يدلنا على أهمية حقوق الناس، وأنَّ للناس بعضهم على بعض حقوق، وأنَّ للمساكين، حقٌّ معلومٌ كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

ومن الناس من لا يكترث بحقوق الناس وينتهكها، ويمنعهم إياها، وقد قال النبي ﷺ على سبيل المثال: «**أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ**»[١].

وقال: «**قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[٢].

فيجب على الناس أن يرفدوا مساكينهم، وأن يغنوهم عن السؤال، وأن يطعموهم ويكسوهم، ولهذا فرض الله ﷻ الزكاة على عباده فرضًا واجبًا، وندبهم إلى ما هو زائد على ذلك وهو الصدقة، فهذان الأمران هما ركنا السعادة، وهما القيام بحق الله والقيام بحق العباد.

وفي الآية ما يدل على أنَّ الأمر لا يقتصر على إطعام المسكين؛ بل يتناول الحضَّ عليه، وربما كان بعض الناس لا يملك ما يطعم به المسكين، لكنه يملك أن يحض عليه، فإذا عجزت عن أن تطعم المسكين من حُرِّ مالك، فلا أقلَّ من أن تحث غيرك عليه. ومن كان يحضّ على طعام المسكين، فهو من بابٍ أولى يقوم بذلك بنفسه مع القدرة.

فتحقيق هذين الأمرين، سر السعادة في الدنيا والآخرة؛ فإن الذي يمتلئ قلبه إيمانًا بالله، ويُحسن إلى عباد الله، يشعر بالخيرية. والسعادة هي الشعور بالخيرية، فيستروح قلبه، ويصفو خاطره، ويذهب عنه الكدر،

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٤٤٣)، وصححه الألباني (في مشكاة المصابيح رقم ٢٩٨٧).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٢٢٧).

فإن للعطية والإحسان أثر عظيم على نفس صاحبها، ويدفع الله بها من البلايا، والشرور، والهم، والغم، ما لا يعلمه الإنسان.

قوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾، جميع من كان يودهم، ويقربهم، ويواليهم في الدنيا، تفرقوا عنه. ولو أنه والى الله ﷻ ورسوله والمؤمنين، لكان يجد حميمًا، لكنه لما تنصَّل من ذلك، فلم يؤدِّ حقَّ الله، ولم يواله، ولم يوالِ رسوله والمؤمنين، بقي منفردًا يوم القيامة. وقد قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، فإذا ترك هذه الولاية، بقي يوم القيامة فردًا، شاذًّا، وحيدًا، لهذا قال ربنا: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فيكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا.

قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾، الطعام الذي كان يمنّ به، ويمنعه المساكين، يحرم منه يوم القيامة، إلا طعامٌ خبيث هو الغسلين. وقد تنوَّعت عبارات المفسرين في معناه، فقيل: إنه صديد أهل النار، وقيل: إنه شجر النار، وفسَّره بعضهم بأنه شجر الزقوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

قوله: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾، هم الذين أتوا بالخطيئة الكبرى، وهي الكفر بالله ﷻ ولا ريب أنَّ الخطايا درجات؛ فالخطيئة الكبرى هي الكفر والشرك بالله، ودونها خطايا دون ذلك؛ فثَمَّ كبائر، وثَمَّ صغائر، لكن هذا الوعيد ينطبق على أشدها وهي الشرك والكفر بالله، وإنكار المعاد وتكذيب النبي ﷺ وإنكار القرآن.

وبعد أن وصف الله تعالى هذين المشهدين المتقابلين، اللذين بينهما بُعد المشرقين، انتقل السياق إلى أمرٍ عظيم، يتعلق بهذا القرآن الذي يتلى، فقال: قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾. (فلا أقسم) هذا تعبيرٌ يأتي كثيرًا في القرآن مثل: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾

[القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، وبعض العلماء يقول: لا زائدة، أتي بها للتأكيد، والمعنى والله أعلم: الأمر لا يحتاج إلى قسم؛ لأنه من الوضوح بمكان، فيكون فيه زيادة في البيان والتأكيد للمراد.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله ﷻ، قال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ - أَوْ - أَشْرَكَ**»[١]، فلا يجوز أن يقول: والشمس، والقمر، والفجر، والنبي، والكعبة، وشرفي، وأبي، ونحو ذلك، قال ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ**»[٢]، فلا يجوز أن يحلف إلا بالله العظيم، أما الله سبحانه فيقسم بما شاء من خلقه، وهذا كثير، قال الله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ [الفجر: ١]، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر: ١]، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: ١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس: ١]، وغيرها.

فقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ شمل كل شيء؛ لأنه ليس ثمَّ إلا مُبصَرُات، وغير مُبصَرات، وهذا يدل على وجود عوالم كثيرة غير مُبصَرات بالنسبة لنا، فأبصارنا تقع على الآدميين، والشجر، والجبال، والدواب، وسائر المرئيات، لكننا لا نبصر عالم الجن، ولا عالم الملائكة، ولا عالم الكائنات الدقيقة؛ من الجراثيم، والميكروبات، والفيروسات، وغير ذلك، عوالم لا يحيط بها إلا خالقها ﷻ؛ بل ذهب الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله إلى أنَّ هذا يكون قسمًا بنفسه أيضًا؛ لأننا لا نرى الله في الدنيا. وجواب القسم:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾؛ أي: هذا القرآن، بلاغ رسول كريم. ولهذا عبَّر بكلمة رسول، لا أنه كلام الرسول؛ بل هو كلام الله ﷻ، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾، وإنما أضافه إليه قولًا، لكونه مبلِّغًا، فلهذا وصفه بوصف الرسالة، والرسول هو من ينقل الخبر.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٥٥٩٤)، وأبو داود رقم (٣٢٥١)، والترمذي رقم (١٥٣٥)، واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٤٠١)، ومسلم رقم (١٦٤٦).

فنبيُّنا ﷺ نقل وحي الله إلى عباد الله، ولأجل ذا قال في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]؛ فالرسول في سورة التكوير جبريل، والرسول في سورة الحاقة محمد ﷺ، وهذا يدل على أنه ليس كلام أي منهما؛ لأنه لا يمكن أن يكون كلامهما معًا، وإنما الاشتراك في التبليغ. فوظيفة الرسول الملكي جبريل، والرسول البشري محمد ﷺ هي إبلاغ الرسالة، ونقل كلام الله إلى عباد الله. فبهذا يبطل ما قد يحتج به من أنكر أنَّ القرآن كلام الله، وزعم أنه مخلوق، أو أنه كلام محمد أو جبريل. فقد برَّأ الله ساحتهما وزكَّاهما، وشرَّفهما بإبلاغ كلام الله إلى عباد الله. وفي الآية تزكية من ربِّ العالمين لنبيِّه ﷺ، والكرم وصف لا يقتصر على بذل المال فقط؛ بل الكرم وصف يدل على حسن الأخلاق، والطباع، والمَحْتِد.

قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾، ذلك أن الذي يُعارض به القرآن من دعاوى المناوئين؛ إما حديث مفترى، أو شعر مفتعل؛ فالحديث المفترى هو ما يفوه به الكهان الذين يدَّعون العلم بالمغيَّبات، ويكون لأحدهم رَئِيٌّ من الجن، يوحي إليه زُخرف القول، أو ما قد يزجيه الشعراء من القصيد. فهذان القولان هما ما يعارض ويحاكى به القرآن في ذلك الوقت وفي كل وقت، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»**، فقال: جبَّارٌ في الجاهليَّةِ خوَّارٌ في الإسلامِ بمَ أتألَّفُهم أبشِعرٍ مفتعَلٍ أم بقولٍ مفترًى)[1].

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السُّنَّة (٤/١٥٦)، وفي غيره، وقال: من أشهر الأحاديث.

ومنكرو القرآن، يحاولون وصفه بذلك، فتارةً يقولون من سجع الكهان، وتارةً يقولون شعر. وربما قالوا غير ذلك من التهم، ليصرفوه عن حقيقته، وأنه كلام ربِّ العالمين.

ومعنى: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ما أقلَّ إيمانكم، وما أقلَّ تذكركم، وقيل: إن (ما) زائدة، لكنها تفيد التأكيد على قلة إيمانهم وتذكرهم.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فهو كلام الله ﷻ، نزل من عنده، وهذا يدل على علوِّه ﷻ فوق سماوته، فكما أنَّ له علوّ الصفات، وعلوّ القهر، فله علوّ الذات، فهو ﷻ فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، فيجب أن يعتقد الإنسان اعتقادًا جازمًا بأن ربه الذي خلقه، له العلوّ المطلق، فلهذا يجد قلبه عند الدعاء متجهًا إلى الأعلى، لا يذهب يَمنة ولا يَسرة، ولا أمام ولا خلف، ولا تحت، هكذا فطر الله الخلائق على اعتقاد علوِّه، ونطقت النصوص بهذا كتابًا وسُنَّة، وانعقد الإجماع، ودل العقل الصريح، على علوِّ الله بذاته. ومن دلائل علوِّ الذات، قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾؛ لأن النزول يكون من أعلى إلى أسفل.

فالقرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد ﷺ، وبيان هذه الجمل:

(القرآن كلام الله): قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، هذا أخص أوصافه.

(منزل غير مخلوق): قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٣]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١]، وقال: ﴿لَوْ

أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

(منه بدأ): أي: تكلم الله به ابتداء، فصدر منه، وخرج منه؛ لأنه صفته وكلامه، لا من غيره.

(وإليه يعود): يعني: إليه ينسب، أو إليه يرفع في آخر الزمان، من الصدور ومن السطور تكرمة له.

(تكلم الله به حقيقة): فليس مجرد معنى يقوم في نفسه، كما تقوله الصفاتية؛ من الكلابية، والأشاعرة، والسالمية، والماتريدية، الزاعمين أنَّ القرآن معنى قديم قائم في نفس الرب، وأما ما سمعه جبريل، أو سمعه الأبوان، أو سمعه موسى عليه السلام، فإنه عبارة عن كلام الله، أو حكاية عن كلام الله! لا ريب أن هذه بدعة صلعاء، لم يفه بها أحد من السلف، وإنما ألجأهم إليها فساد مقدماتهم، وتأثرهم بالمنطق اليوناني، الذي حرفهم عن طريقة السلف، في إعطاء النصوص ما تستحقه من الإثبات والإقرار والإمرار.

والقرآن العظيم كان محل إنكار الكفار، ينكرون نسبته إلى الله؛ لأنهم لو أقروا بنسبته إلى الله لانتهت القضية، كما أنَّ النبوة محل إنكارهم، ولو أقروا بها لانتهت القضية، ولزمهم قَبول ما جاء به النبي ﷺ، ففي صلح الحديبية، (لَمَّا كَتَبُوا الكِتَابَ، كَتَبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، قَالُوا: لَا نُقِرُّ لَكَ بِهَذَا، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ: **«أَنَا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ»**) الحديث[1].

فكانت قضية القرآن أمّ القضايا، ولهذا قال الله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ: ١ ـ ٣]، وأحد القولين، أنَّ النبأ

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٥١)، ومسلم برقم (١٧٨٣).

العظيم هو القرآن العظيم، فكانوا ينكرون القرآن ونسبته إلى الله ﷻ، فأكد الله تعالى في هذه الآيات نسبته إليه، وأقسم قسمًا عظيمًا عليه.

ثم إنَّ الله ﷻ أقام دليلًا بديعًا من دلائل النبوة، وصدَّق نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: لو نسب إلينا محمد ﷺ، وحاشاه، قولًا لم نقله، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾، هذا فرض في مقام المجادلة مع المخالف، ولا يلزم أن يقع؛ بل لا يمكن أن يقع، فإن الله قد زكَّى نبيه واصطفاه عن علم وحكمة، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، لكنه أراد أن يبيِّن لهم استحالة وامتناع أن يقرَّ الله ﷻ أحدًا على قول ينسبه إليه زورًا وبهتانًا.

واليمين: إما أن تكون يمين الله ﷻ التي أثبتها لنفسه في الآيات والأحاديث، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وفي الحديث أيضًا: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمٰوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**»[1]، وإما أنَّ المراد باليمين: يمين النبي ﷺ، بمعنى أنه يؤخذ من العضو الذي يعتمد عليه، ويركن إليه، وهو اليمين. ولم يضف اليمين إلى نفسه هنا، فلا نقطع أنَّ المراد باليمين هنا يمين الرب، لكن هذا محتمل، وقد ثبتت بأدلة أخرى.

والوتين: هو نياط القلب، العِرق الذي يتعلق به القلب، كأنه، والله أعلم، الشريان الكبير الذي يخرج من القلب، الذي يسمُّونه الأورطة، فلو وقع ذلك من النبي ﷺ، وحاشاه، لأوقع الله به هذا الوعيد، ولكنه لم يقع، فدل ذلك على أنه راشدٌ بارٌّ صادق.

وقد عدَّ العلماء هذه الآية من دلائل النبوة، ودلائل النبوة كثيرة جدًّا، وقد ظن بعض المتكلمين؛ من المعتزلة وغيرهم، أنَّ دليل النبوة منحصر بالآيات والمعجزات! وهذا قصورٌ كبير، فدلائل النبوة أكثر من

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٨١٢)، ومسلم رقم (٢٧٨٧).

أن تحصر. فمن دلائل النبوة، ولا شك، الآيات والمعجزات، ومن دلائل النبوة: مضمون دعوة النبي، وما فيها من الحق، ومن دلائل النبوة: سيرة النبي، وخُلقه، وشمائله، ومن دلائل النبوة: بشارة الأنبياء السابقين به، ومن دلائل النبوة هذه الآية.

كأنما يقول الله ﷻ: لو كان غير نبي، لما أمهلته، ولأخذته، كما فعل الله ﷻ بسائر المُكذِّبين، كمسيلمة الكذاب، حين ادَّعى أنه يوحى إليه، وأتى بسجع نسبه إلى الله ﷻ، فكانت النتيجة ألا يذكر اسمه إلا مقرونًا بالوصف بالكذب فيقال: مسيلمة الكذاب، فصار الكذب أخص أوصافه، ولكن الله صدق نبيه، فهو صادق مصدوق. ولهذا قال الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، وذلك لسلامة ما قالوه ونقلوه. ولا يمكن عقلًا، أن يخرج أحد ويقول للناس: أنا رسول من عند الله، أبلغكم كلام الله، والله يقول كذا، ويأمركم بكذا، وينهاكم عن كذا، ثم ينقله الله تعالى من ضعفٍ إلى قوة، ومن هزيمةٍ إلى نصر، ويكثر أتباعه، ويوطِّئ له أكناف الأرض، ويفتح له البلاد والعباد، إلا كان دليلًا على تصديق الله له.

لو جاءنا إنسان، وقال: إنَّ السلطان يقول لكم كذا، ويأمركم بكذا، وينهاكم عن كذا، ثم لم يرِد من ذلك السلطان تكذيب له، ولا تعقب عليه، فسنستنتج أنه صادق، فلو كان كاذبًا لما تركه السلطان ينسب إليه ما لم يقل. فإذا كان هذا حاصلًا بين الآدميين، فكيف برب العالمين؟! هذا دليلٌ قاطعٌ على أنه صادقٌ مصدوق. فهذا وجه كون هذه الآيات من دلائل النبوة.

قوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ يعني: لو اجتمعتم أن تردُّوا هذا الأخذ، والقطع عنه، ما استطعتم؛ بل سينفذ الله فيه مراده، وأنَّى لكم أن تحولوا بينه وبين مراده!

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾، مرجع الضمير إلى القرآن، وقد ذكرنا في مستهل هذه السورة أن من مقاصدها: إثبات أن القرآن كلام الله، وتعظيم القرآن؛ فالقرآن تذكرة وذلك لما يبعثه القرآن في النفوس من العلوم النافعة، والمعارف الصحيحة، واليقينيات التي يعتصم بها. ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]؛ فالقرآن تذكرة، لكن للمتقين، فلا ينتفع بهذه التذكرة إلا من كان في قلبه تقوى وخشية لله.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾، وهذا من العجب أن يكون للقرآن أثران متقابلان؛ فهو بالنسبة للمتقين: تذكرة، وهداية، وشفاء، وبالنسبة للكافرين: حسرة وندامة وعمى، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤]. هكذا يكون القرآن بركة على أقوام وشؤمًا على آخرين؛ فمن تقبَّله بقَبول حسن لم يَشْقَ به، قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ٢].

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾، وهذا يدل على اطِّلاع الله ﷻ على الخفايا والسرائر، وأنه يعلم أن في المخاطبين مكذبين بالقرآن.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾، الذين كذبوا به، ووجه كونه حسرة عليهم أنه لما أنكروه تحسروا أشد التحسر يوم القيامة، كما تقدم في الآيات.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ هذه أعلى درجات اليقين؛ لأن اليقين ثلاث درجات: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم اليقين: هو بلوغ الخبر، فيُحدث له نوعًا من التصديق، وعين اليقين: هو أن يعاينه ببصره، وحق اليقين: هو تحقق وقوعه، وهو أعلى الدرجات.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾؛ أي: نزِّه ربك العظيم عما يفتريه الأفَّاكون والكاذبون.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: نشر الصحف، وإظهار عدل الله تعالى.

الفائدة الثانية: إكرام المؤمن يوم القيامة وفرحه بموعود الله.

الفائدة الثالثة: بيان نعيم الجنة الحسِّيّ والمعنوي.

الفائدة الرابعة: إهانة الكافر يوم القيامة وحسرته وندامته.

الفائدة الخامسة: بيان عذاب النار الحسِّي.

الفائدة السادسة: أنَّ اليمين علامة الكرامة والشمال علامة المهانة.

الفائدة السابعة: تفاهة الأعراض الدنيوية من مالٍ وسلطانٍ، وعدم غنائها عن صاحبها يوم القيامة.

الفائدة الثامنة: أنَّ النجاة والفلاح تكون بالإيمان بالله.

الفائدة التاسعة: التلازم بين الإيمان والعمل، والخلق والسلوك.

الفائدة العاشرة: فضل الإحسان إلى المساكين والحضّ عليها.

الفائدة الحادية عشرة: فضيلة الرحمة، وأنَّ الراحمين يرحمهم الله.

الفائدة الثانية عشرة: تقطُّع الأسباب يوم القيامة بالكافرين.

الفائدة الثالثة عشرة: سعة ملك الله وتناوله للمُبصَرات وغير المبصَرات.

الفائدة الرابعة عشرة: إقسام الله بمخلوقاته.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات رسالة النبي ﷺ وبلاغه البلاغ المبين.

الفائدة السادسة عشرة: ثناء الله تعالى على نبيه ﷺ بالكرم.

الفائدة السابعة عشرة: أنَّ إضافة القرآن إلى النبي ﷺ إضافة بلاغ.

الفائدة الثامنة عشرة: تنزيه القرآن العظيم عن الشِّعر والكهانة.

الفائدة التاسعة عشرة: أنَّ ما يُعارض به المفترون القرآن، إما حديث مفترى، وهو سجع الكهان، أو شعر مفتعل.

الفائدة العشرون: إثبات تنزيل القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات علوّ الله تعالى بذاته فوق سماواته.

الفائدة الثانية والعشرون: إبطال الشبهات المتعلقة بالقرآن؛ من المشركين، والمستشرقين، والملحدين.

الفائدة الثالثة والعشرون: دليل بديع من دلائل النبوة.

الفائدة الرابعة والعشرون: عظيم قدرة الله وامتناعه، وعزته، وعجز الخلائق أمامه.

الفائدة الخامسة والعشرون: ذكر الاحتمال الممتنع في مقام المحاجَّة والمجادلة.

الفائدة السادسة والعشرون: اتصاف القرآن بالتذكرة.

الفائدة السابعة والعشرون: اطِّلاع الله على خفايا النفوس، وكمال علمه، وما ينطوي عليه ذلك العلم من التخويف.

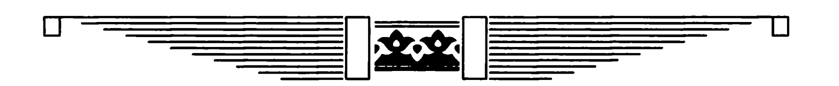
الفائدة الثامنة والعشرون: تحسّر المشركين على التكذيب بالقرآن العظيم، يوم القيامة وما جاء به.

الفائدة التاسعة والعشرون: وصف القرآن بأعلى درجات الثبوت، وهو حقُّ اليقين.

الفائدة الثلاثون: وجوب تنزيه الله عن النقائص والعيوب ومماثلة المخلوقين.

الفائدة الحادية والثلاثون: إثبات اسم الله (العظيم)، وما تضمَّنه من صفة (العظمة).





سورة المعارج

سمِّيت بهذا الاسم لورود هذا اللفظ فيها، وهذه السورة الشريفة ذات مقصدين واضحين:

أحدهما: إثبات المعاد، وبيان أحوال القيامة.

الثاني: بيان صفات الناجين في ذلك اليوم، وهم المصلُّون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج: ١ ـ ١٨].

قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾؛ أي: دعا داعٍ بعذابٍ واقع. وكأنه وقع في الآية تضمين، والتضمين أن يأتي بفعل، ويضمِّنه معنى فعل آخر، وتقديره: استعجل مستعجلٌ بعذابٍ واقع. وقيل: إن الذي سأل هذا السؤال، ودعا بهذه الدعوى، النضر بن الحارث بن كلدة. وإنما نكَّر الله السائل، وأبهمه، تحقيرًا له، فلم يصرح باسمه، ولا وصفه.

واستعجال المشركين بعذاب الله تكرر ذكره في آيٍ كُثر؛ منها

قول الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. فقد كانوا لفرط تكذيبهم، وإنكارهم، وجحودهم، يستبعدون العذاب؛ بل ينكرونه، ويزعمون أن لا بعث، ويتحدُّون النبي ﷺ قائلين: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. وقد حكى الله ﷻ ذلك عنهم في سورة الأنفال، حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، ما أحمقهم! كيف يستعجلون العذاب ويستدعونه؟ وماذا ينتفعون من وراء ذلك؟ وإنما أرادوا إقناع الغوغاء، والدهماء، أنَّ هذا أمر لا حقيقة له، إلى درجة أنهم يستدعونه فلا يقع.

وقد وصف الله تعالى هذا العذاب بأنه واقع، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [الطور: ٧]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات: ٦]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [المرسلات: ٧]. فالله ﷻ أكد وقوع العذاب بمؤكدات عديدة، حتى لا يبقى أدنى ذرة من شكٍّ من تحقق وقوعه.

قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾، لا مدفع لعذاب الله تعالى، ولا مرد له.

قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾، وصف الله نفسه بأنه ذو المعارج، وهو ما فسرته الآية بعدها:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾، فهو ﷻ له الرتب العلا، والعلوُّ المطلق في ذاته، كما أن له العلوّ المطلق في أسمائه وصفاته، وقهره. والعروج هو الصعود، ففي الآية دليل على علوِّه ﷻ، فإن الملائكة تعرج إليه وكذلك الروح.

فعروج الملائكة يكون بصعودها، إذ الملائكة عليهم صلوات الله وسلامه، يصعدون ويهبطون ما بين السماء والأرض، بأمر الله تعالى، إذ هُمُ المنفِّذون لأوامره الكونية.

وأما الروح، فربما كان جبريل عليه السلام كما قال في الآية الأخرى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فمن أسماء جبريل عليه السلام، أو ألقابه، الروح، وهذا أقرب.

ويحتمل أن يراد بالروح جنس الأرواح؛ وذلك أنَّ الأرواح تصعد إلى السمٰوات، كما في حديث البراء بن عازب، وذكر روح المؤمن، فقال: «**فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ - يَعْنِي بِهَا - عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ**».

وقَالَ عن روح الكافر: «**فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:** ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] **فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١] **فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٨٥٣٤).

وقد جاء هذا الوصف (ذو المعارج)، في ذكر التلبيات التي كان يلبي بها الناس، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، أَنَّ سَعْدًا، سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَبَّيْكَ ذَا الْمَعَارِجِ، فَقَالَ: (إِنَّهُ لَذُو الْمَعَارِجِ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا نَقُولُ ذَلِكَ[١]، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته)[٢] لكنه أقرهم، ولم ينكر عليهم.

قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾، هذا يؤيد أن الروح في الآية جبريل؛ لأن هذا الظرف يتعلق بالملائكة، وسيد الملائكة جبريل عليه السلام، ولا يكون ذلك العروج لأرواح العباد.

وقد قيل أقوال متعددة في المراد بهذا التقدير خمسين ألف سنة:

القول الأول: هو المسافة ما بين العرش العظيم، الذي خلقه الله تعالى واستوى عليه، إلى مركز الأرض السابعة. وقد وردت أحاديث كثر في بيان ما بين كل سماء وسماء، وكثف كل سماء، فقال ﷺ: **«هل تدرون كم بين السماء والأرض؟** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **بينهما مسيرة خَمسمائة سنةٍ، وِمن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثَفُ كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحرٌ بين أسَفله وأعلاه كما بينَ السماء والأرض»**[٣].

القول الثاني: هو المدة الفاصلة ما بين قيام الساعة إلى بعث الناس.

القول الثالث: أن مدة الدنيا منذ خلق السمٰوات والأرض إلى قيام الساعة.

القول الرابع: أنه يوم القيامة، وهذا أقرب الأقوال، فإنه يومٌ طويلٌ جدًّا، عسيرٌ على الكافرين، غير يسير، حتى سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ يَوْمٍ كَانَ

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٥٤٩)، ومسلم رقم (١١٨٤).

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٧٧١).

مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَا طُولُ هَذَا الْيَوْمِ؟ فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا**»[١]؛ يعني: كأنه صلاة من الصلوات.

قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾، أمر الله ﷻ نبيَّه بالصبر الجميل، والصبر الجميل: هو الذي لا ضجر فيه، ولا تبرُّم، ولا تأفُّف، فليس كل صبر يكون جميلًا، من الصبر ما يكون صبرًا اضطراريًّا، يصبر صاحبه على مضض، أما الصبر الجميل، فهو الصبر المقرون بالرضا، وحسن الظن بالله تعالى، والاحتساب، كما قال معزيًّا ابنته: «**مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»[٢].

فأمره ﷻ أن يصبر صبرًا جميلًا على أذى المكذِّبين، فإنهم تفننوا في إنكار ما جاء به النبي ﷺ، ومن ذلك أنه (جَاءَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيَبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا. يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ**» قَالَ: فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧﴾ [يس: ٧٧] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ)[٣]، إلى غير ذلك من صور الأذى التي كانوا يجبهون بها النبي ﷺ.

في هذا ملحظ لكل من دعا إلى الله تعالى، فإن الصبر الجميل يهوِّن على صاحبه مصابه، أما الصبر المصحوب بضجرٍ وتبرم، فإنه ثقيل على صاحبه. والصبر من أمهات الأخلاق، ومنزلته من الدين كمنزلة الرأس من الجسد.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١/٥٥٦)، تفسير الطبري: (٢٣/٦٠٢).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٣٧٧)، ومسلم رقم (٩٢٣) واللفظ له.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٣٦٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾؛ أي: أنَّ أولئك المنكرين المكذبين يستبعدونه، ويرونه بعيد التحقق، أما من جهة الرب ﷻ والمؤمنين، فضد ذلك: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾، فإن كل آتٍ قريب، فهو لتحققه وصدق موعوده، يبدو قريبًا. فنظر الكفار نظر قاصر، وتقديرهم للأمور خاطئ، فهم لا يتصورون مساحة هذا الخلق الفسيح، ولا يتصورون المدد الزمانية.

ولما ذكر الله ﷻ هذه المفارقة بين نظر هؤلاء المكذبين، ونظر المؤمنين، وصف ذلك المشهد. ويُلاحظ عناية القرآن بمشاهد القيامة، فإن مشاهد القيامة في القرآن تبسط بسطًا، وتفصَّل تفصيلًا، وكأن هذه الحوادث والأحوال تكتنف القارئ من كل جانب، إن رفع رأسه، وإن طأطأ، تحولات كبرى في السمٰوات، وفي الأرضين، وفي الجبال، وفي الناس، تأمل هذا الوصف المهيب: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمٰن: ٣٧]، والمُهل: قيل: إنه ذائب الفضة، وقيل: دردي الزيت؛ يعني: الزيت العكر، فتتحول هذه السماء الزرقاء، إلى ما يشبه هذا اللون؛ وردة كالدهان، كذائب الفضة، فيتغير لونها ويستحيل، وتصبح باهتة. وهذا تغير اللون، وهناك تغيرات أخرى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة: ١٦].

قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾، هذه الجبال الشاهقة، السامقة، الصلدة، تصبح كالصوف المثار، كما قال ﷻ في سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]. وهذا حال من أحوالها، فإن الجبال يوم القيامة تمر بأطوارٍ شتى، قال الله ﷻ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ [الواقعة: ٥]؛ يعني: فُتِّتت وذرِّيت، وقال في آيةٍ أخرى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]. وقبل ذلك: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، فهذه الجبال تمر يوم القيامة مرَّ السحاب، ولا صحة لما يدَّعيه بعض المعاصرين من أنَّ المقصود بذلك سير الجبال في هذه الحياة الدنيا، بحكم دوران الأرض، إذ الآيات جاءت في صفة يوم القيامة. والمقصود أنَّ الجبال تمرُّ بأحوال متعددة يوم القيامة، إلى أن تصبح قاعًا صفصفًا، والصورة المذكورة في السورة حال كونها كالصوف المنفوش.

قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لا أحد يلتفت لأحد، مهما بلغت درجة قرابته، وحميم صلته، كلٌّ مشغولٌ بنفسه، كلٌّ معني بمصيره، لا يدري أين يساق، و«حميم» نكرة في سياق النفي، فدلت على العموم، فهذا يتناول كل حميم، فكلٌّ يريد النجاة والفكاك، لا أنهم مغيَّبون عنهم، كلا! فقد قال الله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ يعني: يرونهم ويعرفونهم، يعرف أنَّ هذا أخوه، أو أبوه، أو غير ذلك، يعرفون جميع الصلات والقرابات، لكن كلٌّ يتنصَّل عن غيره، كما قال: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾، يبلغ الكرب بالكافر أن يتمنى الافتداء ببنيه وفلذات كبده! نحن في هذه الدنيا، أعز من علينا أبناؤنا، الإنسان يفتديهم بما يستطيع، يتمنى أن يقع المصاب عليه دون بنيه، ويحوطهم، ويمنعهم، ويدفع الغالي والنفيس في سبيلهم. والمجرم يوم القيامة يود، من سويداء قلبه، أن يقدمهم فداءً لنفسه.

قوله: ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ زوجته، خليلته التي كانت أقرب الناس إليه،

يحبها محبة خاصة، ليست كمحبة بنيه، ومع ذلك فإنه مستعد أن يفتدي بها. قوله: ﴿وَأَخِيهِ﴾ أخوه الذي كان يعضده في الدنيا، ويقف إلى جانبه، ويعتزي به، يتنصل منه يوم القيامة، ويستعد أن يفتدي به.

قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾، قيل: هي أمه؛ لأنه انفصل منها، وقيل: قبيلته؛ لأنه واحد منها، ينمى إليها كأنه فصيل من فصائلها، كما يقال: فصيلة كذا. فجميع هؤلاء الأحماء، والأقرباء، والأصدقاء، كلهم كأنما هم في سوق مزاد، مستعد أن يبيعهم، ويتخلى عنهم لينجو.

قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾، لو كل من عليها يقعون فداءً له، لما تردد في ذلك، وذلك لهول العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ١٨]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧]، فهو عذابٌ شديد، قد ألمّوا بشيء من مقدماته، فإن أهل الموقف يجدون من مقدمات العذاب، ما يحملهم على هذا التوجس، ويتذكرون وعيد الله ﷻ، وهم يسمعون حسيسها قبل أن يدخلوها، كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]، وفي الحديث: **«يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»**(١).

فينبغي للمؤمن أذا أمسك بدفّتيْ المصحف، ومرَّت به هذه الآيات التي فيها ذكر القيامة، أن يتدبَّر هذه الأحوال، وإن لم يدرك حقيقتها

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٤٢).

وكيفيتها، لكن يتفكر في أصل المعنى المشترك في الأذهان، فإن هذا يعظ قلبه، ويستلينه، ويداويه. فلا موعظة أبلغ من موعظة القرآن.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾: كلمة قاطعة، حاسمة، لا تبقي مجالًا لرجاء، وتشعر بالتيئيس المطلق؛ أي: لن يكون ذلك، ولن يقع فداء.

قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾، مرجع الضمير إلى النار، وهذا من أسمائها التي هي أعلام وأوصاف، وذلك لتلظيها على أصحابها.

قوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ المراد بالشوى، قيل: جلدة الرأس، وقيل: المقادم، وأطراف اليدين، والرِّجلين، فهي تنتزعه كالذي يأتي باللحم، ويصليه على النار، ثم ينزع منه الشواء.

قوله: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾، لما كان في الدنيا يُدعى فيُدبِر، ويُنادى فيولي، جُوزِيَ يوم القيامة، بالنار التي كان يكذب بها، ويُحذر منها، أنها تدعوه، وتطلبه، كأنما تقول: إليَّ، إليَّ! وقد قال ﷻ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: أنَّ غايته في هذه الدنيا كانت مجرد جمع الحطام، كما وصفه النبي ﷺ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»**[1].

هذا هو حاله؛ مجرد الجمع. فهو جَموع مَنوع؛ يجمع، ويوعي، ويوكي، ولا يبذلها لمستحقها. وهذا يدل على التلازم الوثيق بين الاعتقاد والسلوك، كما تقدم في سورة القلم في صفة المكذب بأنه: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم: ١٢]، وكما في سورة الماعون: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٧]. فلما انطوت قلوبهم على الكفر بالله تعالى، فسدت فطرهم، وتعكرت أمزجتهم، وغلب عليهم الشح، فلا هم أدوا حق الله، ولا هم أدوا حق عباد الله، فلا يصل خيرهم إلى أحد.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٣٥).

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: التنبيه على أسلوب التضمين في القرآن الكريم، وفائدته: أنه يجمع معنيين، المعنى المستفاد من الفعل الظاهر، والمعنى المستفاد من الفعل المضمن.

الفائدة الثانية: جهالة الكفار وحماقتهم بطلب العذاب، وكان لهم سعة في أن يراجعوا أنفسهم.

الفائدة الثالثة: ثبوت العذاب والجزاء، وحتميته.

الفائدة الرابعة: إثبات علوّ الذات بلفظ العروج، والعروج لا يكون إلا إلى أعلى.

الفائدة الخامسة: إثبات صعود الأرواح على أحد القولين.

الفائدة السادسة: سعة أقطار السمٰوات.

الفائدة السابعة: فضيلة الصبر الجميل.

الفائدة الثامنة: اضطراب موازين الكفار ومقاييسهم الزمانية والمساحية والموضوعية.

الفائدة التاسعة: بيان التحولات الكبرى التي تقع في السمٰوات والأرض والجبال يوم القيامة.

الفائدة العاشرة: شدة هول يوم القيامة.

الفائدة الحادية عشرة: تقطُّع الأواصر يوم القيامة، طلبًا للنجاة والافتداء.

الفائدة الثانية عشرة: تيئيس الكفار من النجاة يوم القيامة.

الفائدة الثالثة عشرة: شدة عذاب النار.

الفائدة الرابعة عشرة: مقابلة الإدبار المعنوي في الدنيا، بالطلب الحسِّيِّ في الآخرة.

الفائدة الخامسة عشرة: الاقتران بين الكفر والشح.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٤٤].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، يكشف الله ﷻ طبيعة الإنسان، والله أعلم بمن خلق، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. نجد الله ﷻ، في مواضع من كتابه، يصف النفس البشرية، ويصف طبيعة الإنسان، وصفًا دقيقًا بليغًا، مما يستدعي العناية بهذه المواضع؛ لأنها الأساس الصحيح لما يُسمَّى بـ«علم النفس»، فإن الله ﷻ، خلق الإنسان وركَّبه، وهو سبحانه أدرى بصفاته الطبيعية، وبنيته النفسية، فينبغي أن يكون ذلك أساسًا في معرفة النفس الإنسانية، وانفعالاتها وسلوكها. ولا يقولنَّ قائل علم النفس علم تكوَّن حديثًا على أيدي الغربيين. كلا! علم النفس في كتاب الله، وهو أوثق وأدق وأصدق، فينبغي لأهل الإسلام أن يعوِّلوا عليه، ويستخرجوا الصفات الإنسانية الأساسية، ويتعرفوا على الآفات والاضطرابات النفسية من خلاله.

والمراد بالإنسان هنا، جنس الإنسان، من حيث هو إنسان.

قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾، قد اختُلِفَ في تفسيرها على ألفاظ متعددة، ولا أحسن من تفسير القرآن بالقرآن؛ فالله ﷻ تولى بيان معناها، فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١﴾، فلا مُحوج للبحث عن تفسيرات أُخر؛ أي: إذا أصابته مصيبة، ولحقه ضرر؛ فزع، وضجر، وتبرّم، وإذا أدرك ما يتمنى شحَّ وأمسك، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾... ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ٥١﴾ [فصلت: ٤٩، ٥١]، وأمَّا في حال الخير والسعة، فهذه طبيعة الإنسان، إلا من عصم الله تعالى.

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**شرُّ ما في الرجلِ شُحٌّ هالِعٌ وجُبنٌ خالع**»(١)، وذلك أنَّ أعظم صفات الرجولة: الشجاعة والكرم، فإذا كان الرجل لا يتحلَّى بهذين الوصفين، فذلك نقصٌ في رجولته؛ فالنفس الإنسانية، جَمُوعة منوعة.

فينبغي أن يتخلق المؤمن بأخلاق القرآن، وأن يتخلص مما ذمَّه القرآن، وأن يترقى ويسمو بنفسه عن الجزع، فلا يتضعضع عند أدنى مصيبة، ويُنادي بالويل والثبور، وعظائم الأمور، كحال النساء، والصبيان، وضعاف العقول، ينبغي للإنسان أن يتجلد، ويصبر، ومن يتصبر يُصبِّره الله، والصبر من أمهات الأخلاق، حتى إن أهل الجاهلية يفتخرون به، كما قال الشاعر(٢):

وتجلدي للشامتين أريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع

كذلك أيضًا ينبغي للإنسان أن يتخلص من الشحِّ والإمساك، وأن يعوِّد نفسه على البذل والعطاء، وأن تكون الدنيا في يده، لا في قلبه،

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٢٥١١)، وأحمد رقم (٨٠١٠).
(٢) أبو ذُؤيب الهُذَلي.

فينفق، ويعلم أنَّ الله يُخلفه، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، فإن الصلة بين العبد وربه، تجعل منه خلقًا آخر، فإذا اتصل بربه، استمد منه أسباب القوة، وستر ما يكون فيه من أوصاف دنيئة، وصفات عيب ونقص، كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣]؛ فالإنسان من حيث هو إنسان، يتسم بهذه الصفات السيئة، لكن صلته بالله تعالى، وإيمانه به، وعمله الصالح، يرقِّع هذه الثغرات، فيبلغ من الكمال ما كتب الله له.

والمراد بالمصلين: الذين يقيمون الصلاة، والصلاة الممدوح مقيمها، هي الصلاة التي تصل العبد بربه، لا مجرد القيام، والقعود، والركوع، والسجود، فإنها، وإن سقط بها الطلب، وبرأت بها الذمة، لم يحصل به الأثر المطلوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فالصلاة المطلوبة صلاة القلب والبدن معًا، بمعنى أن يكون القلب حال قيامه، وركوعه، وسجوده، وقعوده، موصولًا بالله ربِّ العالمين، فإذا كان كذلك فإن نفسه تسمو، وترتقي، وتتخلص من آفاتها.

وقد ألهم الله النفس الخير والشر، كما قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]، وأعظم زكاة للنفس، تكون بالصلاة، فإن الصلاة تزكي النفس، وتربيها، وتنفي عنها آفاتها. الصلاة هي الغذاء، وهي الدواء، منها يقتات المؤمن، فكلما كان المؤمن أكثر تعلقًا بالصلاة، وتذوقًا لها، زانت أخلاقه، وطابت نفسه، وكرم طبعه، فهذا كله من بركات الصلاة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، كلمة (دائمون)، تشمل معاني عدة، فمنها: المحافظة على الصلاة، فهم لا يصلون ويخلُّون؛ بل هم دائمون على الصلاة، يحافظون عليها، لا يقطعونها.

ومن معاني قوله: (دائمون)، السكينة؛ أي: أنهم في صلاتهم ساكنون، قارُّون، لا يعبثون، ولا يلتفتون، وهذا المعنى مستعمل لغةً واصطلاحًا، فيقال: الماء الدائم، وهو الماء الساكن الراكد، الذي لا يجري، كما في قوله ﷺ: «**لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَجْرِي، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ**»[(١)].

ويُذكر عن أحد أصحاب النبي ﷺ، أنه كان يحرس ليلة فجاء العدو ورماه بسهم، وهو ماضٍ في تلاوته، فمضى ولم يقطع صلاته، حتى رماه بثانٍ وثالث، فلما أثخنته الجراح وخشي أن يؤتى معسكر المسلمين من قِبَلِه، أيقظ صاحبه. فقال له صاحبه: (سُبْحَانَ اللهِ أَلَا أَنْبَهْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَى، قَالَ: كُنْتَ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا)[(٢)]، وجاء في بعض الآثار أنَّ رجلًا كان يعبث في صلاته، فقال: (لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحهُ)[(٣)].

وقد كان الصالحون يُرى عليهم من السكينة، والخشوع في صلواتهم، ما يتعجب منه الناظر إليهم؛ فيُروى عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه كان إذا سجد، تأتي العصافير وتقع على ظهره، تظنه أصل جدار! لما فيه من الإخبات، والسكينة، وعدم الحركة، ولما حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي، بمكة، كان يُرمى بالمنجنيق، فذهب حجر من أحجار المنجنيق بثوبه وهو يصلي بالبيت، فلم يقطع صلاته! ويحكى عن بعض الصالحين أنه سقط جانب المسجد، وهو يصلي فما قطع صلاته.

قارن هذا بما يقع من كثير من الناس، حين يدخلون في صلاتهم، فيأخذون بالعبث فيما يحملونه، وما يلبسونه، فضلًا عما يشغلهم من الشواغل.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٣٩)، ومسلم رقم (٢٨٢).
(٢) أخرجه أبو داود رقم (١٩٨).
(٣) أخرجه العراقي في طرح التثريب رقم (٢/ ٣٧٣).

وثَمَّ معنى ثالث لدائمون، وهو: المداومة أي: إذا عملوا عملًا داوموا عليه، وهذا من هدي النبي ﷺ، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ)[1]، وقالت: (كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً)[2]، وقال ﷺ: «**وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»[3]، وحذر بعض أصحابه من قطع العمل، فقال: «**يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**»[4].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾، لما ذكر الله تعالى حقَّه في الصلاة، ذكر حقَّ الفقير في المال. وهذا يقابل ما ذكره في طبيعة الإنسان؛ أنه إذا مسه الخير منوعًا، فمن شأن هؤلاء المستثنين أنهم يعطون الفقير حقه، ولا يمنعونه. وحق المال هو زكاته، وبذل النفقات الواجبة. ومن الناس من يُنعم الله تعالى عليه، فيمنع الحق الواجب في ماله، فلا يؤدي زكاته، ولا يُنفق على من تجب عليه نفقته، من ولدٍ أو والد، أو زوج، أو بهيمة، فإن للبهيمة حقًّا على صاحبها أن يعلفها، ولو لم يفعل لأثم.

قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾، السائل: هو الذي يستجدي الناس، والمحروم: هو الذي لا يسألهم، ولا يُفطن، له فيُعطى، فلهذا قيل عنه محروم. لكن هؤلاء المصلين، يعطون من سألهم من أصحاب الحقوق، ويتفقدون من لم يسألهم من الذين ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فالمصلون قد أدّوا حق الله تعالى في الصلاة، وأدوا حق العباد في الزكاة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾؛ أي: أنَّ عندهم يقين بالبعث

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٤٦).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٩٨٧)، وأخرجه مسلم (٧٨٣).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٤٦٤)، ومسلم رقم (٧٨٣)، متفق عليه.
(٤) أخرجه البخاري رقم (١١٥٢)، ومسلم رقم (١١٥٩)، متفق عليه.

والمعاد، خلاف ما عليه المشركون الذين بُعث فيهم النبي ﷺ فأكذبوه، وقالوا: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

والتصديق: قول القلب؛ لأن القلب يتعلق به شيئان: قولٌ وعمل. فقول القلب: تصديقه، ويقينه، وإقراره، وعمل القلب: ما يتحرك به القلب، من النيات والإرادات.

ويوم الدين: من أسماء يوم القيامة؛ لأنه تقع فيه الدينونة، وهي الجزاء والحساب، يُدان فيه الناس، فيُجازى المحسن بإحسانه، والمسيئ بإساءته.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧﴾، الإشفاق عمل القلب؛ لأنه وجل وخشية، كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فوجل القلب وخشيته من عمل القلب، وليس من قول القلب.

وهذا يدل على الارتباط والتلازم، بين تصديق القلب وعمله، فلا يمكن إلا أن يُثمر التصديق عملًا؛ ولهذا قال أهل السُّنَّة والجماعة: «الإيمان قولٌ وعمل»، ومن الأعمال أعمال القلوب، ومنها الخشية، وذلك أنهم إذا ذكروا عذاب الله تعالى، الذي توعَّد به الظالمين، اقشعرت جلودهم، وغشيهم من الخوف والفزع، ما يحملهم على اجتناب معاصيه، فهذا الإشفاق إشفاق إيجابي، يحول بينهم وبين الوقوع في محارم الله تعالى. وما أحوج القلب إلى هذه الخشية.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾، عذاب الله تعالى لا يأمنه من يقدِّر الله حق قدره، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ فالأمن من مكر الله من أكبر الكبائر، فيجب على الإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، كما أثنى الله تعالى على الخُلص المؤمنين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، فلا بُدَّ من تحقيق هذا المعنى في القلب، وهو: الخشية من عذاب الله، وعدم الأمن من مكر الله. لكن من أمنه الله تعالى فهو آمن، قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٢].

وقد قال النَّبيُّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه ﷻ: **«وعزَّتي لا أجمَعُ على عبدي خوفَيْنِ وأمنَيْنِ؛ إذا خافني في الدُّنيا أمَّنْتُه يومَ القيامةِ، وإذا أمِنَني في الدُّنيا أخفْتُه يومَ القيامةِ»**[1]، فربنا ﷻ يُثني على من يخافه ويخشاه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾، الإنسان له أنواع من الشهوات؛ شهوة الطعام، والشراب، والنظر، والسماع، والمال، والشهرة، وغيرها. وثَمَّ شهوة كبرى، وهي شهوة الفرج، فالله ﷻ أثنى على هؤلاء المُصلِّين، بأنهم يحفظون فروجهم، فلا يضعوا شهوتهم في غير موضعها؛ من الزنا، واللواط، وغير ذلك من الطرائق المحرمة والشذوذ. فلما جعل فيهم هذه الرغبة الفطرية، جعل لها مصرفًا، صحيحًا، صالحًا، وهو الزواج والتَّسرِّي؛ فالزوجة من يعقد عليها المرء، عقد النكاح، وأما السُّرِّيَّة فهي من يتملكها بحُرِّ ماله، أو من السبي الحاصل من الجهاد، فبيّن تعالى أن هذين المصرفين، هما المصرفان الصالحان لقضاء الوطر، فلا تلحقهم في ذلك ملامة ولا إثم، خلافًا لبعض الملل والأديان المُحرفة، التي

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٦٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٦٦٦).

تعيب النكاح! فتجد الرُّهبان من الهندوس، والبوذيِّين، يمتنعون عن الزواج، وكذلك أيضًا رجال الكنيسة؛ من الأساقفة، والمطارنة، والشمامسة، وغير ذلك من الرتب الكهنوتية عند النصارى، يمتنعون عن النكاح؛ فالآية تدل على بطلان ما هم عليه؛ لأن الله تعالى قد أباحه، فهو من غريزة الإنسان، وحاجته الفطرية. فدلت الآيات على إباحة النكاح والتسري، ورفع الحرج والملامة فيهما، فهذا من سنن الفطرة، كما قال النبي ﷺ للنفر الذين قال أحدهم: «لا أتزوج النساء» قال: **«وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**(١).

وهذه الآية أصل في تحريم الزنا واللواط، والأنكحة الفاسدة، مثل: نكاح المتعة، بأن يتزوجها إلى أَجلٍ مسمّى، ونكاح الشغار الذي يقع على سبيل المقايضة، بأن يقول: أزَوجك موليتي، على أن تزوجني موليتك، ونكاح التحليل، الذي يعمد فيه المحلِّل أن ينكح امرأة ليُحلها لزوجها الذي طلقها ثلاث طلقات. فهذه ليست أنكحة صحيحة.

ويدخل في التحريم: الوطء في الدُّبر، وحال الحيض، فلا يحِل للرجل أن يطأ زوجته ولا سُرِّيته في الدُّبر، حتى جاء في الحديث: **«مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا»**(٢)، وجاء أيضًا: **«مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»**(٣). وكذلك حال الحيض، لقول الله تعالى ولا تقربوا النساء في المحيض، حتى يطهرن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ فالدم هو الأذى، فلا يحل أن يطأ الإنسان امرأته حال الحيض، فإن فعل فعليه الكفارة؛ دينار أو نصفه، مع التوبة والاستغفار.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (١٤٠١).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٠٢٠٦).

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٠١٦٧)، والترمذي رقم (١٣٥)، وابن ماجه رقم (٦٣٩).

ومن صور عدم الحفظ للفروج: الاستمناء باليد، الذي يُسمَّى في لغة العصر بالعادة السرية، فإنه ليس من مصارف حفظ الفرج.

ويمكن أن نُدخِل في هذا، ما بات يفعله بعض الناس، ويسمِّيه «الزواج بنية الطلاق»، فينشئ سفرًا ليستمتع، ثم يطلِّق، ويعود، هذا خلاف ما أراد الفقهاء الأولون من الزواج بنية الطلاق، وهو أن ينزل الإنسان في بلد لتجارة، أو عمل، يريد أن يمكث ما شاء الله، فيقول في نفسه: أُعف نفسي بالنكاح، فإذا أردت السفر يمكن أن أفارق، ويمكن أن أرتحل بامرأتي. فقد أباحه جمهورهم، ومنعه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه لم ينو الاستدامة. أما ما يفعله بعض السفهاء، من إنشاء سفر من بلده إلى بعض البلدان، لكي يستمتع بنية الطلاق، فقد قال عنه شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا زنا، وهؤلاء زُناة».

ويدخل في حفظ الفروج الأسباب التي تؤدي إلى تحصينها، فيحفظ الإنسان بصره، وسمعه، وفكره، من مقدمات هتك الفروج، فلا يطلق بصره في حرام، ولا يصغي إلى حرام، ولا يفكر في حرام؛ يعني: لا يتقصد التفكير. أما ما هجم على قلبه دون إرادة واستدعاء، فإنه لا يؤاخذ عليه، لقول النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»**[١]، **«ومَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»**[٢]، كما أنه لا يؤاخذ على النظرة الأولى، كما قال النبي ﷺ: **«يَا عَلِيُّ لا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»**[٣]، لكن المحذور هو أن يطلق بصره، فيما حرَّم الله، أو سمعه في الإصغاء، ويرخي سمعه إلى الخنا، والفجور، والعُهر، وغير ذلك من مثيرات

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٠٤٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٦٤)، ومسلم رقم (١٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٧٠١).

الغرائز، أو يُعمل فكره في الحرام. فحفظ هذه الجوارح يدخل في حفظ الفروج؛ لأنها مقدمات وأسباب.

قوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾، فكل ما وراء الزواج الشرعي، والتسري، فهو عدوان، وإن كان يتفاوت، فعدوان الزنا، واللواط، وإتيان البهيمة، ليس كعدوان الاستمناء باليد، ولكنه يشمله لفظ العدوان، ويُستدل به على تحريم هذه الممارسات.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾، من صفات هؤلاء المصلين، أنهم يفون بالأمانة، ولا يخونونها، ويحفظون العهود، ولا يغدرون بها، فعنِ أبي رافعٍ قالَ: (بعثتني قريشٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فلمَّا رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ألقيَ في قلبيَ الإسلامُ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي واللهِ لَا أرجعُ إليْهم أبدًا، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي لَا أخيسُ بالعَهدِ ولَا أحبسُ البُردَ ولَكنِ ارجع فإن كانَ في نفسِكَ الَّذي في نفسِكَ الآنَ فارجع**». قالَ: فذَهبتُ ثمَّ أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فأسلمت)[١]؛ بل إنه جعل إخلاف الوعد من صفات المنافقين، فقال: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[٢]، وفي لفظ: «**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[٣]، تلك صفات المنافقين، ومن وقع فيها من المؤمنين فنفاقه نفاق عملي، فمن شأن هؤلاء المصلين، أنهم يتقون الله تعالى فيفون بالعهود، ويؤدون الأمانات إلى أهلها، ولا يغدرون، ولا ينقضون الميثاق، وهذا من أثر صلاتهم عليهم. ولهذا قال ربنا لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]؛ يعني: القوم الذي بينك وبينهم عهد وميثاق، وخفت غدرهم، فلا تبادئهم

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٣٨٥٧)، وأبو داود رقم (٢٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٣)، ومسلم رقم (٥٩).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٤)، ومسلم رقم (٥٨).

بالغدر، وتغزوهم، ولكن انبذ إليهم على سواء، وقل لهم: العهد الذي بيننا وبينكم انحل، فهذا من الوفاء وحسن العهد.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، يتحمَّلون الشهادة، ويؤدُّونها، فإذا استشهدوا شهدوا، وأدُّوها كاملة غير منقوصة، لا يزيدون فيها ولا ينقصون، كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «**تَرَى الشَّمْسَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أو دَعْ**»(١). ولا يجوز كتمانها، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ومن الناس من إذا استشهد على شيء، أو طلبت شهادته، قال: أنا لا أريد أن أدخل في مشاكل!، الواجب عليه، إذا استشهده الحاكم الشرعي في خصومة أن يؤدي الشهادة كاملة غير منقوصة، ولا يسعه كتمانها.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾، يحافظون على شروطها، وأركانها وواجباتها، وسننها. فالصلاة رأس مالهم، وعمدة عملهم، فهم يعتنون بها، ويُحافظون عليها أشد من محافظتهم على أموالهم.

هذه صفات المصلين الناجين، المستثنين من صفات الهلع والمنع والجزع. ولو تأملت المواضع الأخرى التي وصف الله تعالى بها عباده المؤمنين، لوجدتها متقاربة، أو متطابقة، فتأمل مثلًا في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢] فابتدأ بالصلاة، ثم ختمها بها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩].

وتأمل أيضًا قوله في سورة المؤمنون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، وقال

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٠٤٦٩).

هاهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ سواء بسواء، وكذلك الحال في آخر سورة الفرقان، في ذكر صفات عباد الرحمٰن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] فأتى بالصفات الإيمانية، ثم الصفات المالية، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]، وهنا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾. وقال في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال هاهنا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾، وفي سورة المؤمنون، طبقها.

وكذلك ما ذكر الله في وصف أولي الألباب في آخر سورة آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤].

وهذا يدعونا معشر المؤمنين، إلى أن نولي هذه الأوصاف التي زيّن الله تعالى بها عباده المؤمنين اهتمامنا، فإذا مرت بنا أوصاف المؤمنين في القرآن، فلنسأل أنفسنا: هل نحن من أهلها أم لا؟ ما نصيبنا منها؟ ولا ينبغي للإنسان أن يقرأها ويتجاوزها وكأنما هي خبر مجرد وحسب! طبق هذه الأوصاف على نفسك، وانظر ما حظك من هذه الباقة من الأوصاف الإيمانية، والخلقية، والمالية، والمسلكية فتسعى للتحلي بها، لتنال ثوابها الموعود بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾، جنات، ليست جنة واحدة؛ بل جِنان؛ أعلاها الفردوس، التي هي أعلى الجنة، ووسط الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة، وفوقها عرش الرحمٰن، وفيها من أنواع النعيم، ما لا يخطر بالبال، كما قال سبحانه في الحديث القدسي: **«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ**

عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١].

فالمؤمن تنتهي معاناته بمجرَّد أن تُسلَّ روحه من بدنه، فيدخل في حياةٍ أخرى كريمة. وإذا كان المُكرم هو الله، فماذا تتوقع؟ لو قيل لإنسان: إنك ستكون في ضيافة ملك من ملوك الدنيا، لتوقع أنه سيلقى حفاوة، وإكرامًا وإنعامًا، فكيف إذا كان المُكرم ملك الملوك، ربّ العالمين.

قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾، هذا استفهام إنكاري، وهذه صورة يرسمها القرآن للكفار، المكذبين بالنبي ﷺ، وهو يدعوهم إلى الله، وإلى التصديق بموعود الله، وإلى الإيمان بالقرآن، والبعث ثم هم ينطلقون، ويفرون، يَمنة ويَسرة. فمعنى قوله: ﴿مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: منطلقين، مسرعين، فارين، كما قال في سورة المدثر: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، وكما قال في صفتهم بعد البعث: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]. فتلك صفتهم حينما يدعوهم النبي ﷺ إلى الإيمان، وإلى الحق. وقيل في معناها؛ يعني: يستقبلونك فرقًا فرقًا، متوزعين، ويُكذبونك. و﴿عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾، حال منهم، وهي جمع عِزة، على وزن عِظين؛ يعني: جماعة وفِرقة، فكأنهم حِلق متحلقة حول النبي ﷺ، يرمقونه، ويُكذبونه، ولا يقبلون ما يأمرهم به، ويؤيد هذا المعنى أن النبي ﷺ خرج مرة على أصحابه، وهم حِلق، حِلق، فقال: **«مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ»**[٢]، لكن المعنى الأول أقرب.

فهذه الآية ترسم صورة الكفار وهم نافرين من الحق، ومما يقوله النبي ﷺ وأنهم فِرق وأشتات؛ كما قال الإمام أحمد رحمه الله، في مقدمة

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٤٤)، ومسلم رقم (٢٨٢٤)، متفق عليه.
(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٠٨٧٤).

كتابه في الرد على الجهمية والزنادقة: «فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب». فأهل الأهواء والبدع، ومن سلف وخلف من المشركين، تنطبق عليهم هذه الأوصاف، كلٌّ له رأيه، وطريقته، وهم متفقون على مخالفة الكتاب، وعلى تفرقهم واختلافهم فيما بينهم، إلا أنهم يجمعهم التكذيب بالقرآن.

قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾، هذا سؤال للتعجيب من حالهم! يعني: أيظن أولئك المغرورون، المعْجَبُون بأنفسهم، المكذِّبون بما جئتهم به، أنهم قد ضمنوا الجنة! فيأتي الجواب حاسمًا، قاطعًا لآمالهم:

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: ليس الأمر كما تظنون، فليس لهم إلا العذاب الأليم. ثم ذكَّرهم بأصلهم المهين، الذي يعلمونه، ويعلمه كل أحد، وهو الماء المهين، كما قال ربنا ﷻ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٢٠، ٢٢].

فأصل الإنسان من هذا الماء المهين، فكيف يستكبر ويتطاول، ويُنكر البعث! فتذكيرهم بأصل خلقتهم، أكبر دليل في الرد على إنكارهم للبعث؛ فالذي خلقكم أول مرة، قادرٌ على إعادتكم؛ بل إنَّ خلق السماوات والأرض أعظم من ذلك. كما قال ربنا ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. لكن من كان مطموس البصيرة، على عينيه غشاوة، وفي أذنيه وقر، وعلى قلبه أكنة، لا يقبل الحق.

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾، قال بعض العلماء: (فلا) كلمة ردع لهم، ثم استأنف فقال: ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، ومثلها: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١]، و﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ [البلد: ١]. ولكن الأقرب في توجيه هذه الصيغة، أنَّ المقصود أنَّ الأمر لا يحتاج إلى قسم، الأمر من الوضوح والبيان بمكان، فيكون بهذا التوجيه أدل على المراد.

والله ﷻ هو رب المشارق والمغارب، والمشارق والمغارب جاءت بصيغة الجمع لتعددها، فثم مشارق للشمس، ومغارب، ومشارق للقمر ومغارب، ومشارق للنجوم، ومغارب، ثم هذه المشارق تتعدد بتعدد الأماكن، وتتعدد بتوالي الفصول، فمشارق الشمس في الصيف ليست كمشارقها في الشتاء، وكذا مغاربها في الصيف ليست هو كمغاربها في الشتاء. ناهيك عن بقية الأجرام السماوية؛ فالمشارق والمغارب لا يحيط به وصف، والله تعالى لا يُقسم إلا بمُعظَّم، كما قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥].

قوله: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ جواب القسم. وهو ﷻ صادقٌ بارٌّ من قسم، لكن هذا للتأكيد.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، للمفسرين في هذا قولان:

القول الأول: أن المراد أن نخلقهم خلقًا جديدًا أفضل من الخلقة الأولى. وهذا هو المناسب للسياق؛ لأن الكلام على إثبات البعث، والمجازاة.

والقول الثاني: أن نستبدلهم بقوم آخرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمد: ٣٨]، وهو الذي ذهب إليه ابن جرير الطبري، وقد رجَّح ابن كثير المعنى الأول، لمناسبة السياق؛ لأن الحديث إنما هو عن إثبات البعث، والجنة والنار، وموعود الله بيوم الدين، الذي يتصف المصلون بأنهم يصدقونه، وأنهم منه مشفقون؛ فالسياق يدل عليه.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾؛ يعني: غير معجزين، ولا يسبقنا إليه سابق.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾، في هذا من التهديد والوعيد ما فيه! كأن الله تعالى يقول لنبيه: دعهم! سيجدون غِب أعمالهم، وشؤم

صنيعهم. والخوض الذي يقع منهم: ما يتفكهون به من الكلام الباطل، والتهم الجزاف، التي يطلقونها على النبي ﷺ، وعلى القرآن، فهذا هو الخوض. واللعب: ما يتلهَّون به في دنياهم، من العبث والشهوات.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، هو يوم القيامة، الذي ظلوا يكذبون به. فلا تغتر حينما ترى الله ﷻ، إن الله يمهل للظالم، فإن الله يمهل للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته، وعلى المؤمن أن يحذر من الاستدراج، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتَ اللهَ يُعطِي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراجٌ**، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]»[1].

قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾، الأجداث: هي القبور، جمع جدث، وذلك بعد الصيحة الثانية.

وهذا الوصف هو الوصف الذي وصفهم به في سورة يس بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥١، ٥٢]، وفي سورة القمر، بقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]؛ أي: مسرعين، كأنه يتقفاهم متقفٍّ، ويطردهم طارد، فتنشق عنهم قبورهم، بعد أن يعيدهم الله خلقًا جديدًا، حتى الذي تفرق لحمه في بطون السباع، وحواصل الطير، وأجواف الحيتان، أو صار رمادًا، وينشئه نشأة أخرى. فيقومون لربِّ العالمين، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، ثم يدعوهم الداعي، ويناديهم المنادي، فيخرجون سراعًا، في مشهدٍ مهيبٍ عجيب.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٧٣١١).

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وصفهم الله ﷻ بوصف يمارسونه حين يتوجهون إلى أنصابهم في الدنيا. والأنصاب: جمع نُصب، وهو الصنم، ومعنى (يُوفِضُونَ): أي: يأتونه سعيًا، وربما كان أيضًا، بمعنى: يستلمونه، فكأنهم حينما يخرجون من قبورهم، بهذه السرعة، يشبه فعلهم في الدنيا حينما يأتون إلى أحد هذه الأنصاب التي يعبدونها من دون الله، ويتزاحمون عليها، ويقبلون عليها، ليتمسحوا بها، ويطوفوا بها.

قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، فأبصارهم ذليلة خاشعة، خاضعة، والبصر خلاصة الوجه، والوجه مرآة القلب. لهذا يعبِّر الله تعالى بالوجه وبالبصر؛ لأنه المرآة، والمعيار الذي من خلاله يتبين ما يعتمل في القلب.

قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ أي: تعتريهم ذلة، وانكسار، قال الله ﷻ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، فيا لها من صدمة، يا لها من مفاجأة!

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾، ذلك اليوم الذي كانوا يكذبون به، ها هم الآن يعيشونه، وهو ما كانوا يوعدون في الدنيا.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: عناية القرآن بصفات الإنسان الجِبلية.

الفائدة الثانية: صفة الهلع وتفسيرها، وشموليتها لبقية الأوصاف.

الفائدة الثالثة: ذم الجزع، والشح، وفضيلة الصبر، والبذل.

الفائدة الرابعة: أثر الصلاة في عصمة الإنسان، وخلاصه من آفات النفوس.

الفائدة الخامسة: أهمية الديمومة على الصلاة، والسكينة فيها، وإثبات العمل.

الفائدة السادسة: تحريم ترك الصلاة، وانتقاصها كمًّا وكيفًا.

الفائدة السابعة: بيان حق المال ومستحقه.

الفائدة الثامنة: وجوب الإيمان باليوم الآخر.

الفائدة التاسعة: وجوب الخشية من عذاب الله.

الفائدة العاشرة: خطر الاغترار والأمن من عذاب الله.

الفائدة الحادية عشرة: وجوب العفة، وتحصين الفروج.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب رعاية الأمانات، وأدائها وتحريم الخيانة، وجوب الوفاء بالعهود، وإتمامها وتحريم الغدر.

الفائدة الثالثة عشرة: وجوب تحمل الشهادة، وأدائها وتحريم كتمانها.

الفائدة الرابعة عشرة: وجوب المحافظة على الصلاة، بشروطها وأركانها وواجباتها.

الفائدة الخامسة عشرة: أن صفات المصلين تتعلق بجميع الأقوال والأفعال.

الفائدة السادسة عشرة: التعجيب من حال الكافرين، ونفرتهم من النبي ﷺ.

الفائدة السابعة عشرة: استهجان أماني الكافرين، وغرورهم.

الفائدة الثامنة عشرة: تذكير الكافرين بأصلهم المهين.

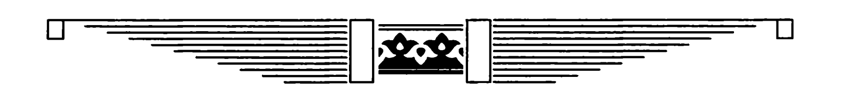
الفائدة التاسعة عشرة: إقسام الله تعالى بما شاء من مخلوقاته.

الفائدة العشرون: كمال قدرة الله تعالى على الخلق والإعادة.

الفائدة الحادية والعشرون: إمهال الكافرين واستدراجهم.

الفائدة الثانية والعشرون: إثبات البعث، وصفته، وبيان حال الكافرين البئيس يوم القيامة.

الفائدة الثالثة والعشرون: تحقق موعود الله تعالى وعدم إخلافه.



سورة نوح

سورة (نوح) ﷺ، سورةٌ أفردها الله تعالى من أولها إلى آخرها في ذكر قصته. ونوحٌ ﷺ من أعظم أنبياء الله تعالى، وهو من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله تعالى مجتمعين، في موضعين من القرآن العظيم:

أحدهما: قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

الموضع الآخر: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧].

وقد احتفى القرآن العظيم بذكر نوحٍ ﷺ، حتى إنه ذكره ثلاثًا وأربعين مرة، في ثمانٍ وعشرين سورةً، وأفرد له سورةً كاملة، هي هذه السورة التي تحمل اسمه.

ونوحٌ ﷺ هو أول أنبياء الله، كما أنه أول المرسلين، ويدل على أوَّلية النبوة قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، فجميع الأنبياء جاءوا بعده، وبهذا يتبين خطأ من ذكر أنَّ إدريس، أو شيث ﷺ، كانا قبل نوح، ودلَّ على ذلك أيضًا حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن الناس يقولون لنوح: «**أنت أول نبيٍ أرسله الله إلى الناس**»، وهو أيضًا أول المرسلين، فإنَّ في بعض رواياتٍ حديث الشفاعة الطويل: «**فإنك أنت أول رسولٍ أرسله الله إلى**

الناس»[(١)]، فتبين بهذا أن نوحًا عليه السلام هو أول الأنبياء وهو أول المرسلين. ومن قال بخلاف ذلك، كما هو مرسوم في بعض المشجَّرات التي فيها ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من جعل شيث، وإدريس قبله، فهو خطأ مخالف للقرآن.

ونوح عليه السلام، في سُلم التفاضل بين الأنبياء، يقع في المرتبة الرابعة، على قول بعض المحققين، فأفضل الأنبياء على الإطلاق محمدٌ ﷺ، ثُمَّ يليه إبراهيم، ثُمَّ موسى بن عمران، ثُمَّ بعد ذلك نوح وعيسى في درجةٍ واحدة.

وهذه السورة لها مقاصد متعددة، يجمعها بيان حال نوح مع قومه، وصبره، على دعوتهم، وعقوبة المكذبين له.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣١٦٢)، ومسلم رقم (١٩٤).

لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ١ ـ ٢٨].

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، التعبير بصيغة الجمع، ﴿إِنَّآ﴾ للتعظيم. وقد كان قومه هم الناس جميعًا إذ ذاك؛ لأنَّ البشرية لم تكن قد كَثُرَت وتشعبت، وتفرقت؛ بل كانوا في موضعٍ واحد.

قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ أي: بأن أنذر، والنذارة هي الإخبار بالخبر المَخُوف، وهو ما سيأتي ذكره.

قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾، العذاب الأليم هو المؤلم الذي توعَّد الله تعالى به المكذبين للرسل، المنكرين للبعث، الناكصين عن امتثال أمر الله وشرعه.

قوله: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾، امتثل أمر الله ﷻ بالنذارة. وينبغي أن يتلبس النبي، والداعي إلى الله تعالى بروح النذارة، حتى أن نبينا ﷺ كان يقول: «**أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ**»[1]؛ لأنَّ النذير العريان، الذي يُنذِر قومه من خطرٍ أحدق بهم؛ يَشقُّ ثوبه؛ ليظهر فداحة الأمر. وكان ﷺ إذا خطب الناس، أو وعظهم، تظهر عليه آثار النذارة؛ كأنه منذر جيش، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم، ولهذا الفعل، ولهذا القول، تأثير بليغ في نفس المخاطب.

قوله: ﴿مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾؛ أي: أُفصح عن مرادي، وأكشف عن دعوتي،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٢٨٣)، ومسلم رقم (٢٢٨٣)، متفق عليه.

لا أتلجلج فيها ولا أغمغم؛ بل أسوقها لكم كما أراد الله تعالى الذي أرسلني، وهذا ملحظٌ مهم؛ وهو أنه يجب على من دعا إلى الله ﷻ أن يكون واضح البيان، وأن يعرِّف مخاطبه ماذا يريد منه، وألَّا يأتي بعبارات فضفاضةٍ موهمة، لا يُفهم المراد منها؛ بل ينبغي أن يكون كلامه فصلًا، حزمًا، قصدًا، يفهمه كل أحد.

قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾: هذه المقاصد الثلاثة، هي التي جاء بها أنبياء الله ورسله أجمعون، وقد ذكرها نوح في غير هذا الموضع، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾ [الشعراء: ١٠٦ ـ ١١٠]؛ فالجامع الذي يجمع أنبياء الله في دعوتهم إلى الله، هو الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، ففي سورة (الأعراف) ذكر الله تعالى نوحًا، ثمَّ هودًا، ثُمَّ صالحًا، ثُمَّ شُعيبًا، وكلهم يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وكذلك في سورة (المؤمنون) و(الشعراء) وغيرهما، وأجمل فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فعلمنا بأن دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده.

قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ يعني: فلا تعبدوا أحدًا سواه؛ لأنَّ مقابل ذلك أمران: إمَّا ترك عبادته، أو أن يعبد معه غيره، وكلاهما منافٍ للعبادة، فمن لم يعبد الله فهو الملحد، ومن عبد مع الله غيره فهو المشرك. ولا تتحقق عبادة الله إلا بالبراءة من عبادة من سواه؛ ولهذا قال في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥).

قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، الأمر بتقوى الله ﷻ من مقاصد الرسالات الإلٰهية، وهو أن يقوم في قلب المؤمن واعظ الله، الذي يمنعه من الوقوع في محارمه، ويحمله على امتثال أوامره، شعورٌ يصحبه في السرِّ والعلن، في الخلوة والجلوة. فالتقوى سرٌّ بين العبد وبين ربه، وهي التي تتحقق بها الكرامة عند الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقد صوَّر بعضهم التقوى تصويرًا بديعًا، في أبياتٍ حسنةٍ جميلة، يقول ناظمها:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرةً إن الجبال من الحصى

وجاء ذلك في بعض الآثار، فقد قَالَ رَجُلٌ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: مَا التَّقْوَى؟ قَالَ: «أَخَذْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ صَنَعْتَ؟ قَالَ: إِذَا رَأَيْتُ الشَّوْكَ عَدَلْتُ عَنْهُ، أَوْ جَاوَزْتُهُ، أَوْ قَصُرْتُ عَنْهُ. قَالَ: ذَاكَ التَّقْوَى»(١).

قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾، لا يمكن أن تتحقق عبادة الله وتقواه إلا باتِّباع المرسلين وطاعتهم، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، فلا إيمان لمن لا طاعة له، ولا طاعة إلا باتباع؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فهذه المقاصد الثلاثة هي خلاصة الرسالات الإلٰهية.

قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، إغراء وترغيب. قيل معناها: يغفر لكم ذنوبكم وأن (من) صلة؛ يعني: أنها لو

(١) الزهد الكبير، للبيهقي (٣٥٠/٩٦٣).

رُفعت لاستقام المعنى، لكن في إثباتها مزيد تأكيد، وقيل: إنها للتبعيض؛ يعني: ما سلف منها، وأمَّا ما تستقبلون فإلى الله تعالى، فيحتمل الأمرين. وقد قال الله لمؤمني هذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]، ولم يقل: (من ذنوبكم)، فدلَّ هذا على أن لوضعها في هذا السياق معنى، فلعلها أُريد بها التبعيض.

قوله: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، هذا هو الإغراء الثاني؛ يعني: يَمُدَّ في آجالكم إلى الأجل الذي قدَّره الله تعالى منذ الأزل. وهذا الأجل لا يعلمه إلا الله، فالله تعالى علم بسابق علمه ما هم عاملون. لكن نوحًا لا يعلم ما قضى الله في الأزل، وإنما علم من سُنَّة الله في خلقه أنهم لو آمنوا لزيد في آجالهم، ودفع عنهم ما يخشونه من عذاب.

قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾؛ فالأجل الذي ضربه الله تعالى لا بُدَّ واقعٌ، لا محالة على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعات، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]، فذكرهم بهذا المعنى الجليل، المهيب، الرهيب.

وبعد هذا البيان الجلي، والنصح الظاهر والخفي، فزع إلى ربه وارتفع إليه يشكو إليه حاله، كمن يُقدم تقريرًا ختاميًّا إلى مرجعه، بعد أن أبلى بلاءً حسنًا، طيلة ألف سنة إلا خمسين عامًا، جرب خلالها جميع أساليب الدعوة؛ سرًّا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، فرادى ومجتمعين، وانتهز جميع الفرص، وتذرَّع بكل سبب، فما آمن معه إلا قليل.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾؛ لأنه ظن، أو وقع في نفسه أنَّ بعض الأوقات أحرى بالإجابة والإصغاء، من أوقاتٍ أُخَر.

قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾؛ أي: نفورًا، وبُعدًا، وهربًا من قبول الحق.

قوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، (كلما)، تدل على التكرار. كان يقرن دعوته بالإغراء والترغيب، كأنما يقول: آمنوا يغفر لكم ما قد سلف.

قوله: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، جمَع الأصابع والآذان باعتبار مجموعهم، فعلوا ذلك، لكيلا يسمعوا الحق.

قوله: ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ التحفوا بها لكيلا يبصروا الداعي. وهذا شأن الكافر العنيد، المستكبر، فإنه ضيق العطن، يُصم أذنيه، ويغمض عينيه، ويغلق جميع المنافذ التي توصل الحق إلى قلبه، فيا لها من حماقة وبَجاحة! وإلا فماذا يضيره أن يُرخي سمعه، ويطلق بصره، ويشرح صدره، ويُعمل عقله؟! لكن فوعة الكبر، والنفس الأمارة بالسوء، التي استحكمت، وتمكنت من قلبه، حملته على هذا الفعل الأحمق الأهوج.

قوله: ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾؛ أي: تعاظموا في أنفسهم، واستنكفوا عن قَبول الحق. وحقيقة الكبر: بطر الحق، وازدراء الخلق. وهذا قد اجتمع في قوم نوح، فأمَّا بطر الحق، فقد جحدوا الحق الذي جاءهم به نبيهم وجادلوا نوحًا ﷺ جدالًا طويلًا، كما حكى الله عنهم: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢﴾ [هود: ٣٢]، ما أحمقهم؟! ملُّوا، وانقطعت حججهم، وفنيت أدلتهم، فاستعجلوا العذاب. وأما ازدراء الخلق فقد وقع منهم أيضًا، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: ٢٧]، فوصفوا أتباعه

المؤمنين، بأنهم أراذل، وسقَطَة، وسُوقة، وأنهم لا فضل لديهم؛ يعني: لا مال لهم، ولا جاه يفضلونهم به؛ ولهذا قال نوح في الرد عليهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٣١]. وقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾، مفعولٌ مطلق مؤكد لعامله؛ أي: استكبارًا بليغًا.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾؛ أي: على رؤوس الملأ، وبين ظهرانيهم؛ لعل الدعوة الجماعية أدعى لقبولهم.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾؛ أي: دعوتهم مجتمعين، وفرادى. وهذا من التنويع في الدعوة الذي سلكه عليه الصلاة والسلام، كما قال الله لنبيِّه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦]، فتارةً يكون الخطاب الفردي مؤثرًا؛ لأنَّ المخاطب يسلم من تأثير الجماعة، وتارةً يكون الخطاب الجماعي أبلغ في قيام الحجة. والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام توسل بجميع الوسائل، وتذرَّع بجميع الذرائع التي يرجو من خلالها قبول دعوته.

قوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، يلاحظ تكرار الحديث عن المغفرة؛ لأنَّ القوم قد أجرموا، ووصفهم الله بألقاب سوء يستحقونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: ٦٤]، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات: ٤٦]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٧]، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: ٥٢]. فجميع صفات السوء مجتمعة فيهم، فلأجل هذا كان يكرر عليهم الأمر بالتوبة، وطلب والمغفرة ويغريهم بقبولها.

والاستغفار: هو طلب المغفرة، والغفر: هو الستر والتجاوز، ومنه سُمي المِغفر الذي يكون على الرأس، ويسمَّى الخوذة لأنه يستر الرأس ويقيه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾، من أسمائه الحسنى الغفار؛ يعني: كثير الغفر، فهو غفور وغفار، وغافر، كلها أسماء لله. وقد كان نبينا ﷺ كثير الاستغفار، حتى قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[1]، فما أحوجنا إلى الاستغفار.

ثم عدد لهم نوح عليه السلام، الثمرات العاجلة، والآجلة للاستغفار، فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ١١﴾، فتَصُبّ عليكم المطر صبًّا، كما يدرُّ الضرع. ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾؛ أي: يُكثِّر أموالكم ونسلكم.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾؛ أي: بساتين محدقة بكم.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ١٢﴾؛ أي: مياهًا سارحة، تجري من تحت أقدامكم.

وهذا كله في الدنيا، ولا ريب أنَّ هذا الإغراء حق، فهذه سُنَّة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فمن عاجل ثواب الله للمؤمنين المتقين، أن يوسع عليهم في أرزاقهم، ويبارك لهم في أموالهم، فإن هم انتكسوا ونكصوا عن أمر الله تعالى، عوقبوا بالقحط، والجدب، والآفات المختلفة، كما وقع للأقوام السابقين، وربما استدرجوا حينًا من الدهر، ثم جرت عليهم سُنَّة الله الكونية، كما قال تعالى عقيب الآية السابقة: ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٦ ـ ٩٩].

ودلَّت هذه الآية على أنه لا حرج أن يستغفر العبد ربه بنية تحصيل أمر من أمور الدنيا، فقد ظن بعض الناس أنّ من استغفر الله بنية حصول

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٣٠٧).

الولد، أو بنية قضاء الدين، أو بنية حصول الرزق، أن ذلك منافٍ للإخلاص، وأنه نوعٌ من الشرك! هذا غلط؛ لأنَّ المستغفر يتقرب إلى الله؛ يرجو ثوابه، ويخشى عقابه، ويتوسل باستغفاره. فلا حرج أن يقصد الإنسان بذكره، ودعائه، وعبادته، أن ينال شيئًا من فضل الله تعالى في الدنيا والآخرة. فقد أغراهم نوح بذلك، بمعنى أنهم لو فعلوا هذا بهذه النية، فلا تثريب، عليهم، ولا حرج.

ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، وقال ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**»(١)، كما أنَّ الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، توسَّلوا إلى الله بصالح أعمالهم؛ توسل أحدهم ببره بوالديه، والثاني بعفته وتقواه، والثالث بأمانته. فإذا صحت النية الأولى لم يضر بعد ذلك ما يحصل للإنسان من ثوابٍ عاجل، ولا يقدح ذلك في عمله.

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾، يُعجِّب من حالهم، ويُحرك البليد من أذهانهم، وينعى عليهم ضعف توقيرهم لربهم، وإجلاله، وتعظيمه، فلو كان في قلوبهم إجلالٌ وتعظيمٌ لله ما وقعوا في الشرك، والمعاصي.

قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾، يُذكرهم بأصل خلقتهم؛ وتدرّجهم من نطفة من ماءٍ مهين، ثم إلى علقة، ثُم إلى مضغة، حتى صار جنينًا، ثُم خرج من بطن أمه رضيعًا، ثُمّ ترقَّى في الخلق، فسوَّاه، وعدَّله، في أي صورة ما شاء ركَّبه. فهو يستدل بدلائل الربوبية، على ما يجب عليهم من العبودية. ثُمَّ نقلهم من الآيات النفسية، إلى الآيات الآفاقية، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾؛ أي: سرِّحوا

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٣٢١)، ومسلم رقم (١٧٥١)، متفق عليه.

أبصاركم في قبة الفلك، وتأملوا هذه السماوات السبع الطباق، التي بعضها فوق بعض كيف خلقها الله، ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾؛ أي: زينهنّ بهذا القمر المضيء، الذي ينير أرجاء السماء، كما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١].

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾، والسراج: يجمع وصفين: الإضاءة والدفء؛ ولهذا قال في آيةٍ أخرى: ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣]، أما القمر ففيه إضاءة، لكن دون إضاءة الشمس؛ لأنه يعكس نورها فقط، ولا دفأ فيها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾، كما قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، فالله تعالى خلق أبانا آدم من تراب الأرض؛ من أبيضه، وأسوده، وأحمره، وسهله، ووعره، وجعل فيه الماء، فصار طينًا، ثم يبس فصار صلصالًا كالفخار، ثُمَّ نفخ فيه من روحه، فاستحال خلقًا جديدًا. فمادتنا وأصل خلقتنا مستمدةٌ من تراب الأرض، ثُمَّ يعمرنا الله تعالى فيها، فنأكل من ثمراتها، ونشرب من مائها، ثُمَّ نموت ونقبر، فنعود إلى أمنا الأرض، وتتحلل أجسادنا فيها، ونعود ترابًا، كما كنا. حتى إذا أَذِن الله تعالى بالبعث مرةً أخرى، أمر الله تعالى مكوِّنات كل بدن أن تلتئم وتجتمع؛ حتى الذي تفرق لحمه في بطون السباع، وحواصل الطير، وأجواف الحيتان، والذي احترق وصار رمادًا، يعود جميعًا، وينشئه الله خلقًا آخر. قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: ﴿نَبَاتًا﴾ و﴿إِخْرَاجًا﴾، مفاعيل مطلقة تؤكد عاملها، وقوله:

أنبتكم نباتًا يدل على جواز أن يأتي المفعول المطلق مصدرًا على خلاف فعله؛ لأن (أنبت) رباعي؛ فالمتبادر إلى الذهن أن يقول: (إنباتًا)، وهذا سائغٌ في اللغة وشواهده كثيرة.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾، لفت انتباههم إلى الخصائص الأرضية، وهو أنَّ هذه الأرض جعلها الله تعالى مبسوطةً ممهدةً للسير عليها، والحرث، والزرع، والتنقل، والسفر، كما قال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦﴾ [النبأ: ٦]، وهذا أمرٌ مشاهدٌ، وهي مِنَّةٌ عظيمةٌ من الله ﷻ.

قوله: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾، سبلًا: جمع سبيل؛ أي: طرقًا واسعة، الفجاج: المراد بها الطرق الواسعة، وهي الجواد الكبيرة، التي يحصل بها التنقل، وحمل الأمتعة، وغير ذلك من المنافع التي يدركونها.

والمقصود أنَّ من طريقة نوح عليه السلام، وأسلوبه في الدعوة إلى الله ﷻ، توظيف دلائل الربوبية المبثوثة في النفس والآفاق، في السماء والأرض؛ لبيان ما يستحقه الرب تبارك وتعالى من العبودية. فهل يُعقل أن الذي ركّب الكون على هذه الصفة، خلقه عبثًا، لا لغاية ولا لهدف؟ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فقد حاول، عليه الصلاة والسلام أن يحيي قلوبهم الميتة، وعقولهم البليدة، لكنه قُوبِلَ بالعصيان فرفع شكواه إلى ربه قائلًا: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾، وهم الكبراء، والرؤساء، والزعماء، أصحاب الأموال الطائلة، والأولاد الشهود، الذين يتباهون بهم في المجالس. هذه محصِّلة دعوته طيلة تسعمائة وخمسين سنة، ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا. والظاهر أن الخمسين الأولى هي السنوات التي قبل النبوة؛ لأنَّ الله تعالى يبعث الرجل على رأس أربعين سنة من عمره،

فعمره كله في الدعوة إلى الله تعالى. فتمخض الجهد بعد كل هذا عن هذه النتيجة: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠].

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ۝٢٢﴾؛ يعني: فوق ذلك الكفر والعصيان، اتخذوا جميع الطرق الكيدية، ونفَّروا الناس مني، ومن دعوتي. و﴿كُبَّارٗا﴾ صيغة مبالغة من الكِبَر؛ يعني: أنها أحابيل، وطرق متفننة في الصد عن سبيل الله. وأوصى بعضهم بعضًا:

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»(١).

ثم جاء عمرو بن لُحي الخزاعي، وكان له رئي من الجن، فقال له: ايت ضفَّ جدة، تجد أصنامًا معدَّة، فأوردها تهامة ولا تهب، وادع العرب إلى عبادتها تجب. فدله على موضع عند سِيف البحر، فكشف عن هذه الأصنام واستخرجها، ثم بثها في قبائل العرب، فكان عند كل قبيلة من قبائل العرب صنم من هذه الأصنام. ثم إنه ذهب إلى بلقاء الشام، واستحضر «هبل» وجعله في مكة(٢).

هكذا وقع الشرك في بني آدم، فإن مرجعه **إلى أمرين**: الغلوَّ في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٢٠).
(٢) كتاب الأصنام، للكلبي (ص٥٤).

الصالحين، واتخاذ الصور والتماثيل. **فالغلوّ في الصالحين** جرّهم إلى الوقوع في الشرك، ودعاء غير الله. وبهذا يتبين لنا خطورة ما يفعله بعض السدنة والضُّلَّال، من تعظيم المقبورين، والأولياء، والمغالاة فيهم، حتى أنهم يعلقون قلوب العوام بهم، أعظم من تعلقهم بربهم، والله تعالى يقول: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يعني: إذا كان أولئك الصالحون يبتغون إلى ربهم الوسيلة؛ يرجون رحمته، ويخافون عذابه، فافعلوا فعلهم، وارجو ما يرجون، وخافوا ما يخافون، ولا تتقربوا إليهم، فإنكم إن فعلتم ذلك، فلا فرق بينكم وبين المشركين القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. زين لهم الشيطان هذه الشبهة، وقال: أنتم متلطخون بالمعاصي والذنوب، ولا سبيل لكم أن تدخلوا على الله، وتصلوا إليه إلا عن طريق هؤلاء الوسائط، كما أنَّ الملك لا يُدخل عليه إلا عن طريق الوزير، والحاجب، فهكذا أنتم لا تستطيعون أن تصلوا إلى الله إلا عن طريق هؤلاء الأولياء، فادعوهم، فدعوهم وعبدوهم فوقعوا في الشرك.

فيجب على الإنسان أن يضبط الأمر؛ فيحب الصالحين، ولا يغلو فيهم، حتى ولو كان نبينا ﷺ، فإنه، بأبي وأمي، قد قال: **«لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ»**(١)، ولما دخل عليه وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ، قالوا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: **«السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»** قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: **«قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»**(٢).

والسبب الثاني للوقوع في الشرك: **الصور والتماثيل**؛ لأنَّها تجعل

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٣٥٢٩)، وأبو داود رقم (٤٨٠٦).

الجُهَّال، والسُّذَّج، يتعلقون بها، ويعتقدون أنها تجيب دعاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥]، وهي أصنامٌ من خشب، أو حجر، أو خزف، أو غير ذلك، مما يعملون.

فلهذا جاءت النصوص الشرعية بالتحذير من التصوير، والتصاوير، وقال النبي ﷺ: **«إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»**(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعًا: **«مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»**(٢). وعنه أيضًا: **«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ»**(٣).

فالتصوير المحرَّم أن يأخذ الإنسان القلم ويخطط، ويرسم ويضاهي خلق الله، أو يأخذ مطرقةً وإزميلًا وينحت تمثالًا على شكل إنسان، أو طير، أو حيوان، هذا من أعظم الذنوب والكبائر، فيجب الحذر منه، والقضاء عليه. عن أَبِي هَيَّاجٍ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: (بَعَثَنِي عَلِيٌّ، قَالَ لِي: أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ)(٤)، فطمس التماثيل والصور من أوجب الواجبات.

قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ﴾، مرجع الضمير إمَّا إلى هذه الأصنام، أو إلى الداعين لعبادتها. ولا مانع من الأمرين لأنَّ إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. فهذه الأصنام والمعبودات حصل بها إضلال كثير من الناس؛ هلكوا،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٥٥٨)، ومسلم رقم (٢١٠٨)، متفق عليه.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٦٣)، ومسلم رقم (٢١١٠).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٤٢).
(٤) أخرجه أحمد رقم (١٠٦٤)، وأبو داود رقم (٣٢١٨)، والترمذي رقم (١٠٤٩).

واستحقوا الخلود في النار بسببها. وتحتمل أنَّ الإضلال صَدَرَ من الذين نصبوها، ودعوا إلى عبادتها.

قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾، وأيّ ظلمٍ أعظم من الشرك كما قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]. دعا عليهم. وها هنا مبحثٌ مهم. هل يُدعى على المخالف، أم يُدعى له؟ والتحقيق: أنه في مواضع يُدعى له، وفي مواضع يدعى عليه؛ فإذا كان في مبدأ الأمر، ويرجى إيمانه، فإنه يُدعى له، كقول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[١]، وقوله لملك الجبال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[٢]، فإذا تمحَّضوا للكفر، وأصروا، واستكبروا استكبارًا، فإنهم يُدعى عليهم. وقد دعا عليهم نوح عليه السلام بعد أن استنفد جميع الوسائل في استصلاحهم.

قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾، (مما): أي: بسبب خطيئاتهم التي أعظمها الشرك، ثُم الفسق، أُغرقوا، وذلك أنَّ الله ﷻ أمر السماء فانفتحت كأفواه القِرب، وأمر التنور ففار؛ فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِر، إثر ثلاث كلمات فقط، دعا بها نوح عليه السلام، ربه، وقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٢]، فما زال منسوب الماء يرتفع على سطح الكرة الأرضية، والناس يفرون يمينًا وشمالًا، يركضون نحو الهضاب والجبال، حتى إنَّ نوحًا أبصر ابنه الكافر في هذه المعمعة، فحملته عاطفة الأبوة أن يناديه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٧٧).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٣١)، ومسلم رقم (١٧٩٥).

قوله: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، عجيب! غرق ثم حرق.

قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾، أين أولياؤهم؟ أين من يدعونهم من دون الله؟ اضمحلوا، وذهبوا، ولم يغنوا عنهم شيئًا.

قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾، يعني: يدور ويمشي، ويتنقل بين الديار؛ أي: لا تبق أحدًا، واستأصلهم جميعًا.

قوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾، هكذا وجد، وهكذا اطرد، بعد هذه المدة الطويلة، وبهذا أخبره ربه من قبل: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

قوله: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، بدأ بنفسه، وثنَّى بأقرب الناس إليه، وهما والداه، ثُمَّ ثلَّث بخاصته وأصحابه، ثُمّ ربَّع بعموم المؤمنين والمؤمنات، ونرجو أن نكون منهم، وأن تعمَّنا دعوته.

قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾؛ يعني: هلاكًا وخسارًا.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: رحمة الله بعباده بإرسال الرسل.

الفائدة الثانية: بعثة الرسل في أقوامهم. كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، حتى لا ينفر منه ويقال دخيل، غريب.

الفائدة الثالثة: التلطف في الدعوة بذكر آصرة النسب.

الفائدة الرابعة: النذارة ركنٌ في دعوة المرسلين، كما البشارة.

الفائدة الخامسة: أهمية الوضوح في الخطاب الدعوي، والإفصاح عن الأهداف.

الفائدة السادسة: أنَّ دعوة الأنبياء تهدف إلى تحقيق العبادة، والتقوى، والاتباع.

الفائدة السابعة: البشارة والإغراء بالثواب العاجل والآجل.

الفائدة الثامنة: سبق القدر بالآجال، وعدم تخلّفه بحال.

الفائدة التاسعة: فزع الداعية إلى ربه وبثّه شكواه إليه.

الفائدة العاشرة: اجتهاد نوح ﵇ في دعوة قومه، وصبره على إعراضهم.

الفائدة الحادية عشرة: التنويع في الدعوة في الأوقات، وانتهاز جميع الفرص.

الفائدة الثانية عشرة: غلظ كفر قوم نوح، وشدة نفرتهم، وضيق عَطَنهم.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ الكافر محجوب، معطَّل الحواس، بسبب كفره وعناده.

الفائدة الرابعة عشرة: أنَّ الكبر قرين الكفر، كما أن التواضع قرين الإيمان.

الفائدة الخامسة عشرة: التنويع في الخطاب والانتقال من السِّرِّ إلى الجهر، ومن الجهر إلى السِّر.

الفائدة السادسة عشرة: فضيلة الاستغفار، وجميل آثاره.

الفائدة السابعة عشرة: الاستدلال بتوحيد الربوبية، على توحيد الألوهية.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات اسم الله الغفار، وما تضمّنه من صفة المغفرة.

الفائدة التاسعة عشرة: جواز الاستغفار وغيره من القربات لتحصيل ثواب الدنيا والآخرة.

الفائدة العشرون: أنَّ الاستغفار من أعظم أسباب نزول الغيث، وحصول الرزق والولد.

الفائدة الحادية والعشرون: وجوب إجلال الربِّ سبحانه وتوقيره.

الفائدة الثانية والعشرون: فضيلة التفكر في ملكوت السماوات والأرض.

الفائدة الثالثة والعشرون: إثبات البعث، والتدليل عليه.

الفائدة الرابعة والعشرون: تفويض الداعية أمره إلى الله إذا استنفد الوسائل.

الفائدة الخامسة والعشرون: شؤم التقليد، والاتباع الأعمى للسادة والكبراء.

الفائدة السادسة والعشرون: فتنة المال والولد، وكونها من أسباب الطغيان والخسران.

الفائدة السابعة والعشرون: تفنن الكافرين المكذِّبين في مواجهة دعوة المرسلين.

الفائدة الثامنة والعشرون: تواصي المكذِّبين بالباطل وتشبُّثهم بموروث الأسلاف.

الفائدة التاسعة والعشرون: حصول الضلال بسبب الأصنام وعابديها.

الفائدة الثلاثون: الدعاء على الظالمين المتمحِّضين للكفر.

الفائدة الحادية والثلاثون: أنَّ أخذه سبحانه أليمٌ شديد.

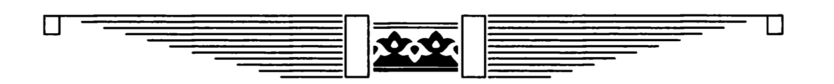
الفائدة الثانية والثلاثون: شؤم الكفر والذنوب والخطايا على مرتكبيها.

الفائدة الثالثة والثلاثون: التعليل في طلب الدعاء.

الفائدة الرابعة والثلاثون: بداءة الداعية بوالديه، وأهل بيته، وخاصة أصحابه، وعموم المؤمنين.

الفائدة الخامسة والثلاثون: أثر دخول البيت في تقوية المودة والصلة.

الفائدة السادسة والثلاثون: مشروعية الدعاء على أعداء الله، وعدم النكير بدعوى الدعاء لهم بالهداية.



سورة الجن

سورةٌ عظيمة، سمِّيت بهذا الاسم لأنَّ سبب نزولها استماع الجن للنبي ﷺ؛ ولأنَّ معظم آياتها تتعلق بهم، وبحكاية أقوالهم رحمهم الله، ورضي عنهم.

مقاصد السورة:

تضمَّنت هذه السورة التي لا تبلغ ثلاثين آية، مقاصد عظيمة منها:

- بيان حقيقة القرآن، وعظمته، وحفظه.
- بيان طبيعة الجن، وطرائقهم، ونفي الخرافات المتعلقة بهم.
- بيان التوحيد، بأنواعه الثلاثة.
- بيان وظيفة النبي ﷺ.

وهي سورة مكية، ذات تأثير عجيب، وموعظة بليغة. وأذكر أني قرأت قديمًا، قصة رجلٍ من المنصِّرين، كان يعمل في مصر ضمن إرساليةٍ من الإرساليات التنصيرية، وكانت مهمَّته تشكيك المسلمين في دينهم، وكتابهم، ونبيهم، يقول: تساءلت من أين أدخل على المسلمين؟ كيف أشككهم وأوهن ثقتهم بدينهم؟ يقول: فنظرت في فهرس المصحف، فإذا من سور القرآن سورةٌ اسمها سورة الجن، فقلت: هذا مدخلٌ مناسب؛ القرآن يتضمن ذكر الخرافات والعفاريت، فسأتخذ من هذه القضية مدخلًا للتشكيك، وعزمت أن أسهر ليلتي تلك في الكتابة في هذا الموضوع، انطلاقًا من هذه السورة التي تتحدث عن الجن والعفاريت، هكذا خُيِّل إليَّ.

يقول: فلما كان من الليل وتهيَّئت، وتفرَّغت، فتحت المصحف، وإذا بي أقرأ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾، وأنه، وأنه، الآيات!

يقول: فداخلتني رهبةٌ شديدة وخشوع، وانهمرت عيناي بالدموع، وتأثرت تأثرًا بليغًا بمعانيها الإيمانية، وآياتها الجزلة الرصينة، فأسلمت!

أسلم من جرَّاء قراءة هذه السورة، لما وجد فيها من المعاني العظيمة، والمقاصد الجليلة! فالقرآن يعلو ولا يُعلى عليه. أراد أن يفسد دين المسلمين، وأن يشككهم بقرآنهم من خلال هذه السورة، فأبى الله إلا أن تأسره هذه السورة، وتكون سبب إسلامه. وصار بدلًا من كونه يبشر بالنصرانية، صار يدعو إلى الإسلام، وكتب قصته في كتاب. فتبارك الله ربّ العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٩].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، هذا خطابٌ، وأمرٌ للنبي ﷺ، وفي هذا دليلٌ على أن جميع «القواقل» من ألفاظ القرآن، وليست خارجةً عنه، كما أُثِر عن بعضهم أنه كان يقرأ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق: ١]،

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، ولا يذكر (قُل)، والصحيح أنَّ هذه القواقل جزءٌ من سورها، ومن ألفاظ القرآن.

وليس لهذا التعبير نظيرٌ في القرآن! لكن لما كان الحدث مستغربًا غير مألوف؛ أن يخبر الله عن سماع جنٍّ لإنس، أراد الله تعالى أن يؤكد صحة الإسناد ووثوقيته، فأمر نبيه بأن يقول: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾؛ فالنبي ﷺ مثله مثل عامة الآدميين؛ لا يرى الجن، ولا يسمعهم، ولا يخاطبهم، لكن الله تعالى أخبره باستماعهم إليه، وتأثُّرهم بقراءته.

قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾: فرقٌ بين السماع والاستماع، والزيادة في المبنى، زيادة في المعنى؛ يعني: أنهم أرخوا أسماعهم قصدًا. فالسماع أمرٌ قهري، فمن سمع كلامًا دون قصد فهو سامع، ومن قصد السماع فهو مستمع. وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ فالإنصات والاستماع معناهما متقارب؛ فالإنصات يقتضي الإمساك عن الكلام الذي يشوِّش على السمع، فإن الإنسان لا يتم له الاستماع والإدراك، حتى ينصت ويمسك عن الكلام، بخلاف من يقرع الصوت طبلة أذنه ويكون ذلك منتهاه. وقد ذمَّ الله تعالى قومًا يستمعون القرآن والذكر، فلا يأبهون به، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦].

قوله: ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، النفر جماعةٌ دون العشرة، وهذه الآية وغيرها تدل دلالةً قطعية على وجود الجن، فإن بعض الماديين، والملاحدة، ينكر ما لا يراه، فينكر الغيبيات، ولا يؤمن إلا بالماديات. فمن أنكر وجود الجن فقد أكذب القرآن، ومن أكذب القرآن فقد كفر.

فلا ريب أن الله تعالى خلق الجن والإنس، قال ربنا ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالجن قسيم الإنس،

نحن وإيَّاهم نعمر الأرض، لكن الله تعالى جعل الله لنا خصائص وأوصاف، وجعل لهم خصائص وأوصاف، فنحن لا نراهم، وهم يروننا، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وكل من ادعى أنه رأى جنًّا، أو رسم صورةً للشيطان، فهو متهوكٌ، لا صحة لدعواه. ولكن قد تتلبس الجن ببعض الحيوانات؛ كالقطط، والكلاب، والحيّات، كما أخبر النبي ﷺ، فعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْجِنُّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ كِلَابٌ وَحَيَّاتٌ، وَصِنْفٌ يَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ يَحُلُّونَ وَيَظْعَنُونَ**»[1]. أمَّا الجن، بصفته التي خلقه الله عليها، فإن الآدميين لا يرونهم.

فلا بُدَّ من الاعتقاد الجازم بوجود الجن، وأنهم خلقٌ من خلق الله، مكلَّفون، مأمورون، منهيُّون، مثابون، معاقبون، تجري عليهم أحكام الشريعة. والراجح أنه ليس فيهم رسل ولا أنبياء، ولكن فيهم نُذُرٌ ودعاة، كما قال ربنا ﷻ في آيةٍ أخرى تصدِّق هذه الآية وتشابهها: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]. ففيهم نُذُر، وهم مطالبون باتباع نبي زمانهم.

وقد وقع في الفترة بين زمن عيسى عليه السلام، وزمن نبينا ﷺ، إرهاصات لبعثة نبينا ﷺ، منها: أن السماء صارت ترمي بالشُّهُب على مسترقي السمع من الجن، إذ أن من خصائص الجن التمكن من الارتفاع في أجواز السماء، واتخاذ المقاعد فيها، واستراق السمع.

وكان بين الجن وبين الكهنة صلة، فكانوا يسترقون السمع من

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، برقم (٦١٥٦)، وإسناده قوي، وصححه الألباني في «المشكاة» برقم (٤١٤٨).

السماء ويلقونه في أُذن الكاهن، فيخلطها الكاهن بتسع وتسعين كذبة، ويدخل فيها هذه الكلمة التي التقطها من مسترق السمع، ويُحدث بها، فإذا وقع الحق الذي بلغه، قال الناس: أليس قد قال يوم كذا، كذا وكذا، فيروج سوق الكهان. وقد حذر النبي ﷺ من إتيان الكهان، والعرَّافين، وقال: (**من أتى كاهنًا أو عرافًا فقد كفر بما أُنزل على محمد**)[١]؛ لأنهم يستعينون بالجن ويدَّعون علم الغيب.

قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾، هؤلاء النفر استمعوا سماع من يبحث عن الحق وينشده، فلما حصل منهم هذا التكيف، وهذا الإنصات، والاستماع، أطلقوها صريحةً مدوية، فوصفوا القرآن بالعجب، إي والله! إنه لقولٌ عجيب، قولٌ عظيم، قولٌ مهيب. إن مجرد سماعه، لمن شرح الله صدره، وأنار بصيرته، يهز أركانه، ويحرك أشجانه، وينقله إلى معانٍ ساميةٍ راقية. ليس كسائر الكلام، ليس كسجع الكهان، ولا كنظم الشعراء، ولا كخطب الخطباء؛ بل هو نوعٌ متميز في نظمه، ولفظه، وأعظم من ذلك معناه.

ومما ورد من الآثار المروية في استماع الجن إلى النبي ﷺ، حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، قَالَ: (مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ، وَمَا رَآهُمُ. انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٠١٦٧)، والترمذي رقم (١٣٥)، وابن ماجه رقم (٦٣٩).

نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ بِنَخْلَةَ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ، اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ)[١].

وروى الإمام أحمد أيضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ الْجِنُّ يَسْمَعُونَ الْوَحْيَ فَيَسْتَمِعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلًا، وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلا رُمِيَ بِشِهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلا مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الْأَرْضِ)[٢].

قال ابن كثير: (وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قِصَّةَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ، وَإِبَائِهِمْ عَلَيْهِ. فَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطُولِهَا، وَأَوْرَدَ ذَلِكَ الدُّعَاءَ الْحَسَنَ: **«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي»** إِلَى آخِرِهِ. قَالَ: فَلَمَّا انْصَرَفَ عَنْهُمْ بَاتَ بِنَخْلَةَ، فَقَرَأَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فَاسْتَمَعَهُ الْجِنُّ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ. وَهَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ: «إِنَّ الْجِنَّ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ»، فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْجِنَّ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ فِي ابْتِدَاءِ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٧٣)، ومسلم رقم (٤٤٩)، متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٤٨٣)، والنسائي في الكبرى رقم (١١٦٢٦)، والترمذي رقم (٣٣٢٤).

الْإِيحَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورُ، وَخُرُوجُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ، إِلَى الطَّائِفِ كَانَ بَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ، كَمَا قَرَّرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ. وَاللهُ أَعْلم)[١].

وهذا يدل على أنَّ استماع الجن وقع أكثر من مرة؛ بل الأحاديث الأخرى تدل على أنَّ مجيء الجن إلى النبي ﷺ تكرر. ومن ذلك، ما رواه الإمام أحمد عن علقمة، قال: قلت لعبد الله بن مسعود، هَلْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟ فَقَالَ: مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ، وَلَكِنَّا قَدْ فَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقُلْنَا: اغْتِيلَ؟ اسْتُطِيرَ؟ مَا فَعَلَ؟ قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ ـ أَوْ قَالَ فِي السَّحَرِ ـ إِذَا نَحْنُ بِهِ يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَكَرُوا الَّذِي كَانُوا فِيهِ، فَقَالَ: **«إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ»**، قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانِي آثَارَهُمْ، وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ قَالَ: وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: سَأَلُوهُ الزَّادَ، قَالَ ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ: قَالَ عَامِرٌ: فَسَأَلُوهُ لَيْلَتَئِذٍ الزَّادَ، وَكَانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ، فَقَالَ: **«كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ، أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ، فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ»**[٢].

وفيه، أيضًا، أنَّ عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: **«مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ الجنّ اللَّيْلَةَ فَلْيَفْعَلْ»**. فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، خطّ لي برجله خطًّا، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كبيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٠)، ت: السلامة، ط: دار طيبة.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٥٠)، والترمذي رقم (٣٢٥٨)، وأحمد رقم (٤١٤٨)، واللفظ له.

صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق متبرّزًا، ثم أتاني فقال: «**وما فَعَلَ الرَّهْطُ؟**» قلت: هم أولئك يا رسول الله، فأخذ عظمًا أو روثًا أو جمجمةً فأعطاهم إياه زادًا، ثم نهى أن يستطيب أحد بعظمٍ أو روث[1].

قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، أعجب ما في القرآن هدايته للرشد! لما فيه من المعاني العظيمة، الجليلة. ليس أعظم ما في القرآن ما يحصل به من التطريب للآذان، هذا أحد آثاره، فإن القرآن تحلو تلاوته، ويحلو سماعه، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ٤]، وفي الحديث: «**زيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم، فإنَّ الصوتَ الحسنَ يزيدُ القرآنَ حُسنًا**»[2]، لكن ما هو أعظم من ذلك بكثير، تدبُّر ما فيه من المعاني الجليلة، الشريفة، القيمة، التي بها انثلاج الصدور، وطمأنينة النفوس والقلوب، والهداية للرشد. والرشد: الحق والصواب، وهو ضد الغيّ، والغيّ: هو الضلال والسَّفه.

قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، هذا هو الأثر المباشر للاستماع الحق، فأولى درجات العلم هي الاستماع، فمن لا يستمع، ولا ينصت، لا يتعلم؛ ولهذا قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧]، فإذا أردت أن تنتفع من المواعظ والعظات، والعلوم النافعات، فافتح قلبك، وألق سمعك، لكي تحصل الذكرى؛ فالأُذن منفذٌ إلى القلب، فلا بُدّ من إرخاء السمع، والإنصات، والإقبال لكي يستقر المعنى. ولهذا نهى النبي ﷺ يوم

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري معلّقًا قبل حديث رقم (٧٥٤٤)، وأخرجه موصولًا أبو داود رقم (١٤٦٨)، والنسائي رقم (١٠١٥)، وابن ماجه رقم (١٣٤٢)، وأحمد رقم (١٨٥١٧) مختصرًا، والحاكم رقم (٢١٢٥) واللفظ له.

الجمعة أن يقول الرجل لصاحبه: أنصت، وقال: «**إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ**»[1]، فلا ينتفع بالموعظة، وبذكر الله في خطبة الجمعة، إلا من استمع وأنصت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فلا يحصل ذكر الله في القلب، إلا بإنصات الأذن، وعدم التشاغل؛ فحصل لهؤلاء النفر المؤمنين نعمة عظيمة، بمجرد أن سمعوا الحق، فأعلنوا إيمانهم، وتوحيدهم ونبذهم للشرك.

لقد أدركوا بمجرَّد سماعهم للقرآن حقيقة التوحيد، وأنَّ هذا الكلام لا يمكن أن يصدر إلا من مستحقٍّ للعبادة وحده دون ما سواه؛ لأنه كلامٌ مميز، ليس ككلام المخلوقين، فلا بُدَّ أن يكون قائله هو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، هكذا استنبطوا، لله دَرَّهم! فقالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، وأحد: نكرةٌ في سياق النفي، فتفيد العموم؛ يعني: كائنًا من كان.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: شأنه وأمره وفعله، وجلاله وآلاؤه، وقدرته ونعمه، كل هذه الألفاظ قال بها السلف، ابن عباس وغيره. فاستنبطوا، بمجرد سماعهم للقرآن، أنَّ قائله حقيقٌ بالتعظيم.

قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾، من لازم وحدانيته نفي الصاحبة، أي: الزوجة، والولد؛ لأنه لا يليق بالواحد الأحد أن يكون له زوجة ولا ولد؛ لأن من شأن الزوجة أن تكون من جنس زوجها، ومن باب أولى الولد. وهذا يتنافى مع الوحدانية؛ فالواحد الذي لا مثيل له، ولا ندَّ له، ولا كفء له، ولا نظير له، لا يمكن أن يكون له صاحبة، ولا أن يكون له ولد. هكذا صحح الإيمان عقولهم.

وربما دعاهم إلى التنزيه، رحمهم الله، ورضي عنهم، لكون هذه

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٩٣٤)، ومسلم رقم (٨٥١).

المقالة شائعةً في الإنس والجن، فقد ذكر الله لنا مقالة اليهود والنصارى، فقال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠]، وذكر مقالة المشركين، أنَّ الله اتخذ زوجةً من الجن أنجبت له الملائكة، ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [الزخرف: ١٥]، زعموا أن الملائكة بنات الله! فهذه المزاعم كلها تتنافى مع تعظيم الربّ تعالى جَده، سبحانه وبحمده. قال الله تعالى نافيًا هذه الدعوة الباطلة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

هكذا قادهم الإيمان والتوحيد إلى تعظيم الربّ ﷻ وإجلاله، وخشيته، ومحبته. وذلك أنَّ التوحيد الصحيح، التوحيد الصِّرف، التوحيد المجرد، يُثمر في القلب هذا التنزيه، تنزيه الله عن النقائص والعيوب ومماثلة المخلوقين.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝٤﴾، سفيه الجن هو إبليس، وإبليس من الجن كما قال الله ﷯: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقيل: أنَّ المقصود بالسَّفيه هنا اسم جنس؛ يعني: كل من سَفه نفسه من الجن؛ أي: وقع في الطيش، والعجلة، والنزق، والقول بلا علم فهو سفيه، فقد كان سفيههم يقول على الله شططًا، والشطط: هو الجَور، والقول الباطل.

فلعل في هذا إشارة إلى أن بعض الجن كانوا يقولون كما يقول بعض الإنس بالولد، والزوجة لله، تعالى الله عما يقولون، لكن هؤلاء المؤمنين الذين وقر الإيمان في قلوبهم، وذاقوا حلاوته لما آمنوا تبرَّؤوا من هذه المقالة، ونفوها، وذموها، ووصفوا قائلها بالسَّفه.

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾؛ أي: أننا حسبنا أنه لا يصدر من الإنس، ولا من الجن، خبرٌ عن الله مخالفٌ للواقع، لكن الأمر لم يقع على حسبانهم، فقالت الجن والإنس كذبًا على الله ﷻ، فاستعظموا ذلك، رحمهم الله، ورضي عنهم. وكل هذه الجمل المتتالية تكشف وتفصح عن هذا الإيمان الدفَّاق، النابع عن يقينٍ ورسوخ، وفرح بالحق الذي كانوا ينشدونه.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾، يحكون أمرًا كان عليه مشركو العرب، وهو الشرك في الاستعاذة. ومعنى: ﴿يَعُوذُونَ﴾؛ أي: يلتجئون ويفزعون إليهم، ويعتصمون بهم. قال الحسن، ويروى عن ابن عباس قريبًا من هذا المعنى: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به، قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه[1]؛ يعني: يستعيذ بسيد الوادي من الجن، أن يصيبه في نفسه، أو ولده، أو ماله ضر، من جهة أتباعه. فيعوذ بغائبٍ، غير مشاهد، فهذه استعاذةٌ شركية.

ولهذا عقد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التوحيد»، بابًا بهذا العنوان، باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله)، وذكر هذه الآية، وذكر فيه حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبي ﷺ قال: **«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»**[2]. فهذا بديلٌ عن مقالة أهل الشرك الذين يستعيذون بغير الله ﷻ، فمن استعاذ بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، أمَّا من استعاذ بغير الله، فيما يقدر عليه ذلك المستعاذ به، فلا حرج عليه، كأن يقول رجل يلحقه عدوه، لرجل: عذتُ بك، أو أعوذ بك، فلا بأس

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٤).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٧٠٨).

بذلك، هذه استعاذةٌ جائزة، وقد قال النبي ﷺ: «**يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ**»[١]؛ يعني: يعتصم رجل بالكعبة. ومثلها الاستغاثة، إذا كانت من قادرٍ عليها فليس فيها شيءٌ من الشرك، قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

فالاستعاذة الشركية: هي ما يصدر من بعض المشركين قديمًا وحديثًا؛ يستعيذون بالجن، أو بالملائكة، أو بالأولياء، أو المقبورين، من مخاوف متنوعة، أن يصيبهم أحدٌ بسوء، وهؤلاء المدعوون لا يملكون لأنفسهم، فضلًا عن غيرهم، ضرًّا ولا نفعًا، فكانت استعاذتهم بهم استعاذةً شركية.

ودلَّت الآية على أنَّ في الجنِّ رجالٌ ونساء؛ وهذا هو الواقع، فإنهم يتكاثرون ويتناسلون كما يتكاثر ويتناسل الآدميون، وقال بعض الشراح في تفسير قول النبي ﷺ عند دخول الخلاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ**»[٢]، أنَّ الخُبُث هم ذكور الجن، والخبائث إناثها، وإنما عبر بالاستعاذة بالرجال؛ لأن الرجل أقوى من المرأة.

قال: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾، للمفسرين في مرجع الضمير قولان: فقال بعضهم: أي: زاد الإنسُ الجنَّ طغيانًا، وإثمًا، واستطالةً، لما رأوا الإنس يعوذون بهم، ويفرقون منهم، ويفزعون، فانتفشوا، وتعاظموا، وتكبروا على الإنس. وقال آخرون: أي: زاد الجنُّ الإنسَ رهقًا، وعنتًا، ومشقةً، وإذلالًا.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فإن هذه الاستعاذة الشركية أدَّت إلى حصول الأمرين، أدَّت إلى طغيان الجن، وانتفاشهم، وأدَّت إلى حصول الرَّهق، والعنت، والمذلة للإنس.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٨٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٤٢)، ومسلم رقم (٣٧٥)، متفق عليه.

قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾، للمفسِّرين في المراد بالبعث هنا قولان:

القول الأول: البعث بعد الموت، فشابه كفرة الجن كفرة الإنس في إنكار البعث.

القول الثاني: بعثة الرسل، فظن الجن أنَّ الله تعالى لن يبعث نبيًّا، وأن سلسلة الأنبياء قد انقطعت. وهذا هو الأليق بالسياق.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ يعني: تحسَّسنا السماء وعسَسناها. وذلك أنَّ من شأن الجن أنهم يطيرون في أجواز الفضاء، ويصلون إلى السماء الدنيا، فكانوا يتخذون مقاعد يسترقون فيها السمع، ففوجئوا بحدثٍ جديد؛ أنَّ السماء باتت محروسة، مصونة، محفوظة، منيعة! وصاروا يتعرضون للقصف والرجم بالشهب والنيازك التي تحرقهم.

قوله: ﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾، حرس من ملائكة الرحمٰن، وشهبٌ تنطلق نحوهم وتحرقهم، كما قال ربنا: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ١ ـ ٣]، فلاحظوا كثرة الشُّهب في تلك الآونة التي زامنت بعثة نبينا ﷺ.

ومن الأخبار في ذلك ما قاله السُّدِّي: لَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ تُحْرَسُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ نَبِيٌّ، أَوْ دِينٌ للهِ ظَاهِرٌ. وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَدِ اتَّخَذَتِ الْمَقَاعِدَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، يَسْتَمِعُونَ مَا يَحْدُثُ فِي السَّماءِ مِنْ أَمْرٍ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيًّا، رُجِمُوا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي،

فَفَزِعَ لِذَلِكَ أَهْلُ الطَّائِفِ، فَقَالُوا: هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ، لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّةِ النَّارِ فِي السَّمَاءِ، وَاخْتِلَافِ الشُّهُبِ، فَجَعَلُوا يُعْتِقُونَ أَرِقَّاءَهُمْ، وَيُسَيِّبُونَ مَوَاشِيَهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ يَالِيلَ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ: وَيْحَكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الطَّائِفِ! أَمْسِكُوا عَنْ أَمْوَالِكُمْ، وَانْظُرُوا إِلَى مَعَالِمِ النُّجُومِ، فَإِنْ رَأَيْتُمُوهَا مُسْتَقِرَّةً فِي أَمْكِنَتِهَا، فَلَمْ يَهْلِكْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، وَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَرَوْهَا، فقد أهلك أَهْلُ السَّمَاءِ. فَنَظَرُوا فَرَأَوْهَا، فَكَفُّوا عَنْ أَمْوَالِهِمْ[1]. فاستنبط أنَّ هذا الحفظ، والصيانة، والحراسة؛ لأجل بعثة النبي ﷺ، وكانوا ينبزون النبي ﷺ بهذا اللقب.

والمقصود أنَّ الجن لاحظوا هذه الظاهرة المصاحبة لبعثة نبينا ﷺ وهي الرمي بالشُّهُب؛ لأنّ الله تعالى أراد أن يحفظ وحيه، وكتابه، فلا يختلط كلام الله تعالى، بكلام غيره، ولا يسترق، ولا يخطفه الجن فيوحونه إلى الكهان.

قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾، يصفون حالهم السابق، أنهم كانوا يتخذون المواقع، والمقاعد التي يسترقون فيها السمع، فقد حيل بينهم وبين ذلك.

وبالجملة، فإنه يجب علينا أن نقتصر على ما دل عليه الكتاب والسُّنَّة من خبر الجن، ولا نصغي إلى ما يتناقله العامة من خرافات، وقصص لا تثبت، كقول العامة: الجن يحبون كذا وكذا، الجن يكرهون كذا وكذا، الجن ينفرون من كذا وكذا! هذه مجرد ظنون ودعاوى، وعلينا أن نعتقد ما دل عليه القرآن؛ أنَّ الجن خلقٌ من خلق الله، وأنهم عبادٌ مُكلَّفون؛ مأمورون منهيون، مثابون معاقبون، وأن منهم من يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار، فمؤمنهم يدخل الجنة، وكافرهم يدخل النار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الآيات لاحقًا.

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٨)، ط. إحياء التراث.

وعلى المؤمن ألَّا يعتقد، ولا يستصحب شيئًا من هذه الخرافات، وعليه أن يحذِّر ذويه، وأهله، وأولاده من كل فكرةٍ باطلة، لا سيما في هذا الوقت، الذي انتشرت فيه الخرافات عن طريق الوسائط، والمقاطع المرئية، حتى بات كثيرٌ من أطفال المسلمين يتخوَّضون، ويتوهَّمون، جرَّاء ما يشاهدونه من خرافاتٍ وحكايات، تلعب بعقولهم، وتعكر أمزجتهم، وتصيبهم بالذعر والرُّهاب.

وقد عقد ابن القيم في طبقات المكلفين، من كتابه: «طريق الهجرتين» ذكر الطبقة الثامنة عشرة، طبقة الجن، وذكر من خصائصهم، وحقائقهم، ما ينبغي أن يكون عليه المعوَّل، ولا يُلتفت إلى ما سواه مما يتحدث به الناس، ويتداولونه من مرويَّاتٍ وخرافات.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أنَّ القواقل من ألفاظ السور، وحروف القرآن، وليست زائدةً عنه.

الفائدة الثانية: التأكيد على الأمر غير المألوف.

الفائدة الثالثة: الفرق بين السماع والاستماع.

الفائدة الرابعة: أنَّ المشروع عند سماع القرآن الاستماع والإنصات، بغرض التدبُّر، ولا يكتفي بمجرد التطريب والتلذذ بأداء المرتِّلين، وإن كان هذا حسنًا ومقصودًا.

الفائدة الخامسة: إثبات وجود الجن، وسماعهم من الإنس، فمن أنكر الجن فقد كفر.

الفائدة السادسة: أنَّ الجنَّ عالمٌ غيبي، خلقٌ من خلق الله، مُكلَّفون؛ مأمورون، منهيُّون، مثابون، ومعاقبون، إلا أنَّ لهم خصائص تختلف عن خصائص الإنس.

الفائدة السابعة: عموم رسالته ﷺ للإنس والجن.

الفائدة الثامنة: كمال عقول هؤلاء النفر، وصحة إيمانهم.

الفائدة التاسعة: فضيلة القرآن، وعظيم أثره في النفوس.

الفائدة العاشرة: أنَّ أعجب ما في القرآن وأعظمه هو الهداية للرشد.

الفائدة الحادية عشرة: أنَّ مقتضى الاهتداء هو الإيمان المستلزم للقول والعمل. فلا يكفي مجرد الإقرار القلبي واللساني؛ بل لا بُدَّ أن يستتبع ذلك عملًا؛ فالإيمان قولٌ وعمل.

الفائدة الثانية عشرة: أنَّ الرشد نقيض الغي، وأعظم الرشد التوحيد، وأعظم الغي الشرك.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ مجرد سماع القرآن يُثمر التوحيد، والعلم بألوهية قائله سبحانه.

الفائدة الرابعة عشرة: تعظيم شأن الربّ، وأمره، وفعله، وآلائه، وجلاله، وقدرته، ونعمه.

الفائدة الخامسة عشرة: تنزيه الرب عن الصاحبة والولد، وأنه مقتضى التوحيد.

الفائدة السادسة عشرة: الرَّدّ على مدَّعي البنوة والزيجة، من المشركين، واليهود، والنصارى.

الفائدة السابعة عشرة: أنَّ الإيمان والتوحيد يثمر التنزيه والتعظيم.

الفائدة الثامنة عشرة: أنَّ السفه والطيش يُثمر المقالات الباطلة الجائرة.

الفائدة التاسعة عشرة: تشابه الإنس والجن في المأثم والمغرم، كما في البر والمغنم.

الفائدة العشرون: بيان شرك الاستعاذة، وهو طلب العوذ من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الفائدة الحادية والعشرون: أنَّ الخوف من غير الله يورث الرهق للمستعيذ، والمستعاذ به.

الفائدة الثانية والعشرون: تشابه كفار الجن والإنس في إنكار البعث والنبوة.

الفائدة الثالثة والعشرون: تمكُّن الجن من بلوغ السماء، واتخاذ المقاعد لاستراق السمع.

الفائدة الرابعة والعشرون: حراسة السماء بالشُّهُب والرجوم، فترة تنزُّل الوحي.

الفائدة الخامسة والعشرون: توجُّس الجن من وقوع حدث في الأرض لتشديد الحراسة في السماء.

الفائدة السادسة والعشرون: حفظ الله لوحيه وكتابه.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ **[الجن: ١٠ ـ ٢٨]**.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾، لما تبيَّن للجن أنَّ السماء محفوظةٌ مصونة، وأنهم معرَّضون للقصف بالشُّهب، شعروا أن ثَمَّ أمرٌ سيقع في الأرض؛ إمَّا أمر خيرٍ أو شر، فهذا الذي دعاهم أن يذهبوا بعثاتٍ في أرجاء الأرض، ليتحرُّوا الخبر.

ومن الفوائد اللطيفة: كمال أدب مؤمني الجن، وذلك أنهم أضافوا الشرَّ إلى ما لم يسمَّ فاعله، فقالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، وأضافوا الخير إلى الاسم الظاهر، فقالوا: ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾، فإنَّ الشر لا يُضاف إلى الله، وإن كان خالق كل شيء. فلا يضاف إليه ما لا يليق به ﷻ، كأن يقول مثلًا: يا خالق الجعلان، والخنافس، والقردة، والخنازير، وإن كان هو خالقها، لكن لا يفردها بالذكر، فتوهم معنًى مستكرهًا. وينبغي أن تضاف الأفعال غير المستحبة إلى الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، فنسب الإنساء إلى الشيطان.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ١١﴾، وصفوا جماعتهم وفئتهم بأنهم طوائف، وطرائق، وفرق، وأوزاع، متفاوتون في الصلاح، ففيهم الصالحون الممتثلون لأمر الله، المجتنبون لنهيه، ومنهم دون ذلك؛ وهم الفسَّاق، كحال الآدميين مذاهب شتى.

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾، ﴿ظَنَنَّآ﴾ هنا بمعنى أيقنا؛ أي: اعتقدنا اعتقادًا جازمًا لا مرية فيه، أنه لا مفرَّ من الله، لا في الأرض، ولا في السماء، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ٣٣﴾ [الرحمٰن: ٣٣]، فقد أيقنوا أنه لم يعد بمقدورهم، وأنَّ الله ﷻ محيطٌ بهم.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣﴾، هذا منهم، رحمهم الله، اغتباط بنعمة الله عليهم،

وتحدُّث بها، وليس من قبيل المباهاة والمفاخرة. وهو خبر مطابق للواقع، فقد آمنوا بمجرد سماع القرآن، وأدركوا أنَّ المؤمن لا يخشى أن ينتقص من ثوابه وأجره، ولا يخشى أن يلحقه عنتٌ وشقاء، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]، قال ابن عباس: تضمَّن الله لمن قرأ القرآن، واتَّبع ما فيه، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، هذه وعود من الله ﷻ، والله لا يخلف الميعاد.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، عاد التقسيم مجددًا، وكأن القسمة السابقة باعتبار المسلمين خاصة؛ ففيهم صالحون، وفيهم فسَّاق، وهذه القسمة باعتبار الإيمان؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فكما أنَّ هذا واقعٌ في الآدميين، فهو واقعٌ أيضًا في الجن. والمسلمون: هم المتصفون بالإسلام، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. والقاسطون: هم الجائرون المائلون عن الإيمان والاستقامة، بخلاف المقسطين، فهم العادلون كما قال ﷺ: **«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ»**[2].

قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: احتاطوا لأنفسهم، وتوخوا الرشد في حالهم ومآلهم.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/٣٨٩).
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٢٧).

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾، هذا يدل على أنَّ الجن يُعذَّبون في النار، كما يُعذَّب الإنس، وإن كانوا قد خُلقوا من نار، لكن النار التي خُلِقوا منها ليست بشيء بالنسبة إلى نار جهنم، قال ربنا ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، ولفظ الناس يشمل الإنس والجن، كما في سورة (الناس).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»(١). وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ لَجُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْء مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَأَنَّ السَّمُومَ الْحَارَّ الَّتِي خَلَقَ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا الْجَانَّ لَجُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»(٢).

قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦﴾، قد اختلف المفسرون في المراد بالطريقة فقيل: إن المراد بالطريقة الإسلام، والهدى، فلو استقاموا عليها لكافأناهم وجازيناهم بأن نرسل السماء عليهم مدرارًا فيشربونه ماءً وافرًا، هنيئًا، مريئًا، ويوافق هذا قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّي، وآخرون.

وذهب بعض المفسِّرين، ومنهم لاحق بن حُميد رحمه الله: إلى أنَّ المراد بالطريقة: الضلالة؛ أي: لو استمروا على ضلالتهم لأسقيناهم ماءً غدقًا، فتنةً لهم، كما قال الله ﷻ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وقول الله ﷻ:

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٦٥)، وأخرجه مسلم برقم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٠٤).

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، فيكون هذا من باب الاستدراج، كقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾، على القول بأنَّ المراد بالطريقة هي الإسلام والهدى والاستقامة؛ أي: لنختبرهم ونبتليهم، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾ [النمل: ٤٠]، فلا غرابة، ولا غضاضة في أن يكون هذا واردًا على عموم الناس، ما دام واردًا في حق نبيٍّ من أنبياء الله. وعلى القول الآخر؛ أي: ليكون لهم لهوًا ومتاعًا، كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

قوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾، من يعرض عن ذكر ربه، فلا يقيم له وزنًا، ولا يجعل خشيته نصب عينيه؛ بل يقع في الغفلة المطبقة، التي دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وتأمل كيف أردفها الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فالعلم بالله هو الذكر. أما الغفلة الطارئة، فإنها تعتري المؤمنين، فيدركهم فتورٌ وسهو.

فالغافلون الذين يملئون المُدرَّجات، والميادين، والساحات، ويأكلون ويشربون، ويتفكهون، ولا يرعون لله حقًّا، فهؤلاء أحط من الأنعام؛ لأنهم عطلوا ما متعهم الله وأمدهم به من أدوات التفكير، والتعقّل، والذكر، فقد توعَّدهم بقوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أليمًا، شديدًا، مهينًا، متعاظمًا، وكأن في كلمة (صعدًا) ما يدل على التنامي، وأنه في ازديادٍ مستمر، لا يُفتَّر عنهم. وقيل: أنَّ (صعدًا) بمعنى

(صعودًا)، وهو جبلٌ يرتقيه في النار، فيهوي من ذروته إلى قاعه، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ١٧]، وقيل: بئرٌ في جهنم. والمقصود أنه عذابٌ أليمٌ شديد.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، هذا هو التوحيد النقي، الخالص من الشَّوب. والمراد بالمساجد: إما بيوت الله تعالى المبنية، التي يُسجد لله تعالى فيها، فهي محل العبادة، فأمروا بإخلاص العبادة لله فيها وعدم الشرك، وإمَّا أن المراد بالمساجد: أعضاء السجود، كقول النبي ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الجَبْهَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»**(١)، ولا تعارض بين المعنيين، والقاعدة: صحة حمل الآية على أكثر من معنى صحيح، على وجهٍ لا تعارض فيه.

فالسجود لله، فلا يجوز أن يُشرك معه أحدٌ في العبادة، كما أنَّ الدعاء من أجلى مظاهر العبادة؛ لأنَّ حقيقة الدعاء افتقارٌ، وانكسارٌ، واضطرار إلى الله ﷻ، وهذه هي العبودية، وقد جاء في الحديث الصحيح: **«الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»**(٢)، وفي حديثٍ فيه مقال: **«الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»**(٣)، والله تعالى يجعل هذا بدلًا من هذا، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: دعائي؛ لأنَّ الدعاء هو العبادة.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾، عبد الله: نبينا ﷺ، حيث أضافه الله إليه إضافة تشريف؛ فالعبودية كمال،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨١٢)، ومسلم رقم (٤٩٠).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٨٣٩١)، وأبو داود رقم (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه رقم (٣٨٢٨).

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٨٣٥٢)، والترمذي رقم (٣٣٧١)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

وأكمل الناس عبودية الخليلان: إبراهيم، ومحمد، عليهما صلوات الله وسلامه؛ فلهذا، وصفه الله تعالى بالعبودية في أشرف مقاماته: في ليلة الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وفي حالة تنزُّل القرآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وفي حالة الدعوة إلى الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، فالوصف بالعبودية لله شرف عظيم، وشرف الإنسان بمقدار عبوديته لله.

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيَّرت أحمدَ لي نبيًّا

وربما كان هذا من تمام كلام مؤمني الجن، يصفون ما جرى لهم مع النبي ﷺ، وربما كان خبرًا من الله ﷻ. فنبينا ﷺ لما قام يدعو ربه ﷻ بوادي نخلة، أو في موضع في سوق عكاظ، ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾؛ أي: كاد يركب بعضهم بعضًا، لشدة حرصهم، وانجذابهم لسماع ما يقرؤه النبي ﷺ، فيترادفون؛ ليكونوا أقرب إليه، ويستمعوا إلى ما أُنزل عليه. وقيل: إنَّ هذا وصفٌ من مؤمني الجن لأصحاب النبي ﷺ، وأنه إذا قام يدعو، ويصلي، فإن أصحابه يلتئمون حوله، وينضمون إليه؛ حتى يزحم بعضهم بعضًا.

وثَمَّ قولٌ ثالث في هذه الآية، ذكره ابن جرير رحمه الله، ومال إليه، وهو أنَّ المشركين لما قام رسول الله ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله، أرادوا أن يصدُّوه عن دعوته، وأن يطفئوا نور الله تعالى، ويمنعوه من إبلاغ وحيه. وعزز هذا المعنى كما قال ابن كثير رحمه الله، قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾. فكأنَّ هذه الجملة ردٌّ على فعلهم الذي فعلوه. والأقرب، والله أعلم، أنَّ هذا وصفٌ لحال الجن، وأنَّ الجن بحكم خِلقتهم الطيارة، يركب بعضهم بعضًا، لحرصهم وتشوفهم لسماع ما أُنزل على النبي ﷺ.

ثم جاءت سلسلة من الآيات لتبيِّن مقام النبوة، ووظيفة النبي، وحدوده، وتقضي على كل تعلقٍ شركي، وتبين حقيقة النبي، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾، إنما: أداة حصر، حصرت الدعاء له وحده، دون ما سواه، بوصفه الربّ، المستحق للعبادة.

قوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾، جمع بين النفي والإثبات حتى يتم التوحيد الخالص، كما في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فإنها نفيٌ وإثبات. وشواهد هذا كثيرة. وهذا يدل على وجوب إعلان البراءة من جميع صور الشرك؛ قليله وكثيره؛ لأنَّ (أحدًا) نكرةٌ في سياق النفي، فدلَّت على العموم.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾، النبي ﷺ يَطَّرِح بين يدي ربه، ويبرأ من ادعاء خصائص الربوبية، من الضر والنفع، فأين أولئك الذين يدعونه كما يدعون الله ﷻ! فكيف بمن دعا من دونه؟ وقد امتثل ﷺ أمر ربه، فقال على جبل الصفا: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**»[١].

قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: ملجئًا وملاذًا، ومعاذًا.

قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾؛ يعني: لا شيء، سوى إنني مبلِّغٌ عن الله تعالى ما أمرني به، فوظيفتي هي الرسالة، فما أنا إلا بشرٌ مثلكم لا أملك شيئًا من خصائص الربوبية، ولا حقوق الألوهية، غير أني أبلغ رسالات ربي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [فصلت: ٦]. وقيل: إن تقدير الكلام: لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ إلا أن أقوم بالبلاغ فأنجو.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٥)، ومسلم رقم (٢٠٥)، واللفظ له.

قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، هذا يدل على أنَّ العصيان، كغيره من الألفاظ، ينقسم إلى أصغر وأكبر؛ فالعصيان المذكور هنا هو العصيان المطلق، لا مطلق العصيان. فليس كل عصيانٍ يترتب عليه خلودٌ في النار، فضلًا عن التأبيد. وهذه الآية واحدةٌ من ثلاث آياتٍ في القرآن العظيم، يذكر الله تعالى فيها تأبيد الكافرين في النار. فالمراد بالمعصية هنا: المعصية الكبرى التي هي الكفر بالله تعالى، أمَّا ما دون ذلك فقد دلت الآيات المُحكَمات، والأحاديث الصحيحة، على أنه تحت المشيئة والإرادة، كما قال ربُّنا ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وجميع الألقاب المنافية للإيمان تنقسم إلى أكبر وأصغر وهي: الشرك، والكفر، والنفاق، والضلال، والجهل، والفسق، والمعصية، والبدعة، والعصيان؛ فالأكبر منها مُخرجٌ عن الملة، والأصغر لا يُخرِج عن الملة، والأكبر منها لا يغفره الله تعالى أبدًا، والأصغر تحت المشيئة والإرادة؛ إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ يعني: إذا تحقق وقوع ذلك كقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، ولا ريب أنه لا ناصر لهم، ولا عدد لهم، ولا عُدة، فيفنى عنهم كل ناصرٍ ومعين.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: لا أدري أقريب موعده، أم أنَّ له أجلًا طويلًا ممتدًا. وهو يدل على أنَّ النبي ﷺ لا يعلم الغيب، خلافًا لما يدعيه الغلاة، في حقه، فيغلون فيه، ويخلعون عليه أوصافًا لا تنبغي إلا لله، كقول صاحب البُردة:

فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فلا ريب أنَّ هذا غلوٌّ قبيح، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**»[1]، فهو ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه. والغلاة الذين يدعون محبة النبي ﷺ، يستزلهم الشيطان بذكر مدائح، ونظم قصائد في الموالد، ويقولون منكرًا من القول وزورًا، لو سمعه النبي ﷺ لأنكر عليهم. حتى أنه قال: «**مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]»[2]، فهذه لا يعلمها إلا الله ﷻ، فمن نسب إلى النبي ﷺ شيئًا من هذه العلوم الغيبية فقد قال على الله وعلى رسول الله بغير علم.

قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾. ضنَّ ربك بعلم الغيب، الله تعالى أظهر لنا الشرع وأخفى عنا الغيب.

قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ يعني: من رسولٍ ملكي أو رسولٍ بشري، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: حرسًا، فان الله ﷻ يحفظه ويحوطه ويصونه بما يمنع استراق السمع منه، حتى يتم البلاغ المبين.

قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾، قال بعض المفسرين: أي: ليعلم النبي ﷺ، أنَّ الملائكة الموكلين بالوحي، وهو جبريل عليه السلام أنه قد بلغ الرسالة، وأنها لم تتعرض لزيادةٍ ولا نقصان، ولا تحريفٍ، وقيل: أنَّ معنى ﴿لِّيَعْلَمَ﴾؛ أي: ليعلم الله ﷻ تحقق معلومه، لا أنه قد طرأ عليه علم لم يكن؛ بل هو ﷻ قد علم منذ الأزل، لكنه يعلم حصول ذلك، وتحققه في الواقع.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٤٥). (٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٨).

قوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾؛ يعني: أنه علم جميع ما يتصل بهم مما بين أيديهم، وما خلفهم، وسرهم وجهرهم.

قوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾، فلا يفوته شيءٌ ﷻ قد أحصاه عددًا، فلا يخرج عن علمه، ولا عن قدرته شيءٌ من الأشياء.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: كمال أدب مؤمني الجن؛ بإضافة الشر إلى ما لم يسمّ فاعله، وإضافة الخير إلى الله صريحًا.

الفائدة الثانية: تفاضل مسلمي الجن في الصلاح والإيمان.

الفائدة الثالثة: أنَّ الظن يأتي بمعنى اليقين.

الفائدة الرابعة: كمال قدرة الله على جميع مخلوقاته.

الفائدة الخامسة: قيام الحُجَّة يحصل بسماع الحُجة على وجهٍ صحيح، فمن بلغه الدليل فقد قامت عليه الحُجة، يكفي مجرد السماع والخلو من الموانع؛ لأنَّ الله بعث رسله مبشرين ومنذرين؛ فالواجب عليهم البلاغ، وقد قال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[١]، أمَّا لو بلغته الحُجة بلغةٍ غير لغته، فهذا وجوده كعدمه.

الفائدة السادسة: مشروعية التحدث بنعم الله، لا على وجه المباهاة والرياء.

الفائدة السابعة: أنَّ الإيمان يُثمر الأمان من البخس والعنت.

الفائدة الثامنة: انقسام الجن إلى مسلمين وكفار.

الفائدة العاشرة: نجاة المسلم لتحريه الرشد، وهلاك القاسط لتحرِّيه الغي.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٥٣).

الفائدة الحادية عشرة: بيان ثمرة الاستقامة على الطريقة الحقة في الدنيا والآخرة.

الفائدة الثانية عشرة: شؤم الإعراض عن ذكر الله، وشدة عقوبة المعرضين.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ الإنعام يكون للابتلاء.

الفائدة الرابعة عشرة: وجوب توحيد العبادة.

الفائدة الخامسة عشرة: أنَّ أشرف ما في الصلاة السجود.

الفائدة السادسة عشرة: شرف المساجد، وشرف أعضاء السجود.

الفائدة السابعة عشرة: أنَّ الدعاء هو لب العبادة.

الفائدة الثامنة عشرة: أنَّ دعاء غير الله شركٌ مُخرِجٌ عن الملة ولو قلَّ.

الفائدة التاسعة عشرة: وصف النبي ﷺ بالعبودية، وأنَّ هذا من أشرف أوصافه.

الفائدة العشرون: تنافس مؤمني الجن على الهدى، واستماع القرآن.

الفائدة الحادية والعشرون: كمال توحيده ﷺ لربه في دعائه.

الفائدة الثانية والعشرون: براءته ﷺ من ادِّعاء خصائص الربوبية.

الفائدة الثالثة والعشرون: إبطال شبهات مشركي زماننا الذين يدعون النبي ﷺ.

الفائدة الرابعة والعشرون: كمال افتقار النبي ﷺ لربه، واضطراره إليه.

الفائدة الخامسة والعشرون: بيان ما اختص به النبي ﷺ، وهي الرسالة.

الفائدة السادسة والعشرون: أنَّ العصيان نوعان: أكبر وأصغر؛ فالموجب للخلود هو العصيان الأكبر.

الفائدة السابعة والعشرون: إثبات خلود أهل النار فيها على سبيل التأبيد.

الفائدة الثامنة والعشرون: تحقق وعيد الله قطعًا.

الفائدة التاسعة والعشرون: فناء الناصر والمعين للكافر يوم القيامة.

الفائدة الثلاثون: اختصاص الله بعلم الغيب عمومًا، وعلم الساعة خصوصًا.

الفائدة الحادية والثلاثون: إطلاع الله من شاء من رسله على ما شاء من الغيب.

الفائدة الثانية والثلاثون: حفظ الله لغيبه ووحيه من مسترقي السمع، وعصمته لرسله المبلغين له.

الفائدة الثالثة والثلاثون: أنَّ العلم المضاف لله إما علمه الأزلي، وإما علمه بحصول معلومه.

الفائدة الرابعة والثلاثون: إحاطته سبحانه بكل شيءٍ علمًا.

الفائدة الخامسة والثلاثون: إحصاؤه سبحانه كل شيءٍ عددًا.





سورة المزمِّل

سورة المزمِّل إحدى السور المكية، التي نزلت أول الإسلام. **ومن مقاصدها:**

- تقوية الصلة بالله ﷻ من طريقين قيام الليل، ترتيل القرآن وتدبّره.
- تصبير النبي ﷺ على ما يلقى من أذى قومه، لا سيما في أول الدعوة.
- إثبات المعاد والجزاء والحساب.

وهذه المقاصد الإيمانية والتربوية، ضرورية للنبي ﷺ، وللمؤمنين الأوائل الذين استجابوا لدعوته، ولقوا في ذات الله ما لقوا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن

شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ١ ـ ٢٠].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾، هذا خطابٌ للنبي ﷺ ونداءٌ له من ربِّه ﷻ، بوصف تلبَّس به في حال من الأحوال، وهو (التزمُّل). ومما قيل في سبب وصفه بهذا أنَّ قريشًا اجتمعوا ليوصِّفوا حال النبي ﷺ، فقال بعضهم: هو كاهن، وقال بعضهم: هو ساحر، وقال بعضهم: كاذب، وأرادوا أن يصفوه بوصفٍ قبيح، ليصدوا الناس عن دعوته، وينفِّروا الناس منه. فلما بلغه ذلك ضاق صدره، والتحف بكساء، والتف به، فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾، هذا هو المخرج حينما يضيق الصدر، وتتراكم الهموم، فإن الفرج والمخرج بأن ينشئ العبد بينه وبين ربه عبادة خاصة، ومناجاة حميمة، يسرِّب ما في نفسه من الضيق، والهم، والغم، والكدر، ويشكو بثه وحزنه إلى الله. لهذا ندبه ربه ﷻ إلى قيام الليل.

قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾، فكان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ، كما قال له ربه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

قوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾، هذا تقدير لمدة القيام. وما دون النصف هو الثلث. ويُعرف منتصف الليل، بأن ننصف الوقت ما بين مغيب الشمس، إلى طلوع الفجر، فذلك منتصف الليل، لا كما يظن بعض العوام، أنَّ منتصف الليل هو الساعة الثانية عشرة، محاكاةٌ

لاصطلاح الغربيين، ومن لفَّ لفهم. وما عليه أهل الإسلام أدعى إلى الدقة، وأقرب إلى الواقع؛ لأنَّ مبتدأ الليل مغيب الشمس، ومنتهاه طلوع الفجر، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان.

قوله: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: زد على النصف إلى الثلثين، مما يدل على أنَّ في الأمر سعة، وأن ذلك يتعلق بحال القائم؛ فتارةً يتمكن من القيام نصف الليل، أو أكثر من ذلك، وتارةً دون ذلك. كما أن ﷺ قد يدع قيام الليل لعارضٍ من العوارض البشرية، فيقضيه ضُحًى.

روى الإمام أحمد من حديث سعيد بن هشام الطويل، أنه دخل على أم المؤمنين عائشة ﵂، (فقال: قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ اللهَ ﷻ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللهُ ﷻ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَتِهِ»، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ثُمَّ بَدَا لِي وَتْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ وَتْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: «كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ، فَيَبْعَثُهُ اللهُ ﷻ لِمَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَتَسَوَّكُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، لَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ ﷻ، وَيَدْعُو، وَيَسْتَغْفِرُ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يُصَلِّي التَّاسِعَةَ، فَيَقْعُدُ، فَيَحْمَدُ رَبَّهُ وَيَذْكُرُهُ وَيَدْعُو، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ»، فَتِلْكَ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ. فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَخَذَ اللَّحْمُ، أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ، فَتِلْكَ تِسْعٌ يَا بُنَيَّ. وَكَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ

عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ نَوْمٌ، أَوْ وَجَعٌ، أَوْ مَرَضٌ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، وَلَا قَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ)(١).

قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ ترتيل القرآن: أي: قراءته بتؤدة، وتمهّل، لكي يكون أكثر وقعًا وتأثيرًا. وقد كانت قراءة النبي ﷺ، كما وصفت عائشة رضي الله عنها، وغيرها، مدًّا، كان إذا قرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم، يمد (الله) ويمد (الرحمٰن) ويمد (الرحيم)، كما أنه كان يقف على رؤوس الآي، لم يكن يهذه هذَّ الدقل أو هذَّ الرمل؛ بل كان يتأنّى في تلاوته، ذلك أن القرآن مكنز للمعاني، والعظات، والعبر، يحتاجُ قارؤه ومستمعه إلى قدر من المهلة الذهنية لاستيعاب ما تضمنه من هذه المعاني، وتذوقها والتفكر فيها. وهذا لا يتأتى بالقراءة المترسلة السريعة. ربما احتاج الإنسان في بعض الأحوال إلى قراءة مترسلة، لكن قيام الليل شأنه يختلف؛ المقصد منه أن يفرغ الإنسان، ويخلو بربه عز وجل، ويتذوق كلامه.

والقرآن كلام الله، وهذا أجلّ أوصافه، ومن القصور في تعريف القرآن أن يقال: هو المفتتح بالفاتحة، المختتم بالناس! هذا تعريف المصحف. فيجب أن يكون التعريف المتعيَّن للقرآن العظيم أنه: (كلام الله)، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ لأن هذه الجملة تلقي في النفس القدسية، والعصمة، والعظمة، التي تنبغي لهذا الكلام المجيد. فإذا علم العبد أنه هذا كلام الله عز وجل، تهيأت نفسه وتكيفت لاستقباله بما يليق به.

وقد حكى الإمام البخاري رحمه الله، عن بعض الصحابة، ما يدل على استشعارهم لهذا المعنى الجليل، فقال: (وَقَالَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ رضي الله عنه:

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٤٢٦٩)، وأبو داود رقم (١٣٤٢)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

«تَقَرَّبْ إِلَى اللهِ مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَقْتَرِبَ إِلَى اللهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ». وَقَالَ نِيَارُ بْنُ مَكْرَمٍ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الروم: ١، ٢]، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ يَصِيحُ يَقُولُ: «كَلَامُ رَبِّي». وَكَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما، إِذَا سَمِعَتِ الْقُرْآنَ قَالَتْ: «كَلَامُ رَبِّي، كَلَامُ رَبِّي»[(١)]. وروى الطبراني عن عكرمة رضي الله عنه، أنه كَانَ يَأْخُذُ الْمُصْحَفَ، وَيَضَعُهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «كَلَامُ رَبِّي، كَلَامُ رَبِّي»)[(٢)]. فهذه الآثار تدل على قوة الاستشعار والاستحضار لهذا المعنى.

والقرآن: (منزل) من عنده سبحانه كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ولم يقل على أذنك. وهو (غير مخلوق)؛ فالذين حاولوا أن يخرجوا القرآن عن قدسيته، وصفوه بأنه مخلوق، بناءً على أصلهم الفاسد، وهو إنكارهم لصفات الباري عز وجل. وأثاروا محنة فتنوا فيها خيار المؤمنين، في القرن الثالث من الهجرة، فأبى أهل السُّنَّة إلا أن يقولوا: كلام الله، منزلٌ غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل، فنزل به على قلب محمد ﷺ. فحينما يمتلئ القلب يقينًا بهذه الحقيقة، يخضع، ويسلم سمعه، وبصره، وقلبه، وجميع مشاعره، لاستقبال هذا الكلام الكريم.

قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾، وصف الله جل جلاله القرآن بأنه قولٌ ثقيل؛ ثقيل في معانيه، ثقيل في هداياته ودلالاته، ثقيل في مقاصده وغاياته، فليس كسائر الكلام. فإن العرب قد عرفت الشعر، والسجع، والبديع، وسائر المحسنات، ولكنهم لم يقفوا يومًا من الأيام على مثل هذا اللون من القول! فلذلك بُهروا حينما سمعوه، حتى إنَّ صناديد قريش كانوا يتسلَّلون خفية لسماعه، حتى لا يراهم العامة، يسيرون في جنح

(١) خلق أفعال العباد، للبخاري (ص٤١).
(٢) المعجم الكبير، للطبراني (١٧/ ٣٧١)، برقم (١٠١٨).

الظلام، ويقربون من بيت النبي ﷺ، وهو يترنم بالقرآن، فيعثر بعضهم على بعض فيتلاومون، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٦].

وفي قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾، ما يدل أنه صادر من علوٍّ؛ لأن الإلقاء يكون من أعلى إلى أسفل. ففيه دليل على إثبات العلوّ كما يدل على وصفه بالقول، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، فهو قول الله ﷻ.

قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾، عَودٌ إلى التذكير بقيام الليل. وللمفسرين في ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قولان:

الأول: كل آنائه من أوله أو أوسطه أو آخره، ناشئة.

الثاني: هي التي تكون إثر نوم. وذلك أنَّ النفس تستجم بالنوم، فإذا قام الإنسان من نومه يكون قد صفا ذهنه، وسكنت نفسه، واستراحت جوارحه، وصار مستعدًّا للتأمل والتدبر. وأيًّا كان، فإن الليل بجملته، محل للسكن، فالله تعالى قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [غافر: ٦١]. فلو أنَّ امرءًا صلى من أول الليل لَصَدَق عليه أنه قد قام الليل. عن عائشة ؓ، قالت: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَانْتَهَى وِتْرُهُ إِلَى السَّحَرِ»[1]، وعنها ؓ قَالَتْ: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِهِ، وَأَوْسَطِهِ، وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وِتْرُهُ إِلَى السَّحَرِ»[2]؛ لأنه أفضل أوقاته حيث يتنزَّل الربُّ ﷻ كما في حديث أبي هريرة الصحيح: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ**

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٦).
(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٤٧٥٩) وغيره. وإسناده على شرط الشيخين.

لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[١] فآخر الليل أسمع وأوقع. ومعنى أشد وطئًا: أي: أشد مواطئة بين القلب واللسان، فيقع توافق بين ما يلهج به اللسان، وما ينفعل به القلب. وهذا وَجْد يتذوقه كل من قام الليل، فيجد الفرق بيِّنًا بين صلاته بالليل وصلاته بالنهار.

قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلٗا ۝٧﴾، سبحًا: أي: فراغًا ممتدًا، وبغيةً ومنقلبًا، ومجالًا للتطوع بمختلف أنواعه، فجعل الله ﷻ النهار معاشًا، وجعل الليل لباسًا. فوظيفة الليل: الخَلوة، ووظيفة النهار: الجَلوة. وظيفة الليل أن يخلو العبد بربه ﷻ، ويناجيه بعيدًا عن الأبصار، ويبثه شكواه ودعواه، ويلجأ إليه، ويتضرع بين يديه. فهذه الحال تسكب في قلب المؤمن من المعاني ما لا يتأتَّى في النهار. وفي النهار وظائف كثيرة؛ من السعي على نفسه، وأهله، وعياله، والضرب في الأرض لتحصيل المصالح. والموفق هو من ينزل كل وظيفة على الزمن المناسب لها.

ومن تأمل هدي النبي ﷺ، وجد أنه يجعل لكل مقام مقالًا، ولكل حال وظيفة تناسبه. وهذه حقيقة التعبُّد. فأحسن التعبد أن تشغل الوقت بالعبادة المناسبة لها؛ فإذا أذَّن المؤذن فالوظيفة هي إجابة المؤذن، ونقل الخطى إلى المساجد، وإذا حال حول الزكاة؛ فالوظيفة إخراجها، وهكذا في كل أمر. فحقيقة التعبد لله تعالى هو الإتيان بما ندب الله إليه عباده في ذلك الحال. أما أولئك الذين أسروا أنفسهم بأحوال، وهيئات، ورسوم، ويستثقلون الخروج عن هذه الوضعية، ولا يغيِّرون رسمًا التزموه، فهؤلاء ما أحسنوا التعبد لله. التعبد الحق: أن يفعل الإنسان ما يناسب الحال، فلو قُدِّر أنّ إنسانًا كان له وردٌ وحزب معتاد، ثم حلَّ به ضيف؛ فالوظيفة هي إكرام الضيف، ولو تخلف بعض ما كان يجري عليه، ثم يقضي إن شاء. عن أُمِّ سَلَمَةَ ﵂، أنَّ النبي ﷺ، قَالَ: **«يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ،**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

سَأَلْتِ عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ العَصْرِ، وَإِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ القَيْسِ، فَشَغَلُونِي عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ»[1]، فينبغي للإنسان الموفق أن يتلمس هدي النبي ﷺ في سبحهِ في النهار.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، المقصود من عبادة الليل، ومن عبادة النهار، ذكر اسم الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]. فحقيقة الذكر: ارتباط القلب بالله، وإنَّ أجلَّ العبادات أن يكون القلب موصولًا بالله تعالى، لا يغيب عنه، فلأجل ذا ضخَّ الشارع الكريم من الأذكار، في مختلف المناسبات، والأَحوال، والهيئات، ما يجعل الإنسان متصلًا بالله على الدوام؛ كأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم واليقظة، وأذكار الطعام والشراب، وأذكار دخول المسجد والخروج منه؛ بل وأذكار دخول الخلاء والخروج منه، وحتى إتيان أهله والاستمتاع بهم، وسائر الأشياء. لا تكاد تجد مرفقًا من مرافق الحياة إلا وقد اقترن به ذِكرٌ حسنٌ جميل، يذكّر العبد بالله تعالى. هذا هو الذكر الحق، وليس الذكر بأن يطقطق بالمسابح، ويتلو بعض الوظائف، وقلبه ساهٍ لاهٍ؛ بل ينبغي أن يتواطأ القلب واللسان حال الذكر. قال العلماء: إن أعظم أحوال الذكر ما تواطأ فيه القلب واللسان، يليه في المرتبة ما استقل به القلب عن اللسان، يليه في المرتبة ما استقل به اللسان عن القلب. فربما درج بعض الناس على بعض الأذكار، ومعهم نوع من الذهول، فلعلهم يؤجرون، لكنهم دون أجر من أحيوا ذكر الله تعالى بقلوبهم. ولأجل ذا كان الذكر هو الغنيمة الباردة، قال ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ**»؟ قَالُوا:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٣٣)، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٧).

بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»[١] عرضٌ مغرٍ للموفق، يغتنمه قائمًا، أو قاعدًا، أو على جنبه، ويتقلب في مصالحه اليومية، وهو يتمتم بالكلم الطيب، فينال بذلك أعلى الدرجات، ولما قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله إنَّ شرائع الإسلام قد كَثُرت عليّ، فدلّني على أمرٍ أتشبث به. قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[٢].

قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾؛ أي: اعبده حق عبادته، ودُمْ على ذلك. فالتبتل: هو الانقطاع في العبادة لله ﷻ. وليس معنى ذلك أن يأوي إلى الديارات، والمغارات، وينقطع عن الناس، كلا،! تلك رهبانية النصارى، والنسك الأعجمي، المقصود أن ينقطع بقلبه لله تعالى، وإن كان يعافس الأهل والأولاد، ويضرب في الأرض يبتغي من فضل الله، لكنه موصولٌ بالله تعالى، يتعبد لله تعالى في كل ما يأتي وما يذر. ولا أعبَدَ لله تعالى من أنبيائه، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ، فقد كان زوجًا، وأبًا، وجارًا، وإمامًا، وقائدًا، ومعلمًا، ومع ذلك، فإنه هو أعبد الناس لربه، يفعل كل هذه المهام وهو موصول بربه ﷻ.

قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، هذا التعقيب بعد الأمر بذكره وعبادته، تنويهٌ باستحقاقه ﷻ لإخلاص العبادة له لأنه الربّ. والمشرق والمغرب هنا اسم جنس؛ يعني: كل مشرق وكل مغرب، في أيِّ موضعٍ من الأرض، في أيِّ ساعةٍ من الساعات؛ فالله تعالى خالقه، ومالكه، ومدبّره. هذه هي حقيقة الربوبية، تدور حول هذه المعاني الثلاث؛ الخلق والملك والتدبير.

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، هكذا يقترن توحيد الربوبية بتوحيد الألوهية؛ أي: لا معبود بحق إلا هو، فكل عبودية مزعومة مدّعاة، فهي باطلة، إلا عبوديته سبحانه وبحمده، وهذه كلمة التوحيد التي هي أول

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٧)، وأحمد رقم (٢١٧٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه رقم (٣٧٩٣).

الإسلام، وأوسطه، وآخره، فمن مات وآخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله، دخل الجنة. إلا أنها يجب أن تقال: بعلمٍ، ويقينٍ، وصدقٍ، وإخلاصٍ، ومحبةٍ، وقَبولٍ، وانقياد، فلا يقولها بمجرد لسانه، دون أن يعي معناها، فمن قالها بلسانه وهو لا يعي معناها، ولا يعمل بمقتضاها، لم تغن عنه شيئًا، ولو ملأ الجو تهليلًا. إنَّ معنى قول «لا إله إلا الله»؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله، فإن «الإله»: من تألهه القلوب محبةً وتعظيمًا، تألهه: أي: تنجذب إليه، وتتعلق به، فهذا لا يكون إلا لله الواحد القهّار. فحينئذٍ يخلص المحبة، والخوف، الرجاء لله تعالى، وهكذا بقية أعمال القلوب.

قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾، التوكُّل من أعظم مظاهر العبودية. التوكُّل: هو اعتماد القلب على الله ﷻ في جلب المصالح، ودفع المضار، مع فعل الأسباب التي نصبها الله أسبابًا. لذلك نجد الارتباط الوثيق بين التوكل والإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ففزع القلب إلى الله ﷻ، دليلٌ على حسن ظنه بالله، وصدق تعبده له، وفزع القلب إلى المخلوقين، والتعلق بهم، دليلٌ على ضعف الإيمان. أول ما ينبغي أن يتبادر إلى القلب في المضائق والمآزق، الفزع إلى الله ﷻ، ثم بعد ذلك ينظر إلى الأسباب التي نصبها الله أسبابًا؛ حسًّا، وشرعًا، ويفعلها لأن الله نصبها، لا لأنها مستقلة بالتأثير.

فهذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية، والألوهية، والتوكل: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾. ولما قدَّم بهذه الجمل العظيمة، وندب نبيَّه إلى قيام الليل والصبر عليه، هيَّأهُ للصبر على ما يلقى من قومه وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: من التهم الجزاف،

وألقاب السوء التي ينبزونك بها؛ كالسحر، والكذب، والكهانة، وغيرها، ولا ريب أنها تقدح في النفس وتخدشها، ولكن ليس ثَمّ إلا الصبر. ومنزلة الصبر في الدين كمنزلة الرأس من الجسد. والصبر من أشرف المقامات، وهو ثلاث أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فالصبر على طاعة الله: أن يلزم الإنسان نفسه امتثال أوامر الله. والصبر عن معصية الله: أن يمسك الإنسان نفسه عن انتهاك حرمات الله. والصبر على أقدار الله المؤلمة: أن يتلقى ما يقضيه الله تعالى من الأمور الموجعة برضى ويقين، ويمسك لسانه وجوارحه عن دعوى الجاهلية. قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فما من رسول إلا وُجِّه إليه سيلٌ من التهم، وصنوف من الأذى، لكنهم يصبرون، فأمر الله نبيه بالصبر على هذه الدعاوى التي أُلقيت عليه، ونيل منه بها.

قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾، الهجر الجميل: هو الذي لا عتاب معه، ولا جزع فيه. نجد أنَّ الله ﷻ يندب إلى التجمل في عدة أمور، كما قال: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾ [المعارج: ٥]، وقال: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: ٤٩]. فينبغي أن يكون الهجر جميلًا، بحيث لا ينحط الصابر إلى نوعٍ من العتاب، والمؤاخذة، والمحاسبة؛ بل يحتمل. ويسعه أن يدفع عن نفسه قالة السوء، فلما قال قوم هود لهود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: ٦٦]، قال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾ [الأعراف: ٦٧]، فهذا لا ينافي الصبر، والهجر الجميل، وليس من مقتضى الصبر أن لا يذب المرء عن عرضه، ولكن لا ينزل إلى سفاسف الأمور.

قوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾، حسبك أن يقول رب العالمين: خلِّ بيني وبين هؤلاء! ذرني: يعني: دعني أفعل بهم ما يليق بهم.

قوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾؛ أي: أصحاب التنعم، والأشر والبطر. وهذا هو الغالب على من انغمس في الترف والنعيم، أنه يقع بينه وبين قبول الحق حجاب؛ لأن الترف والنعيم يجعلان الإنسان ينزع إلى الدنيا، ويميل إلى الشهوات، ويتباعد عن الآخرة، وعن الأمور التي تخالف هواه، فلذلك كان المترفون، غالبًا، هم أهل النار، والصابرون هم أهل الجنة.

قوله: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾، هذا الذي يتقلبون فيه من النعمة، إنما هو متاع زائل، عما قليل يتلاشى ويضمحل، قال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣]، وفي هذا ما يُشعر المؤمن بأن ما قد يدهشه من حال أهل الدنيا ينبغي أن لا يزلزل إيمانه بسنن الله الكونية، فإن الله ﷻ، قد يمتع بعض بني آدم ببعض النعم، ليستدرجهم، ويستزلهم للتمادي، لكنه سبحانه، لهم بالمرصاد.

قوله: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٣﴾؛ أي: لو شاء ربك لأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر، لكن الله تعالى حليم؛ يمهل ولا يهمل، وهو ﷻ، يؤجل العقوبة لحكمة، مع أنه يرى، ويسمع، ويعلم، لكنه ﷻ حليم؛ وفي الصحيح: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»[(١)]، فنبَّه تعالى، نبيَّه ﷺ، أنَّ هؤلاء الذين يشغبون عليه، ويؤذونه، في القبضة، وأنه لو شاء الله تعالى لأهلكهم بعذابٍ مؤلم، موجعًا، وجحيم في الآخرة وهي النار، وتجريعهم طعامًا ذا غصة، هو الغساق، والغسلين، يعلق في الحلق؛ فلا هو يهبط ولا هو يخرج.

قوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤﴾: هذا تذكير باليوم الآخر. فهم وإن سلموا في الدنيا من عقوبة عاجلة، فأمامهم يوم القيامة. ومعنى ترجف: أي: تهتز وتميل. وقد تكرر ذكر هذا المعنى في مواضع كثيرة من القرآن، وهي من مشاهد القيامة، التي ينبغي للموفق أن

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٦).

يستدعيها، ويستحضرها، ويطلق خياله في تصورها، حتى يمتلأ قلبه خشية لله تعالى، كقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ١-٦]، إنَّ هذه الأرض القارَّة إذا أصابها زلزال طارئ، لبضع ثوان، تنقلب الأشياء رأسًا على عقب، وتنحط البنايات العالية، وتهوي قرى بأكملها في جوف الأرض! وهو حدث دنيوي، فكيف بيوم القيامة! وهذه السلاسل الهائلة من الجبال الشاهقة، التي ينقطع دونها البصر، يقول الله عنها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨] هذا كائن لا محالة.

وقد تقدم أنَّ أحوال الجبال يوم القيامة متغيرة؛ لأنه يوم طويل، فقد أخبر الله أنَّ الجبال تمر بأطوارٍ متعددة، فتارةً تسير وتمر مر السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: ٣]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثم بعد ذلك تُحمل وتُدك، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، ثم بعد ذلك تدق وتبس، كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ [الواقعة: ٥]، فتصبح كثيبًا مهيلًا، كما قال هنا: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾. والكثيب: الرمل، مهيلًا: منثورًا. تعود هذه الجبال الصُّم الصلدة كالرمل المبثوث. وفي الصحيح: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ**»[1]، وفي رواية: «**لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ**»[2]؛ أي: لا جبل يُرتقى عليه، ولا وادٍ يُهبط إليه، ولا غار يكتن به. ففي هذا إيقاظ وتذكير بهذا الأمر الذي هم مقبلون عليه، ولا ريب أنَّ فيه عظةٌ وعبرة لمن كان في قلبه حياة، فيستدرك ويؤوب إلى رُشده.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٢١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٨٦)، برقم (٩٦).

ثم إن الله ﷻ، وعظهم بأسلوبٍ آخر من أساليب الموعظة، وهو التذكير بالتاريخ، والحوادث السابقة فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، يخبر هؤلاء المخاطبين من مشركي قريش، ومَن وراءهم من العرب، والأمم، برسالة نبيِّه محمد ﷺ، وشهادته عليهم، بوصفهم أمة الدعوة، بالبلاغ المبين، ونظَّر هذا برسالة موسى عليه السلام، إلى فرعون. وموسى عليه السلام، أحد أولي العزم من الرسل، وقصته مبسوطة في مواضع كثيرة من القرآن العظيم، لكن اقتصر في هذا السياق على ما يناسب المقام.

قوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، كما أنتم الآن تعصون، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ وذلكم الأخذ: أنَّ الله ﷻ أغرقه ومَلأَهُ في البحر، ساقه إلى حتفه بخيله، ورَجِله، وجنده، وأغراه باقتحام البحر خلف بني إسرائيل، حتى إذا تكامل بنو إسرائيل خارجين، وتكامل آل فرعون داخلين، أمر الله البحر أن ينطبق عليهم، كما وصف تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: ٢٤ - ٢٧]. ذلكم هو الأخذ الوبيل، فمن عصى الرسول فهذه عاقبته، فليس لأحد نسب ولا سبب يُدلي به على الله ﷷ؛ بل هي سنن مطردة.

قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾، عاد السياق إلى ذكر اليوم الآخر والتخويف منه. والعامل في قوله (يومًا) إما (تتقون)، فيكون التقدير فكيف تتقون يومًا، ويحتمل أن يكون العامل فيه (كفرتم)؛ يعني: إن كفرتم يومًا، ولا تعارض بين المعنيين؛ يمكن أن يكون التقدير: (فكيف تتقون يومًا إن كفرتم)، ويمكن أن يكون التقدير: (فكيف تتقون إن كفرتم يومًا)، فكلاهما محمل حسن. واليوم: يوم القيامة، كما وصف الله ﷷ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ

شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢]، فاستذكار ذلك اليوم مهمٌّ في إحياء الإيمان في القلوب، وكثيرٌ من الناس يقصي التذكير باليوم الآخر، ويبعده عن مخيلته لأنه يريد أن يستمتع، ويتلهى في هذه الدنيا، دون تعكير! لكن ما أشبهه بالنعامة التي تدس رأسها في التراب تظن أنَّ الصياد لا يراها. العاقل اللبيب هو الذي يدرك بأن ما هو آتٍ يستدعي الاستعداد، ودوام الذكرى. وهذا قلقٌ مبارك، ليس قلقًا يعكر الصفو، ويكدر العيش، ويصرف الإنسان عن مصالحه؛ بل هو قلق إيجابي يحمله على تقوى الله ﷻ، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وحسب. ولهذا لا يحتاج الإنسان من خوف الله تعالى إلا إلى القدر الذي يحجزه عن معاصيه، وما زاد فلا حاجة له فيه، فليس مندوبًا أن يشعر بالكآبة، والنكد، والضيق، والاضطراب، كلا، كان النبي ﷺ من أطيب الناس عيشًا، وأهنئهم مجلسًا، مع شدة خوفه، وخشيته، وتقواه، لربه ﷻ.

قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾؛ يعني: منشقٌّ متصدع، كما أخبر الله ﷻ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦]، فهذا من مشاهد يوم القيامة التي يتكرر ذكرها في القرآن. وقد اختلف في مرجع الضمير في قوله: (به): فقال بعض المفسرين: أي: بسببه؛ أي: بسبب يوم القيامة، فإنه من لوازمه. وقيل: أي بالله ﷻ، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأنه لم يرد له ذكرٌ فيما مضى حتى يُرجع الضمير إليه.

قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾، هكذا يقر الإيمان في القلوب، فتمتلئ يقينًا بما أخبر الله ﷻ، فلا يمكن أن يتخلف وعد الله ﷻ، إنَّ الله لا يخلف الميعاد، وهذا القطع واليقين والجزم هو ما يسمى «الاعتقاد»؛ لأن الاعتقاد مأخوذ من عقد الحبل، وهو الشَّدُّ، والرَّبط، والحزم.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾؛ يعني: هذه السورة، أو هذه المواعظ التي سبق ذكرها، تُذكر القلوب وتحييها، والذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤه ذكر الله؛ فالذكرى تصقل القلب، وتعيد له بهاءه، وبشاشته، وتأثره واستجابته. أما إذا كان القلب

بعيدًا عن الذكرى، فإنه يقسو، ويصبح قلبًا أغلفًا، تحيط به حجب، وأغشية، وران، وغان، تمنع وصول الحق إليه كما قال ربنا ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]. لذلك تجد الغارق في الشهوات لا تؤثر فيه العظات، يحتاج إلى صدمة كبيرة حتى تنفُذ إليه الذكرى؛ فالمرء بأمس الحاجة إلى أن يتعاهد قلبه بالذكرى، ولا يسترسل في الغفلات، ليظل قلبهُ حيًّا يقظًا.

قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾، هذه الآية ردٌّ على الجبرية الذين ينكرون فعل العبد ومشيئته، فقد أثبت الله للعبد مشيئة، وفعلًا، فقوله: ﴿فَمَن شَاءَ﴾ إثبات المشيئة، وقوله: ﴿اتَّخَذَ﴾ إثبات الفعل والأداء؛ فالعبد له مشيئة حقيقية بها يأتي وبها يذر، وله فعل حقيقي يصح ويصدق إسناده إليه، كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠]؛ فالذي أعطى، واتقّى، وصدق، هو العبد، والذي بخل، واستغنى، وكذب، هو العبد. ولهذا كان الثواب والعقاب مرتَّبَين على ما يبدر من العبد من طاعة أو معصية، وما ربك بظلام للعبيد. فليس لأحدٍ أن يحتج على الله بقدره السابق، فإنه سبحانه قد قدَّر المقادير، وفرغ من العباد، لكنه أخفى القدر، وأظهر الشرع، وقال: اعملوا فكلٌّ ميسر! فالإنسان فيما يأتي وما يذر، يجد في نفسه إرادة، ومشيئةً، وفعلًا حقيقيًّا، ليس صوريًّا، ولا قسريًّا، ولا قهريًّا؛ بل يقع منه مع سبق إصرار، ومحض اختيار. فلذلك رتب الله عليه الثواب والعقاب.

ففي هذه الآية ردٌّ مفحمٌ على القائلين بالجبر، الذين يزعمون أنَّ العبد مجبورٌ على فعله. فلا يستقيم أن يقال: «العبد مسيَّر» بإطلاق، ولا يقال: «العبد مخير»، بإطلاق؛ بل يقال: «العبد ميسَّر»، لقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وقوله ﷺ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾، ليس المراد التخيير الشرعي؛ إن شئت اتخذ، وإن شئت لا تتخذ! المقصود أنه لا عذر لأحد، فمن أراد النجاة والفكاك فليتخذ إلى ربه سبيلًا، من جنس قول الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: ٤٠]، ليس المقصود أنني أبحت لكم ما تشاؤون، لكن معناه أنتم مجزيون بما تختارون وتعملون، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ليس المراد تسويغ الكفر، وإنما المراد أن هذا وهذا كلاهما بمشيئتك، ومقدورك فاختر لنفسك! وسيترتب على مشيئتك واختيارك الثواب أو العقاب. ومثله قول النبي ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»[1].

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، كان الأمر في أول الإسلام على الوجوب، وكان السابقون الأولون من المؤمنين مأمورين شرعًا بالقيام، ثم إنَّ الله ﷻ خفّف عنهم، وأسقط عنهم وجوب قيام الليل، وأبقى استحبابه، وفضله، والترغيب به.

والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام خطاب لأمته، إلّا أن يقوم دليلٌ على التخصيص. وهذه قاعده أصولية، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢]؛ فالخطاب موجه للنبي ﷺ، لكنه شمل أمته بدليل قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، إلا أن يرد ما يدل على التخصيص، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، يعلم مقاديرهما واختلافهما حسب الفصول، فتارةً يزيد الليل وينقص النهار، وتارةً العكس. كما يعلم مقادير قيامكم وصلاتكم فيهما، فكل شيء عنده بمقدار.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣).

قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ أي: لن تستطيعوا الإيفاء به، لما يعرض لكم من العوارض الحياتية، فتاب عليكم.

قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ أي: صلوا؛ فالقراءة تأتي بمعنى الصلاة، والصلاة تأتي بمعنى القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ أي: لا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها فسمَّى القراءة صلاةً.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، هذه نماذج للأعراض التي تعتري بني آدم؛ فمنها المرض والسفر، وقد قال النبي ﷺ: «**إذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[1]، وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه: كان بيَ الناصُورُ، فسألتُ النَّبيَّ ﷺ، فقال: «**صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تَستَطِعْ فقاعِدًا، فإنْ لم تَستَطِعْ فعلى جَنبٍ**»[2]. هؤلاء من أهل الأعذار؛ ومن إعذار الله لهم أن خفّف الصلاة عن المسافر، فحطّ الرباعية إلى اثنتين، وأباح الجمع بين الصلاتين للمرض، وللسفر، وللمطر، ولعموم الحرج، كل هذا من تخفيف الله تعالى على عباده وتيسيره. وأرقى من ذلك أن يكون مشغولًا بالجهاد في سبيل الله، فيحتاج إلى الرخص، وإلى صلاة الخوف.

قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ يعني: صلوا ما تيسر من الليل. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، بهذه الآية، على أن قراءة الفاتحة ليست ركنًا؛ لقوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ أي: القرآن، فقالوا: لو قرأ بأي شيء من القرآن صحَّت صلاته. ولكن هذا لا يتم، لوجود الأحاديث

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١١١٧)، وأبو داود رقم (٩٥٢) واللفظ له، والترمذي رقم (٣٧٢)، والنسائي رقم (١٦٦٠)، وابن ماجه رقم (١٢٢٣)، وأحمد رقم (١٩٨١٩).

الصحيحة، المتفق عليها، على ركنية الفاتحة، كحديث عبادة بن الصامت، مرفوعًا: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(١)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ**» ثَلَاثًا، غَيْرُ تَمَام. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: «**اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ**»(٢)، فيكون هذا من باب بيان السُّنَّة للقرآن، فمعنى قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ يعني: مع قراءة الفاتحة؛ في الصلاة، فإن قراءة الفاتحة ركنٌ في كل ركعة، في كل صلاة، لكل مصلي. وللعلماء في هذه المسألة أقوال مشهورة؛ فمنهم من يوجب قراءة الفاتحة في كل ركعة، في كل صلاة؛ فرضًا أو نفلًا، سرية أو جهرية، لكل مصلٍّ؛ إمامًا كان أو مأمومًا، أو منفردًا، وهذا مذهب الشافعي، وهو اختيار شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومنهم من يرى أنَّ قراءة الإمام قراءة لمن خلفه، في كل صلاة؛ سرية أو جهرية، وهو مذهب الحنابلة، ومنهم من يفرّق بين السرية والجهرية؛ فيوجبها على المأموم في السرية دون الجهرية، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إقامة الصلاة؛ أي: فعلها على وجه الاستقامة.

قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أدُّوها طيبة بها نفوسكم لمستحقيها، فيما أوجب الله فيه الزكاة من الأموال. وهذا يدلّ على أنَّ هاتين الشعيرتين من أعظم مباني الإسلام، ولهذا يقرن الله تعالى بينهما في عدة آيات، ولا تكادان تنفكان، حتى إنَّ الله تعالى يجعلهما مع الإخلاص والتوحيد، دينَ القيِّمة؛ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، والآية تدل

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦)، ومسلم رقم (٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٩٥).

أيضًا على أنَّ فرْضية الزكاة وقعت في مكة، وإنما تأخر بيان أنصبائها ومقاديرها إلى المدينة، ونجد هذا في سور مكية أخرى، كقول الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، هذا إغراء من الله لعباده بالصدقة؛ لأن هذا القرض سيُرد، وسيُرد مضاعفًا، ففيه إغراء عظيم للبذل والنفقة.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، هذا طمأنةٌ وترغيب، فكل ما يُقدّمه العبد فإنه لا يضيع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، فلا تأس على ما فات، ثق أن الله قد حفظه.

قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾، ما أحسن هذا الختام الذي يُنبئ عن حاجة الإنسان إلى الاستغفار، حتى في ختام الطاعات؛ لأن العمل لا بد أن يعتريه خلل، فيحتاج إلى ترقيع، ونقص، يحتاج إلى تكميل، وهذا يحصل بالاستغفار. ولهذا نجد أنَّ المصلي إذا انصرف من صلاته بالسلام، قال: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله. وهكذا ندب الله المؤمنين في مناسك الحج، فقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٩]، فاستغفار الله: طلبُ مغفرته، وهو مشروعٌ لما هو أعم من فعل الذنوب، فيشمل ما قد ينوب العبادة من الخلل والتقصير.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾، اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى تضمَّنا صفتي المغفرة والرحمة.

۞ الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: المخاطبة بالوصف الراهن (المزمل).

الفائدة الثانية: وجوب قيام الليل في حقِّ النبي ﷺ، وبيان مقداره.

الفائدة الثالثة: السعة في التقدير، ورفع الحرج.

الفائدة الرابعة: استحباب ترتيل القرآن لتحصيل التدبُّر.

الفائدة الخامسة: ثقل القرآن حسًّا ومعنًى.

الفائدة السادسة: فضل الصلاة في الليل؛ لكونها أحضر للقلب، وأجمع للتلاوة.

الفائدة السابعة: اتِّساع النهار لقضاء المصالح.

الفائدة الثامنة: بركة الليل والنهار لمن وفَّقه الله لاغتنامهما.

الفائدة التاسعة: أنَّ الليل محلٌّ للدعة والخلوة، والنهار محلٌّ للاكتساب والجلوة.

الفائدة العاشرة: الحث على ذكر الله تعالى كل حين.

الفائدة الحادية عشرة: الإخلاص لله في العمل، والانقطاع إليه، والمداومة عليه.

الفائدة الثانية عشرة: توحيده تعالى بالربوبية والألوهية.

الفائدة الثالثة عشرة: توحيده تعالى بالتوكُّل، والقرن بين العبادة والتوكلٌّ.

الفائدة الرابعة عشرة: فضيلة الصبر على أذى المخالفين، وحاجة الداعية إليه.

الفائدة الخامسة عشرة: استعمال الهجر الجميل.

الفائدة السادسة عشرة: وعيد الله للمكذبين، وشديد عقابه لهم.

الفائدة السابعة عشرة: بيان صفة القيامة، وأطوارها، وأحوالها.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات رسالة النبي ﷺ.

الفائدة التاسعة عشرة: شهادته ﷺ على سائر الناس بالبلاغ، وأداء الرسالة.

الفائدة العشرون: التنظير بين رسالتي محمدٍ وموسى عليهما الصلاة والسلام، وبين كفار قريش وفرعون، للتذكير والتحذير من تماثل العاقبة.

الفائدة الحادية والعشرون: شؤم العصيان، وشدة أخذ الله للمكذبين.

الفائدة الثانية والعشرون: التخويف من يوم القيامة، وضرورة اتِّقاء شرِّه.

الفائدة الثالثة والعشرون: أهمية التذكرة والحاجة إليها؛ فالذكرى تنفع المؤمنين.

الفائدة الرابعة والعشرون: إثبات مشيئة العباد وأفعالهم، والرد على الجبرية.

الفائدة الخامسة والعشرون: إحاطة علم الله، وسعة تقديره لليل والنهار؛ طولًا وقصرًا، صيفًا وشتاءً.

الفائدة السادسة والعشرون: لطف الله بعباده ورحمته بهم، وتوبته عليهم وتخفيفه عنهم.

الفائدة السابعة والعشرون: التيسير في الشريعة، ورفع الحرج.

الفائدة الثامنة والعشرون: التعبير عن الصلاة بالقراءة.

الفائدة التاسعة والعشرون: أنَّ قراءة ما تيسر من القرآن لا ينافي ركنية الفاتحة.

الفائدة الثلاثون: أنَّ المرض، والسفر، والخوف، من الأعذار المعتبرة شرعًا، المخففة للأحكام.

الفائدة الحادية والثلاثون: عَلَمٌ من أعلم النبوة، لإخباره تعالى إياه بما سيقع من الفتوحات.

الفائدة الثانية والثلاثون: فرضية الصلوات المكتوبة، واستحباب ما سواها.

الفائدة الثالثة والثلاثون: أنَّ الزكاة فُرضت في مكة.

الفائدة الرابعة والثلاثون: استحباب الصدقات، وأنها بمنزلة القرض الحسن.

الفائدة الخامسة والثلاثون: إعظام الرجاء بموعود الله تعالى، ومضاعفة ثوابه.

الفائدة السادسة والثلاثون: فضيلة الاستغفار بعد فعل الطاعات؛ لسد خللها وتكميلها.

الفائدة السابعة والثلاثون: إثبات اسمي الله الغفور والرحيم؛ وتضمُّنهما صفتي المغفرة والرحمة.

وهذا سياق **قيام النبي ﷺ كما حكاه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد». قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

(قَالَتْ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «مَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعِشَاءَ قَطُّ فَدَخَلَ عَلَيَّ، إِلَّا صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، أَوْ سِتَّ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ». وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا بَاتَ عِنْدَهُ: «صَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَ، ثُمَّ صَلَّى، ثُمَّ نَامَ»، ذَكَرَهُمَا أبو داود.

وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ، بَدَأَ بِالسِّوَاكِ، ثُمَّ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى، . . . ثُمَّ يَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، كَمَا فِي «صَحِيح مسلم»، عَنْ عائشة قَالَتْ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، افْتَتَحَ صَلَاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»، وَأَمَرَ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلْيَفْتَتِحْ صَلَاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»، رَوَاهُ مسلم.

وَكَانَ يَقُومُ تَارَةً إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، وَرُبَّمَا كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ وَهُوَ الدِّيكُ وَهُوَ إِنَّمَا يَصِيحُ فِي النِّصْفِ الثَّانِي، وَكَانَ يَقْطَعُ وِرْدَهُ تَارَةً، وَيَصِلُهُ تَارَةً وَهُوَ الْأَكْثَرُ، وَيَقْطَعُهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ مَبِيتِهِ عِنْدَهُ، (**أَنَّهُ ﷺ اسْتَيْقَظَ، فَتَسَوَّكَ، وَتَوَضَّأَ، وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، **فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِسِتِّ رَكَعَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ، وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ،**

فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا» رَوَاهُ مسلم.

وَلَمْ يَذْكُرِ ابْنُ عَبَّاسٍ افْتِتَاحَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ كَمَا ذَكَرَتْهُ عائشة، فَإِمَّا أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ هَذَا تَارَةً، وَهَذَا تَارَةً، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عائشة حَفِظَتْ مَا لَمْ يَحْفَظِ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِمُلَازَمَتِهَا لَهُ، وَلِمُرَاعَاتِهَا ذَلِكَ، وَلِكَوْنِهَا أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِقِيَامِهِ بِاللَّيْلِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّمَا شَاهَدَهُ لَيْلَةَ الْمَبِيتِ عِنْدَ خَالَتِهِ، وَإِذَا اخْتَلَفَ ابْنُ عَبَّاسٍ وعائشة فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ قِيَامِهِ بِاللَّيْلِ؛ فَالْقَوْلُ مَا قَالَتْ عائشة.

وَكَانَ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ وَوِتْرُهُ أَنْوَاعًا، **فَمِنْهَا**: هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

النَّوْعُ الثَّانِي: الَّذِي ذَكَرَتْهُ عائشة، أَنَّهُ «**كَانَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ يُتَمِّمُ وِرْدَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَيُوتِرُ بِرَكْعَةٍ**».

النَّوْعُ الثَّالِثُ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً كَذَلِكَ.

النَّوْعُ الرَّابِعُ: يُصَلِّي ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، يُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يُوتِرُ بِخَمْسٍ سَرْدًا مُتَوَالِيَةً، لَا يَجْلِسُ فِي شَيْءٍ إِلَّا فِي آخِرِهِنَّ.

النَّوْعُ الْخَامِسُ: تِسْعُ رَكَعَاتٍ، يَسْرُدُ مِنْهُنَّ ثَمَانِيًا لَا يَجْلِسُ فِي شَيْءٍ مِنْهُنَّ إِلَّا فِي الثَّامِنَةِ، يَجْلِسُ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمُ ثُمَّ يُصَلِّي التَّاسِعَةَ، ثُمَّ يَقْعُدُ، وَيَتَشَهَّدُ، وَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ جَالِسًا بَعْدَمَا يُسَلِّمُ.

النَّوْعُ السَّادِسُ: يُصَلِّي سَبْعًا كَالتِّسْعِ الْمَذْكُورَةِ، ثُمَّ يُصَلِّي بَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ جَالِسًا.

النَّوْعُ السَّابِعُ: أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي مَثْنَى مَثْنَى، ثُمَّ يُوتِرُ بِثَلَاثٍ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ. فَهَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ عائشة، أَنَّهُ «**كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثٍ لَا فَصْلَ فِيهِنَّ**».

النَّوْعُ الثَّامِنُ: مَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، «عَنْ حذيفة، أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَرَكَعَ، فَقَالَ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**» مِثْلَ مَا كَانَ قَائِمًا، ثُمَّ جَلَسَ يَقُولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي**» مِثْلَ مَا كَانَ قَائِمًا. ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**» مِثْلَ مَا كَانَ قَائِمًا، فَمَا صَلَّى إِلَّا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ حَتَّى جَاءَ بِلَالٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْغَدَاةِ، وَأَوْتَرَ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَوَسَطَهُ، وَآخِرَهُ. وَقَامَ لَيْلَةً تَامَّةً بِآيَةٍ يَتْلُوهَا وَيُرَدِّدُهَا حَتَّى الصَّبَاحِ وَهِيَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]».

وَكَانَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ.

أَحَدُهَا (وَهُوَ أَكْثَرُهَا): صَلَاتُهُ قَائِمًا.

الثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي قَاعِدًا وَيَرْكَعُ قَاعِدًا.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ قَاعِدًا، فَإِذَا بَقِيَ يَسِيرٌ مِنْ قِرَاءَتِهِ، قَامَ فَرَكَعَ قَائِمًا، وَالْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ صَحَّتْ عَنْهُ.

وَأَمَّا صِفَةُ جُلُوسِهِ فِي مَحَلِّ الْقِيَامِ، فَفِي «سُنَنِ النَّسَائِيِّ»، عَنْ عبد الله بن شقيق، عَنْ عائشة قَالَتْ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي مُتَرَبِّعًا**». قَالَ النَّسَائِيُّ: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ غَيْرَ أَبِي داود؛ يعني: الحفري، وأبو داود ثِقَةٌ، وَلَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ خَطَأٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٣١٧ ـ ٣٢١)، باختصار.



سورة المدثر

سورة (المدثر)، سورةٌ مكيةٌ من أوائل ما نزل من القرآن. سمِّيت بهذا الاسم لاستهلالها بهذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

مقاصد السورة:

- إثبات رسالة النبي ﷺ وما تتضمَّنه من النذارة.
- بيان حقيقة القرآن.
- إثبات المعاد.

ولا ريب أن هذه المقاصد من المقاصد العظام التي كان النبي ﷺ يلحّ عليها في الفترة المكية، ويجاهد عليها كفار قريش.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر: ١ ـ ٣٠].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، خطابٌ، ونداءٌ من الله ﷻ لنبيِّه ﷺ، الذي تغشّى بثوبه.

قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، قال العلماء: نُبِّئ النبي ﷺ بـ(اقرأ)، وأُرسِل بـ(المدثر)، وذلك أن بين النبوة والرسالة، فرق، وقد غلط من قال: إنه لا فرق بين النبي والرسول، والدليل على وجود الفرق، أنَّ الله تعالى قال في سورة (الحج): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فدلَّ ذلك على أن الرسول غير النبي، لكن يجمعهما معنى الإرسال؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾؛ فالرسول مُرسل والنبي مرسل، لكن بينهما فرق، ومما يدل على وجود فرق قوله تعالى في وصف موسى وإسماعيل: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم: ٥١، ٥٤].

وقد اختلف العلماء في الفرق بين النبي والرسول، على أقوال، أشهرها:

القول الأول: أنَّ النبي من أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه، وأنَّ الرسول من أوحي إليه بشرع، وأُمِر بتبليغه، وهذا القول قد قال به جمعٌ من العلماء، لكن يشكل عليه: كيف يوحي الله تعالى إلى عبدٍ من عباده بشرعٍ، ثُمَّ لا يأمره بالتبليغ؟!، إذا كان الله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على العلماء، وهم أدنى رتبة من الأنبياء، بالتبيان، وعدم الكتمان، فكيف بالأنبياء؟! قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقد أخبر النبي ﷺ: «**بأن يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ**»(١)، مما يدل على أنه قد دعاه، فلا يتوجه هذا التفريق.

القول الثاني: إنَّ الرسول من أُوحِي إليه بشرعٍ جديد، وأُمر بتبليغه، وأنَّ النبي من أُوحي إليه بشرع رسولٍ قبله، وأُمِرَ بتجديده. وهذا القول له حظٌّ من النظر؛ لأنَّ الناظر في أنبياء بني إسرائيل يجد أنهم يعملون بالتوراة

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١١٥٥٨).

المنزلة على موسى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، فهم بمنزلة المجدِّدين.

لكن يشكل أيضًا على هذا التفريق قول الله ﷻ في قصة مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤]، فسمَّى يوسف رسولًا، مع أن يوسف كان يعمل بشريعة يعقوب، ولم يكن قد أتى بشرعٍ جديد؛ حتى إنه قال لإخوته لما أراد أن يستبقي أخاه بنيامين: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ [يوسف: ٧٤، ٧٥]، كما في شريعة يعقوب، فلم يكن قد أتى بشرعٍ جديد، ومع ذلك سمَّاه الله رسولًا؛ بل إنَّ كل من ذُكِروا في القرآن رسل، لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر: ٧٨]، فجميع المقصوصين على النبي ﷺ رسل.

القول الثالث: ولعله أقربها إلى الصواب، قول من قال: إنَّ الرسول من يُبعث إلى قومٍ مخالفين، وإنَّ النبي من يُبعث إلى قومٍ موافقين؛ فالرسول من يُبعثُ إلى قومٍ مخالفين يدعوهم إلى الدخول في الدين، والنبي يُبعث في قومٍ مؤمنين موافقين لتعليمهم، والحكم والقضاء بينهم، ونحو ذلك.

وهذا، عند التأمل، أقرب الأقوال، فإن المتتبع يجد أنَّ الأنبياء يكونون في أقوامهم مجددين لدينهم، بينما الرسل يدعون أقوامًا آخرين. حتى يوسف عليه السلام كان يدعو آل فرعون، إلى دين الله، وداود وسليمان كانا يقاتلان في سبيل الله، ويدعوان الأمم الأخرى؛ كما دعا سليمان ملكة سبأ. وأنبياء بني إسرائيل من جنس من ذكر الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فذلكم النبي كما في كتبهم: هو

«صموئيل»، ويسمُّون حقبة الأنبياء بين موسى وداود عليهما السلام، عهد القضاة؛ لأنهم كانوا يقضون بين الناس، بوحيٍ من الله، وعمل بالتوراة.

والنذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف، والبشارة: هي الإخبار بالأمر السَّار، وأنبياء الله مبشرين ومنذرين، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، وإنما غلَّب النذارة في هذه الحال؛ لأنَّ اتقاء المرهوب، مقدمٌ على تحصيل المطلوب. فحال القوم يستدعي النذارة قبل البشارة؛ لكي يتخلوا عما هم فيه.

وأمره ﷺ بالقيام، يدل على أنَّ الدعوة تحتاج إلى جهد، وأن ينفض الإنسان عنه الدعة والسكون.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾، هذا هي الأوامر الثلاثة التي هي مضامين الرسالات الإلٰهية؛ فأولها تعظيم الربّ ﷻ، فلا بُدَّ للداعي إلى الله ﷻ من زرع تعظيم الرب في القلوب، لا ينبغي أن يتشاغل الداعي إلى الله ﷻ بالفروع، والمسائل الهامشية، قبل أن يزرع تعظيم الله وإجلاله في القلوب؛ لأنَّ هذا هو أساس العبودية.

قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، الطهارة يراد بها الطهارة المعنوية، والطهارة الحسية؛ فالطهارة المعنوية تكون من الشرك، والبدعة، والطهارة الحسية تكون من النجاسات والقذارات، وكِلَا الأمرين مطلوب. وإنما عبَّر بالثياب لأنها تلابس الإنسان، والعرب تعبر بهذا، وقد تكني به عن أمرٍ معنوي كما قال القائل:

فإني بحمد اللّٰه لا ثوب ذلةٍ   لبستُ ولا من ريبةٍ أتقنعُ

فالمقصود بالثوب هنا ليس قماشًا يكتسيه، وإنما حالٌ يتلبس بها، فأمر الله نبيه بالتخلي والتطهر من أمرين:

أحدهما: التَّطهُّر من النجاسة المعنوية وهي الشرك، وليس ذنبٌ

أعظم من الشرك، فإنه أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، ولا أسوأ منه حالًا: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١]، ولا أشأم منه عاقبةً ومآلًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]. فهذا أعظم ما يجب أن يُتطهر منه، وما عُبِد الله بحسنةٍ أفضل من التوحيد، ولا عُصِي الله بذنبٍ أعظم من الشرك.

الثاني: التَّطهُّر الحسِّي، وهو أن يتطهر الإنسان من النجاسات، والقاذورات؛ كالبول، والغائط، وما شابههما، فإنَّ ديننا مبنيٌّ على النزاهة والطهارة. والطهارة شرعًا: رفع الحدث، وإزالة الخبث، وهي من شروط صحة الصلاة، فلا تصح صلاة أحد إلا بعد إزالة الخبث عن ثوبه، وبدنه، وبقعته، ورفع الحدث الأصغر بغسل أعضاء الوضوء الأربعة، ورفع الحدث الأكبر بالغسل. أو التيمم في حال العجز عن الوضوء، أو الغسل.

ويدخل في تطهير الثياب رفع الإزار، فلا يكون مُسبلًا يمس الأرض، وتلحقه القاذورات، والنجاسات. ولما رأى عمر رضي الله عنه غلامًا من الأنصار، جاء يعوده في مرض موته، رأى إزاره مسترخيًا قال: (يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ)[1]. ولا ريب أنَّ الإسبال لا يجوز؛ بل هو من الكبائر.

قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، (الرجز) هي الأصنام، وفي قراءة بالسين، (الرجس)، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]، وقال بعضهم: إذا كانت بضم الراء فهي بمعنى الأصنام، وإذا كانت بكسرها، فهي بمعنى النجاسة. فأمر الله نبيَّه ﷺ بهجر عبادة الأصنام. ولا ريب أنه لا يمكن عبادة الله عز وجل إلا بالتخلي عن

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٧٠٠).

الشرك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فلا يمكن عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فهما قضيتان متلازمتان. فمن أشرك بالله، وادَّعى التوحيد، لم ينفعه توحيده، ولو ملأ الجو تهليلًا. من أشرك بالله؛ بأن دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، فهو مشركٌ بالله ولو ملأ الجو بلا إله إلا الله. لا بُدَّ من التخلية قبل التحلية؛ فالتخلية: تنقية القلب وتطهيره من أدران الشرك، والتحلية: عمارته ببهجة التوحيد.

قوله: ﴿فَاهْجُرْ ۝٥﴾؛ أي: اجتنب وانبذ، وهذا دليلٌ على أنه لا بُدَّ من المجاهرة والاستعلان بذلك، وأنَّ هذه ليست من القضايا المصلحية، القابلة للتأجيل، فلا يسوغ أن يقول: لا أبادؤهم بالتوحيد، لا أصدمهم بإنكار معبوداتهم، وشركياتهم، كلا! هذه قضية مفصلية، مبدئية، أولية، لا يجوز أن يقدَّم عليها شيء.

قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾، أدَّب الله تعالى نبيَّه ﷺ بهذا الأدب، وللعلماء في توجيهها قولان:

القول الأول: لا تمُنَّ وتُدِلَّ بعبادتك على الله ﷻ، وتستكثرها، وهذا خطابٌ له ولغيره. فإن من الناس من إذا عمل عملًا صالحًا داخله شيءٌ من الزهو والعجب بنفسه، وظن أنه قدم أمرًا عظيمًا، فيقال له: المنُّ لله، والفضل لله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨]؛ فالمن لله، فلا تستكثر عملك على ربك، فإنه يعود عليك، وهو وفقك إليه.

القول الثاني: لا تطلب عوضًا وأجرًا على دعوتك؛ كما قال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦]، ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١].

قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾، في هذا تنبيهٌ بليغٌ على أنّ من تصدى لهذه الأعباء العِظام، والمهام الجِسام، فهو بحاجة إلى الصبر، فلا بُدَّ أن يصبر على الأذى القولي والأذى الحسي، فسيطاله من ذلك الشيء الكثير. وهذا ما وقع لنبينا ﷺ، فعن عَبْدَ اللهِ بْن مَسْعُودٍ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)[١].

فالصبر عبادة، ويجب أن يخلص لله، لا تصبر لمجرد التجلد، وإظهار القوة، فمن الناس من يتصبر لدواعٍ خلقية، حتى لا يُحفَظ عنه أنه جزع، كقول الشاعر:

وتجلُّدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

ولا شك أنَّ الصبر محمدة، فهو من أمهات الأخلاق الكريمة، لكن الذي أمر الله به نبيه أن يجعل صبره لله، حتى إنه قدم الجار والمجرور ليدل على الاختصاص، فيكون قربةً وعبادة.

والصبر: لغةً: الحبس، واصطلاحًا: حبس النفس على ثلاثة أمور: حبسها على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها على أقدار الله المؤلمة. ومن حبسها على طاعة الله، مما يناسب السياق، الصبر على الدعوة إلى الله، وهذا يحتاج إليه الدعاة إلى الله ﷻ، الناصرين للسُّنَّة،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤٠)، ومسلم رقم (١٧٩٤).

القامعين للبدعة، معلِّمي الناس الخير، الآمرين للمعروف، الناهين عن المنكر، فلا يظنوا أنهم سيُقَابلون بالتِّرحاب، والتصدير، وتقبيل الرؤوس؛ بل الأحرى أن يطالهم أذًى معنوي، وأذًى بدني.

قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾، بعد أن أمر الله نبيَّه ﷺ بالصبر على ما يلقى من أذى قومه، واساه بأن هؤلاء المعتدين الظالمين وراءهم يومٌ ثقيل، يفجؤهم بالنقر في الناقور؛ أي: النفخ في الصور، والنافخ والناقر هو إسرافيل عليه السلام، والنفخة المقصودة هنا: هي النفخة الثانية. ووصف ذلك اليوم بالعسر، وحسبك بشيءٍ سمَّاه الله عسيرًا! ونبَّه على أنَّ عسره على الكافرين، فلا يُسر يكتنفهم فيه البتة.

قوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾، ما أعظم هذا التهديد! وما أشد هذا الوعيد! أن يقول الله لنبيِّه: ﴿ذَرْنِى﴾، كأنما يقول: خلِّ بيني وبينه، كأنما يقول: لا تشفع له، لا تدعُ له. وما ظنك بأحدٍ قد أراد الله به سوءًا وشرًّا؟ والمقصود به: الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان من صناديد قريش، ومن كبارها وأشرافها، وقد سمع قراءة النبي ﷺ يومًا صدر سورة (غافر)، فعجب عجبًا شديدًا من القرآن، وكان العرب يعتنون بالكلمة، والقصيدة، والمثل، أمَّةٌ ذواقة، أمَّةٌ تتأثر بالكلام، وتتذوق المعاني، فخافت قريش أن يُسلِم الوليد، فإنه لو أسلم لأسلمت قريش كلها. روى ابن جرير بسنده، عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قُحافة رضي الله عنه، يسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة، فو الله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بِهَذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبأنّ قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل، قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة،

قال: ألستُ أكثرهم مالًا وولدًا؟ فقال له أبو جهل: يتحدّثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قُحافة، لتصيب من طعامه، قال الوليد: أقد تحدثت به عشيرتي، فلا يقصر عن سائر بني قُصيّ، لا أقرب أبا بكر، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ إلى ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

وروى بسنده عن عكرِمة، أن الوليد بن المُغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أي عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لِمَ؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرّض لما قِبَله، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا، يعلم قومك أنَّك مُنكر لما قال، وأنك كاره له؛ قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه لَيَعْلُو ولا يُعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه؛ فلما فكَّر، قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت[1].

قوله: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾، هذه نِعَم أفاضها الله تعالى على الوليد، فقابلها بالكفران، مع أنه خرج من بطن أمه وحيدًا، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا. فكان له مالٌ طائل، يقال: بين مكة والطائف؛ من بساتين، وأنعام، والمال الممدود: هو المال الذي له مغل مستمر؛ كالأنعام التي تستولد، والزروع والثمار التي تكثُر وتتجدد، والتجارة التي تربح وتزدد.

قوله: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾، أعطاه الله عشرةً من الولد، منهم خالد بن الوليد، ووصفهم بالشهود، فإن نعمة البنين نعمة، وكونهم

---

(١) الأثران في جامع البيان، ت: شاكر (٢٤/ ٢٤).

شهودًا نعمةٌ أخرى؛ أي: يكونون بين يديه، يحتفُّون به، ويصحبونه في ذهابه وإيابه، ويحضرون معه المحافل، ويشهدون معه المواطن. ومن الناس من يكون له أبناء كثر، لكن متفرقين في الأقطار، أو لا يصحبون أباهم، ولا يشهدون مجالسه، فلا يهنأ بهم، ولا ينتفع بخدمتهم، ولا يتذوق طعم النعمة بهم. فبهذا امتنَّ الله على الوليد.

فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. فأحسن ما يتزيَّن به الإنسان؛ أن يكون له مالٌ طائلٌ وولدٌ شاهد.

قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وطَّأت له أكناف الأرض، ويسَّرت له أسباب العيش؛ حتى بلغ السيادة في قريش والشرف. وهذا من آثار الربوبية؛ لأنه الذي رَبَّى خلقه بنعمه، فهو لا يمنع نعمته، وفضله، الكافر؛ بل ينعم عليه في الدنيا، لكن ذلك يكون وزرًا عليه في الآخرة؛ لأنه لم يقابل هذه النعمة بالشكر. فلا يستغرب الإنسان ذلك؛ لأن هذا مقتضى الربوبية؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

قوله: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾، مع تكذيبه وجحوده، يطمح للمزيد.

قوله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾: أي: ليس الأمر كما يظن، ولا يستحق ذلك، بسبب عناده، وتكذيبه بآيات الله.

قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾، هذا تهديدٌ ووعيدٌ من الله أنه سيصعِده جبلًا في النار، حتى إذا بلغ منتهاه خرَّ إلى أسفله، فيعود مرةً إثر مرة. وقيل عذابًا متصاعدًا، متزايدًا، لا هوادة فيه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾؛

أي: لُعِن، وكرر ذلك عليه ذلك. هذا وصفٌ من الله لحال هذا الوحيد العنيد، وهو يريد النيل من القرآن، وتهوينه في نفوس قريش. لقد فكر وأمعن في التفكير؛ لكن مسلكه في التفكير كان مسلكًا باطلًا خاطئًا، لا مسلك من ينشد الحق ويتحرَّاه، فلذلك أورده المهالك. وهكذا، كُل من لا يستنير بنور الله؛ من الفلاسفة، والمتكلمين، وغيرهم، ربما كانوا أذكياء، لكنهم لم يستنيروا بنور الله ﷻ فلم ينفعهم فكرهم وعقولهم؛ لأن العقل إذا لم يستنر بنور الله فإنه يضل. كما لو دخلت هذا المسجد ليلًا، وهو مُظلم، قد ترتطم بعمود، وقد تعثر بكرسي، أو بحامل مصاحف، أو بإنسان، رغم أنك تملك عينين، فإذا وجدت لوحة مفاتيح المصابيح، وأضأتها استنار المكان، وانتفعت بعينيك. فالعقل أداة التفكير، فلا يستقيم العقل إلا حينما يستنير بنور الله، فيكون عقلًا سليمًا، وأما إذا استقلَّ عن نور الله، وعن هدي أنبياء الله، فإنه يضلّ. وهذا ما آلَ إليه الوليد بن المغيرة، ومن سبقه، ومن لحقه من الفلاسفة، والمتكلمين، وإن كانوا ذوي ذكاء، وفطنة، وعلم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المتكلمين: «أوتوا ذكاءً ولم يؤتَوا زكاءً، وأوتوا فهومًا ولم يُؤتوا علومًا»؛ يعني: أن الآلة والأداة موجودة عندهم، ولكن التوفيق والهدى قد سُلبوا إياه![1].

قوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾، يرسم السياق صورةً مزرية، تبعث على السخرية لرجلٍ يتكايس، يدَّعي الروية، وعمق التفكير، وبُعد النظر، فهو يقطب بجبينه، وتظهر عليه مظاهر الاهتمام، ويتصنَّع الموضوعية، والبحث عن الحقيقة، ولعلها لاحت له، لكنه غلبت عليه شقوته، وأعماه كبره، وبطره الحق، فانتكس.

قوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾، تظاهر أمام العامة بإمعان

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

التفكير، وإعادة النظر؛ لكي يوهمهم بإنه مجتهد في الوصول إلى الحق، وإصابة كبد الحقيقة، وهي حركات وانفعالات مصطنعة. فلا تغتر ببعض هؤلاء الذين يتظاهرون بالكياسة، ثم يُضلّون عباد الله، فهذا تفننٌ في التغرير بالعوام.

والمشار إليه بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ القرآن، الذي امتدحه في أول الأمر بقوله: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة... إلخ»، فلما نخته قريش بنخوة الجاهلية، أراد استرضاءهم، فقال: «والله ما محمدٍ بكاهن، قد سمعنا سجع الكهان، فما قوله بكهانة، والله ما محمدٌ بمجنون، هل رأيتموه يصرع؟ ما كان يصرع، والله ما محمدٌ بكذاب؟ هل جربتم عليه كذبًا؟ والله ما جربنا عليه كذبًا»، كل الاحتمالات هذه فنيت، فما بقي إلا أن يصفه بالسحر[1].

قوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، بئس ما قال! بئس ما فاه به لسانه؛ أن وصف القرآن العظيم، كلام رب العالمين، بأنه سحرٌ يُؤثر، وإنه من قول البشر، لم يجد توصيفًا، وتكييفًا يتخرج به من مذمة قومه له إلا هذا الوصف الكاذب البائر.

أين المقدمات الصحيحة التي أنتجت له هذه النتيجة الفاسدة؟ تبحث عن الدليل فلا تجد شيئًا يستند عليه سوى أنه لم يمكنه أن يصفه بالسجع، ولا بالشعر، ولا يمكنه أن يصف قائله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالكذب، وهو الصادق الأمين. فما بقي له إلا أن يقول هو سحر! هذا ما أدى إليه تفكيره، وتقديره. وهكذا المكذبون المستكبرون، يستسهلون إطلاق التهم الفاجرة، ويرجمون بالغيب، دون دليل وبيّنة.

قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾، وهي النار، والإصلاء: بأن يُشوى فيها، فتكتنفه من جميع جهاته. توعَّد الله تعالى هذا المكذب بهذا الوعيد

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٤ ـ ٢٦).

الهائل، المروّع، المخيف، وهي سقر، التي تشويهم شيًّا، تقلب جلودهم وتحرقها، ثم يبدلهم الله جلودًا أخرى.

قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾، الاستفهام للتعظيم.

قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾، تلفح وجوههم، وأبشارهم وجلودهم كما قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾، أخبر الله ﷻ بأن النار عليها خزنة من الملائكة الكرام الذين أُعدّوا لهذه المهمة؛ فإن ملائكة الله تعالى لهم وظائف متنوعة، ولهم أعمال كثيرة، وإن كانت تجمعهم وظيفة واحدة، وهي العبادة والتسبيح، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦]. فمن ملائكة الرحمٰن من يتنزَّل بالوحي، وهو جبريل، ومنهم من يتنزَّل بالقَطْر؛ وهو ميكائيل، ومنهم من هو موكول بالأرواح، وهو إسرافيل؛ لأنه ينفخ في الصور، ومنهم من يقبض الأرواح، وهو ملك الموت، ومنهم من يتسوَّر على الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكَتبِ أربع كلمات، ومنهم من يقاتل مع المؤمنين، ومنهم ملائكة سيّاحون في الأرض، يبتغون مجالس الذكر. فأعمالهم كثيرة، متنوعة، لكنهم جميعًا يسبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون، ولا يسأمون، ولا يستحسرون. ومن مهام الملائكة: خزانة النار، وعدد خزنة النار تسعة عشر؛ وربما كان هذا عدد رؤسائهم ويكون تحتهم مزيد جنود.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أنَّ المخاطبة بالوصف الراهن لا غضاضة فيه؛ لأنه حكاية حال.

الفائدة الثانية: أنَّ المدثر والمزمل ليسا من أسماء النبي ﷺ؛ لأنه

وصف مجرد، وأسماء النبي ﷺ تدل على أوصاف كاملة تليق به، أما المدثر، والمزمل، فإنهما لا يدلان إلا على كمال ولا نقص. ومن المسلمين من يتقصد تسمية ابنه بمدثّر أو مزمل، ظنًّا منه أنه يسمّيه على اسم النبي ﷺ؛ والأمر ليس كذلك.

الفائدة الثالثة: إثبات الرسالة، وتضمّنها للنذارة.

الفائدة الرابعة: أهمية تعظيم الربّ، وتنزيهه عن الشركاء، وإجلاله في القلوب.

الفائدة الخامسة: وجوب التطهر الحسِّيّ والمعنوي.

الفائدة السادسة: وجوب البراءة من الأصنام وعابديها وعبادتهم، وإعلان ذلك.

الفائدة السابعة: النهي عن المنّ بالعمل واستكثاره، أو طلب العوض على الدعوة.

الفائدة الثامنة: حاجة الرسول ﷺ والمؤمنين إلى الصبر.

الفائدة التاسعة: وجوب إخلاص الصبر لله.

الفائدة العاشرة: إثبات النفخ في الصور، والنافخ فيه.

الفائدة الحادية عشرة: التذكير بالمعاد، والنذارة به.

الفائدة الثانية عشرة: عُسر يوم القيامة على الكافرين؛ وهذا بمنطوق الآية.

الفائدة الثالثة عشرة: يُسر يوم القيامة على المؤمنين؛ وهذا بمفهوم الآية.

الفائدة الرابعة عشرة: قبح التكذيب والجحود؛ سيّما إذا كان مسبوقًا بالإنعام.

الفائدة الخامسة عشرة: أنّ المال والبنون زينة الحياة الدنيا.

الفائدة السادسة عشرة: أنّ أفضل المال ما كان ممدودًا، له مَغَلٌّ دائم لا ينقطع.

الفائدة السابعة عشرة: أنَّ أفضل البنين من كان شاهدًا عند أبيه.

الفائدة الثامنة عشرة: إنعام الله تعالى على جميع خلقه، مسلمهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم.

الفائدة التاسعة عشرة: شدة غرور الكافر وطمعه.

الفائدة العشرون: شؤم الكِبْر والعناد للحق.

الفائدة الحادية والعشرون: أنّ الفكر الذي لا يستنير بنور الله يورِد صاحبه المهالك.

الفائدة الثانية والعشرون: شدّة عذاب الله للكافر العنيد ورهَقه.

الفائدة الثالثة والعشرون: الدعاء على الكافر المُبطل، وتكرار ذلك عليه، إذا تمحّض للباطل، وقامت عليه الحجة، وأبى وعاند. أما إذا كان لا يزال في طَوْر الدعوة، فإنه يدعى له بالهداية.

الفائدة الرابعة والعشرون: تظاهر المكذبين بالروية، والعمق، وبُعد النظر، والمعاناة في التفكير.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنَّ الاستكبار، وعدم التجرد للحق، يُفضي إلى الزيغ وفساد النتيجة.

الفائدة السادسة والعشرون: إطلاق المكذبين الدعاوى الفاجرة دون بيّنات.

الفائدة السابعة والعشرون: مشابهة القائلين بخلق القرآن للمشركين في دعواهم. فقد وُجد في القرن الهجري الثاني، إبان الدولة العباسية، من قال بخلق القرآن ـ وهم المعتزلة ـ، وناصرهم على ذلك بعض خلفاء بني العباس؛ لأنهم ينكرون أنَّ الله تعالى متصفٌ بصفة الكلام، فجعلوا كلام الله مخلوقًا! فما أشبههم بالذي قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

الفائدة الثامنة والعشرون: وعيد الله الشديد للمكذبين القائلين عليه بغير علم.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾ [المدثر: ٣١ ـ ٥٦].

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾

لما أخبر الله نبيَّه بعِدَّة خزان النار، تفكَّه المشركون بذلك وصاروا يستهزئون، حتى إن أحدهم، وهو الحارث بن كَلَدة الجمحي، ويكنى أبو الأشدّين؛ إذ كان قوي البنية، مصارعًا، قال لقريش: اكفوني اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر. وقال أبو جهل لقريش: كل عشرة منكم يقومون على واحد فندفعهم. هكذا خُيّل إليهم! يظنون أنَّ الملائكة من جنسهم، وأنهم يستطيعون مغالبتهم، واغترّوا، وصاروا يتفكهون بالكلام الذي يعارضون به كلام الله ﷻ[1].

فبيَّن الله ﷻ في هذه الآية الطويلة الحكمة من هذا العدد، وضمَّنها خمس حِكَم لجعل عدتهم تسعة عشر:

(١) تفسير الطبري (٢٤/٢٨ ـ ٣٠).

إحداها: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: اختبارًا للكافرين، حيث حملتهم على مزيدٍ من التكذيب، وحصول مزيدٍ من العذاب؛ لأن الفتنة تأتي بمعنى العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]؛ أي: ذوقوا عذابكم. فهي في حق الكفار اختبار لهم، وزيادة ضلال، وزيادة عذاب.

الثانية: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنه مذكور في كتب اليهود والنصارى، أنَّ عدة خُزان النار تسعة عشر، فإذا جاء النبي الخاتم بهذا الخبر كان في ذلك زيادة يقين لهم بصدق الخبر، وصدق المخبر؛ لموافقته لما جاء به أنبياؤهم.

الثالثة: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾؛ لأن المؤمن يزيد إيمانه بزيادة التصديق؛ فكلما جاءه خبر عن الله وعن رسوله فآمن به، زاد إيمانه، والإيمان يزيد وينقص.

الرابعة: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: تنمحق الريبة، ويرتفع الشك والالتباس؛ وذلك لأن المؤمن يؤمن بالغيب، لا بالعقل والقياس؛ بل بما يأتيه من عند الله؛ فهو يؤمن أولًا، ويتفكر ثانيًا. أما من جعل عقله هو المقياس وقال: ما وافق العقل قبلته، وما ناقض العقل رددته؛ فهذا ليس مؤمنًا بالله، هذا مؤمن بعقله؛ فالإيمان بالله يقتضي التسليم، والانقياد، والقبول، وعدم الاعتراض على النصوص؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور: ٥١].

فالمؤمن الحق، لا يقول: لِمَ كانوا تسعة عشر؟ قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فإذا بلغك الخبر عن الله فاقبله، وصدِّقه، واطلب الحكمة من ورائه، فإن ظهرت لك الحكمة فذاك، وإن لم تظهر فاقطع بوجود حكمة غيبية، كما أنك لا تعلم

لَمَ خلق الله السماوات سبعًا، والأرضين سبعًا؟ هذه حكمة كونية. ولا تعلم لماذا شرع الله الطواف حول البيت سبعًا، وبين الصفا والمروة سبعًا، ورمي الجمار سبعًا، وهذه حكمة شرعيّة. هناك حكمة، لكنها غير معلومة بالنسبة لنا، ويكفي أنها تدل على إيمان من قبِلها وصدّقها، وعلى كفر من يعترض على هذه التقديرات ويقول لِمَ؟ وكيفَ؟ فإن من شرط الإيمان القَبُول، والإذعان، والرضا، والتسليم، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ويجب أن يعوِّد الإنسان نفسه على ذلك، ويتأدَّب بآداب الإيمان، ففي الصحيح أنه صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهذَا؛ إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**». فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ! بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ فَقَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ** ـ وَمَا هُمَا ثَمَّ **وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي**». فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ! ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، فقَالَ النبي ﷺ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ** وَمَا هُمَا ثَمَّ»[(١)]. هكذا حَكَم ﷺ حكمًا غيابيًّا على صاحبيه! لأنه يعلم أنه بمجرد ما يبلغهما الخبر، سيقبلانه، ولا يردَّانه، ولا يستنكرانه ولا يعترضان عليه.

وهكذا في الأحكام، ثمّ إن بدا للمؤمن أن يسأل، على سبيل الاستفهام والاستخبار، فلا حرج، فإن كانت الحكمة منصوصة فالحمد لله، وإن كانت الحكمة تعبدية، رضي وسلَّم.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٧١)، ومسلم رقم (٢٣٨٨).

والواجب على أهل العلم والإيمان أن يجتهدوا في إزالة الشكوك، ودحض الشبهات، حتى لا تشوش على عقائد الناس، وتفسد عقولهم. كما ينبغي للإنسان إذا كان في نفسه ريب، أو في قلبه حسكة، أن يسعى في إزالتها، ويسأل أهل الذكر عمَّا لا يعلم، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، وقال نبيُّه ﷺ: «**فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ**»[١].

الخامسة: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ﴾، من كان في قلبه مرض، وزيغٌ، وشبهة، يعترض: لماذا ضرب الله هذا مثلًا؟ لماذا خص الله هذا العدد؟ لماذا قدّر الله هذا التقدير؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد مايز الله بين طريقة الزائغين وطريقة الراسخين، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، فلتكن من أولي الألباب.

لهذا عقّب الله تعالى على هذه المواقف المتباينة من الناس بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾، هكذا يبتلي الله عباده بأنواع البلاء، فيتمحّض المؤمنون من الكافرين، والصادقون من الكاذبين، والراسخون من الزائغين، ويتبيّن الناس، لولا الفتنة والابتلاء ما حصل ذلك، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٣٦)، وأحمد برقم (٣٠٥٦).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] فعليك أيها المؤمن، إذا جاءك خبر الله، أو خبر رسوله ﷺ أن تقرّ به عينًا، وتطيب به نفسًا، ولا تعترض عليه بأنواع الاعتراضات، ولا تتجنى عليه بأنواع التأويلات؛ بل تعتقد أن الله ﷻ أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا من خلقه، وأحسن حديثًا، فلا مسوغ أن تستدرك على النص، وأن تحمله على غير مُراد قائله، هذا تجنٍّ وعدوان على النصوص، وهذا ما وقع من المتكلمين الذين أوّلوا آيات الصفات وغيرها. أما أهل السُّنَّة والجماعة، فقد اعتصموا بنص الكتاب والسُّنَّة، وعلموا أنَّ كلام الله ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: كون هؤلاء تسعة عشر، لا يعني أنَّ هؤلاء فقط هم جنود ربك! لا يعلم جنود ربك إلا هو، أي: لا يعلمهم؛ عددًا، وصفة، إلا هو سبحانه؛ لأن الملائكة عالمٌ غيبي. وقد قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]. وعن ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ[1]، وقال: **«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»**[2]. وعن عائشة رضي الله عنها، عن رَسُولَ اللهِ ﷺ، أنه قَالَ عن جبريل: **«لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»**[3]. وقال ﷺ: **«إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٠). (٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٧٢٧).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧).

أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ»(١)، ومعنى أطّت: أي: ثَقُلَت حتى سُمِعَ لها أطيط كأطيط الرَّحل، الصادر من السيور والحبال، إذا علاه الراكب. والصُّعُدَاتِ، جمع صعيد؛ يعني: ظاهر البلد وضواحيه. وتجأرون إلى الله تعالى: أي: تضرَّعون. فهذه أمور غيبية لا نحسها، يراها، ويسمعها نبينا ﷺ ولا نسمعها. قال أبو ذَر راوي الحديث: «وَدِدت أنني شجرة تعضد»؛ يعني: تُقطع وينتهي أمرها.

كما نبَّه النبي ﷺ على كثرتهم بقوله: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ**»(٢)؛ يعني: لا تأتيهم النوبة مرةً أخرى لكثرةِ ملائكة الرحمٰن.

قوله: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: النار، ذكرها موعظة للبشر.

قوله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾، كلا هنا، بمعنى حقًّا. والقمر معروف.

قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ حال انقضائه، وفيها قراءتان ثابتتان: (إِذْ) و(إِذَا).

قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: بعد إقباله وإسفاره.

هذه ثلاثة أقسام بآياتٍ كونيةٍ مشاهدة. ولله سبحانه أن يُقسم بما شاءَ من مخلوقاته، وليس لأحدٍ من الخلق أن يقسم إلا بالله، فمن حَلف بغير الله فقد كفر أو أشرك. والله تعالى يقسم بهذه المخلوقات العظيمة، والأحوال البديعة؛ لأنها مظاهر ربوبيته، وقُدرته، سبحانه وبحمده؛ القمر، والليل، والصبح.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢١٥١٥)، والترمذي رقم (٢٣١٢).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٦٤).

قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾، وهي النار التي جرى ذكرها، وهذا جواب القسم. و(الْكُبَر): الأمور الطوام العظام، التي تُخشى ويُرتجفُ من ذكرها.

قوله: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾، النذارة: هي الإخبار بالأمر المَخوف، فأي نذارة أعظم من هذه النذارة بالنار اللواحة للبشر، وفيها من صنوف العذاب ما تقشعر له الأبدان! قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ٢١، ٢٢]، فأما المؤمنون فيتَّعظون وينتفعون بالنذارة ويقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾، هذا دليلٌ على أنَّ للعبد مشيئة وإرادة وفعل حقيقي؛ لأن الله تعالى أسند المشيئة والفعل إليه، فلا تعارضَ بين هذه الآية وبين قوله آنفًا: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. فعند أهل السُّنَّة والجماعة: أنَّ الله ﷻ قدَّر المقادير منذ الأزل، وأخفاها عن عباده، وأظهر لهم الشرع وأعطاهم العقول، والجوارح، والإرادات، والأدوات، والقُوى، التي يتمكنون بها من الفعل أو الترك، وقال: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]؛ فالقدر كتاب مكنون، والشرع كتاب معلوم. ومعنى (يتقدم)؛ أي: يمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهيه، ومعنى: (يَتَأَخَّر) ضد ذلك؛ فيُتبع نفسه هواها. فلا تعارض بين تقدير الرب، وفعل العبد.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾، كل من ألفاظ العموم؛ أي:

(١) أخرجه البخاري رقم (١٨٢).

مرتهنة، ومعتقلة بعملها. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣]؛ يعني: كل إنسان ملزم بما طار من عمله، يتقلده في عُنقه، وعَبَّر بالعُنق؛ لأن العُنق أوثق ما يكون من الإنسان.

قوله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾، ربما كان الاستثناء مُتصلًا، وربما كان منفصلًا؛ فإذا كانت (كل) تشمل نفس المؤمن والكافر، فكلهم مرتهنون بأعمالهم، فيكون الاستثناء متصلًا، فأصحاب اليمين غير مرتهنين، ولا مُعتقلين بأعمالهم؛ بل قد نجوا وانفك رهنهم. وإن قلنا: إنَّ المراد نفوس الكفار خاصة؛ فالاستثناء منفصل، بمعنى بل، فكأنه استأنف الكلام. والمؤدّى في النهاية يؤول إلى شيءٍ واحد؛ وهو أن المسيئ مُرتهنٌ بإساءته، والمُحسن مَجزيٌ بإحسانه. وأصحاب اليمين: هم المؤمنون، كما سمَّاهم الله في سورة الواقعة: (﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الواقعة: ٢٧]؛ لأنهم يؤتَون كتبهم بأيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١].

قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾؛ أيَّ: أن المؤمنين يوم القيامة حينما يستقرون في الجِنان، يتذكرون أولئك الذين كانوا يُنازعونهم، ويُكذبونهم، ويُؤذونهم، وينالون منهم، حتى إنَّ أحدهم يُحدِّث أصحابه في الجنة قائلًا: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥١ ـ ٥٧]، وقال عن عموم أهل الجنة: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤ ـ ٣٦].

قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾، ما أدخلكم في النار؟ فيجيبون ـ بهذا ـ بجواب يتضمن موجبات دخول النار الأربعة:

أولها: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾، وفي هذا دليلٌ على أنَّ ترك الصلاة كُفْرٌ مُخرجٌ عن الملة؛ لأن الذي يستنكف ويستكبر عن الصلاة لا إيمان في قلبه. وهذا أحد الأدلة التي استدل بها من قال بكفر تارك الصلاة، ولو تهاونًا وكسلًا.

وقد عدَّ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذه الآية الدليل الثاني من أدلة مكفِّري تارك الصلاة، ووجهًا بقوله: (فلا يخلو؛ إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر، وجعلهم من المجرمين، أو مجموعها، فإن كان كل واحد منها مستقلًّا بذلك؛ فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة، فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم، وعقوبتهم. وإلا فكل واحد منها مقتضٍ للعقوبة، إذ لا يجوز أن يضم ما لا تأثير له إلى ما هو مستقل بها.

ومن المعلوم أن ترك الصلاة، وما ذكر معه، ليس شرطًا في العقوبة على التكذيب بيوم الدين؛ بل هو وحده كافٍ في العقوبة. فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك، إذ لا يمكن قائلًا أن يقول: لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة. فإذا كان كل واحد منها موجبًا للإجرام، وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين، كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر. وقد قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: ٢٩]، فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين)[(١)].

الثاني: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾، يمنعون الزكاة الواجبة المستحقة للمساكين. فلا صلاة، ولا زكاة؛ لا عبادة للخالق، ولا نفع للمخلوقين.

---

(١) الصلاة وأحكام تاركها (ص٣٨)، ط: المكتب الإسلامي.

الثالث: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾؛ يعني: أنهم يهرفون بما يعرفون وما لا يعرفون، ويكذبون، ويفترون. والخوض: القول بغير علم، بمجرد تَخرُّص وتخمين.

الرابع: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾، كانوا ينكرون البعث والمعاد.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: لم نزل على هذه العقيدة الباطلة، والسيرة الذميمة حتى فاجأنا الموت؛ فاليقين هو الموت، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: من هذا شأنه لا يمكن أن تقبل فيه شفاعة، لقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]. والله ﷻ لا يأذن بالشفاعة للمشرك، ولا يرضى عنه، فلذلك لا تنفعهم شفاعة الشافعين. ودلَّت الآية بمفهومها على أنَّ هناك شفاعة تنفع، قال العلماء: إن الشفاعة نوعان:

شفاعة مُثبتة، وشفاعة مَنفية؛ فالشفاعة المُثبتة ما اجتمع فيها شرطان: أذن الله للشافع أن يشفع، الثاني: رضاه عن المشفوع له؛ لأن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا؛ ملوك الدنيا لا يشعر أحدهم إلا وقد ودخل عليه داخلٌ يشفع لفلان، دون إذنٍ مُسبق، ثم قد يقبل شفاعته رغبة، أو رهبة. أما شأن الله فليس كذلك. فإن قال قائل: ما فائدة الشفاعة إذا كان لا بد من إذنٍ مُسبق، ورضا؟ فالجواب: فائدتها إكرام الشافع، حيث يجعل الله له هذه المنزلة التي يتبين بها فضله عند الله، على سائر الناس.

أما الشفاعة المنفية، فهي الشفاعة التي ادَّعاها المشركون لمعبوداتهم، حيث زعموا أنَّ آلهتهم شفعاء عند الله ﷻ، وقالوا: ﴿مَا

نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهذه شفاعة باطلة منفية، لا تغني عنهم شيئًا.

قوله: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾، هذا استفهام إنكاري، وتثريب عليهم لإعراضهم عن الموعظة، والتذكرة التي بها صلاح أمورهم، واستقامة أحوالهم، فيعرضون عنها، ويستنكفون، ويشيحون بوجههم. والتذكرة هي ما تضمنه القرآن من هدايات وعظات.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾، هذا تشبيهٌ يبعث على السخرية بهم؛ يقول: ما أشبههم حينما يدعوهم الداعي، بقطيع الحمر الوحشية التي رأت أسدًا، أو راميًا، فانطلقت نافرة تجري في كل اتجاه. والقسورة: قيل: هو اسم الأسد بالحبشية، وقيل: هو الرامي، أو الصياد.

قوله: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢﴾؛ يعني: أنَّ القوم يتبجَّحون، ويعجِّزون النبي بطلب الآيات الخاصة، ويشترطون أن يؤتى كل واحدٍ منهم كتابًا خاصًّا به، منشورًا! كما قال ربنا ﷻ عمن كان قبلهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: ٩٣]. هذه اشتراطات تعجيزية، يريدون بها التنصُّل من قَبول الحق.

قوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣﴾، هذا هو المانع لهم عن قَبول الحق؛ أنهم لا يؤمنون بالمعاد، ويظنون أنها مجرد الحياة الدنيا، كما قال قائلهم: «بطونٌ تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر». فهمُّهم الاستمتاع، واتباع الهوى؛ لأنهم لا يخافون وعيد الله، ولا يصدِّقون أنبياء الله. هذه عقيدة الوثنيين، والملاحدة.

إن الإيمان بالمعاد أثره عظيم في استقامة الإنسان، واهتداء قلبه، فمن لا يخاف الآخرة لا يعمل صالحًا، ولا يقبل هدى الله. أما من

كان يرجو الله واليوم الآخر، فإنه يستعد ويتهيأ للحياة الأخرى.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾؛ يعني: ما تقدم في هذه السورة، أو القرآن بمجمله.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾، تكرر إثبات المشيئة للإنسان، ومسؤوليته، وأن الثواب والعقاب مرتّبٌ على عمله، كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

فالإيمان بالقدر ينتظم إثبات مشيئة الله وقدره السابق، وإثبات مشيئة العبد وفعله الحقيقي، الذي به يأتي ويذر، وعليه يترتب الثواب والعقاب. وهي لا تخرج عن المشيئة السابقة، والقدر السابق. فلا تعارض بين الشرع والقدر.

قوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ يعني: أنه سبحانه أهل أن يُتقى، حقيقٌ أن يتقى، بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

قوله: ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾؛ يعني: أنه سبحانه أهل لأن يغفر الذنوب، ويصفح عن السيئات، ويتجاوز عن الخطيئات. عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ عَمِلْتَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطَايَا وَلَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، جَعَلْتُ لَكَ قُرَابَ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً**»[1].

وقد أثبت الله اتصافه بالصفات، خلافًا للمعتزلة الذين يجعلون أسماء الله أعلامًا محضة، وينكرون ما تضمَّنته من الصفات. فهو الغفور وله المغفرة، كما أنه الرحيم وذو الرحمة، وهو العزيز وله العزة وهكذا.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٣١١)، وهو صحيح على شرط الشيخين.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات خزنة النار من الملائكة، وهم الزبانية وإثبات عددهم.

الفائدة الثانية: الحكمة من جعل خزنة النار ملائكة، لشدَّتهم وقوَّتهم.

الفائدة الثالثة: الحكمة من جعل عدَّتهم تسعة عشر، أمورٌ خمسة: فتنة للكافرين، ويقينًا لأهل الكتاب، وزيادة إيمان للمؤمنين، ورفع الريبة عنهم، وإضلال المنافقين والكافرين.

الفائدة الرابعة: تعدد الحكم والمقاصد في الأمر الواحد.

الفائدة الخامسة: وجوب قَبول خبر الله ورسوله، وعدم معارضته بالرأي والقياس.

الفائدة السادسة: أنَّ من أفعال الله ما حكمته تعبدية خفية، ليحصل الابتلاء بالتصديق واليقين.

الفائدة السابعة: أنَّ اليقين درجة أعلى من مجرد العلم؛ لأن أهل الكتاب قد علموا، لكن مجيء هذا زادهم يقينًا.

الفائدة الثامنة: إثبات زيادة الايمان ونقصانه.

الفائدة التاسعة: الرد على المرجئة، والوعيدية، النافين لزيادة الإيمان ونقصانه، القائلين: إن الايمان شيء واحد؛ إما أن يوجد كله، أو يعدم كله.

الفائدة العاشرة: التلازم بين اليقين وعدم الريب.

الفائدة الحادية عشرة: التلازم بين الكفر والنفاق والريب.

الفائدة الثانية عشرة: أن تحصيل اليقين، وزيادة الايمان، وطرد الشك والريبة، من أعظم المقاصد.

الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ القرآن العظيم هدًى وشفاءً للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

الفائدة الرابعة عشرة: الإضلال والهدى من الله.

الفائدة الخامسة عشرة: كثرة جند الله، وانفراده بالعلم بهم عددًا، وصفةً، وحالًا.

الفائدة السادسة عشرة: حصول الذكرى بما تضمنه القرآن من أمثالٍ ومواعظ.

الفائدة السابعة عشرة: مشروعية الذكرى لجميع البشر؛ مؤمنهم وكافرهم، مسلمهم، وكتابيهم.

الفائدة الثامنة عشرة: إقسام الله تعالى بما شاء من مخلوقاته، ودلائل قدرته.

الفائدة التاسعة عشرة: إسناد الأفعال إلى من قامت به.

الفائدة العشرون: تعظيم شأن النار والتخويف منها.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات مشيئة العباد في الكفر والإيمان، ودخولها تحت مشيئة الله.

الفائدة الثانية والعشرون: إثبات المسؤولية الشخصية وتحمل الإنسان تبعة أعماله وارتهانه بها.

الفائدة الثالثة والعشرون: نجاة المؤمنين وفكاكهم من الارتهان.

الفائدة الرابعة والعشرون: إثبات الجنة وأنها دار المؤمنين.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنَّ الكفر جريمة.

الفائدة السادسة والعشرون: تساؤل المؤمنين في الجنة عن الكافرين في النار.

الفائدة السابعة والعشرون: بيان موجبات النار الأربعة: ترك الصلاة، والزكاة، والخوض بالباطل، وإنكار البعث.

الفائدة الثامنة والعشرون: كفر تارك الصلاة، ولو تهاونًا وكسلًا.

الفائدة التاسعة والعشرون: أنَّ الكافر لا عَبَدَ الخالق، ولا نفع المخلوق.

الفائدة الثلاثون: إصرار الكافر على خصال الكفر حتى الموت.

الفائدة الحادية والثلاثون: نفي الشفاعة عن الكفار.

الفائدة الثانية والثلاثون: إثبات الشفاعة للمؤمنين.

الفائدة الثالثة والثلاثون: التشبيه الشنيع للكافرين المعرضين عنه بالحُمُر الوحشية النافرة من الأسد، أو من الرامي.

الفائدة الرابعة والثلاثون: تبجُّح الكافرين، وسؤالهم المطالب التعجيزية.

الفائدة الخامسة والثلاثون: تشابه قلوب المشركين في حججهم ومماطلتهم.

الفائدة السادسة والثلاثون: بيان حقيقة كفر الكافرين، وسر إعراضهم، وهو إنكارهم للمعاد.

الفائدة السابعة والثلاثون: أهمية الخوف من الآخرة، وأثره في استقامة العبد.

الفائدة الثامنة والثلاثون: أنَّ القرآن العظيم أعظم مذكر وواعظ.

الفائدة التاسعة والثلاثون: إثبات مشيئة العبد، ودخولها تحت مشيئة الله.

الفائدة الأربعون: استحقاق الله أن يتقى، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه.

الفائدة الحادية والأربعون: اتصاف الله بالمغفرة لمن شاء، سوى المشركين.

الفائدة الثانية والأربعون: إثبات صفات الكمال لله تعالى، والرد على المعتزلة المنكرين لها.





سورة القيامة

سورة مكيّة عظيمة، سمِّيت بهذا الاسم لوروده في مستهلها. **ولها ثلاثة مقاصد أساسية:**

الأول: إثبات المعاد.

الثاني: توثيق القرآن، وصونه، وحفظه.

الثالث: طبيعة النفس الإنسانية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾ [القيامة: ١ ـ ٤٠].

قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾، كثيرًا ما يرد هذا التعبير في القرآن. وقد اختلف المفسرون في توجيهه؛ فجعلها بعضهم لام القسم، بمعنى (لأقسم). والصواب أنها نافية وليست لام القسم؛ لأن لام القسم لا تدخل على فعل مستقبل، إلا إذا أكد بالنون، كقولك: لأكتبنَّ الدرس.

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المُقسَم عليه إذا كان منتفيًا؛ جاز الإتيان بـ(لا) قبل القسم لتأكيد النفي، والمنفي إنكارهم للبعث والنشور. وقال بعضهم: اللام زائدة للتأكيد.

ومن الأقوال في توجيه مثل هذا الأسلوب، وهو قريب، ويتمشّى مع الذوق العربي، أن المراد: إن الأمر من الوضوح والبيان بمكان، بحيث لا يحتاج إلى قسم. وهذا جارٍ على الألسنة؛ فالمعنى: أن الأمر لا يستدعي القسم بهذا الأمر المعظَّم؛ بل هو من الوضوح، والوثوق، والوقوع بمكان، لا يمتري فيه عاقل.

قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾، كذلك؛ أي: لا محوج للقسم بالنفس اللوامة؛ فإن الأمر واضح جلي؛ فالله تعالى أقسم بالقيامة، وبالنفس اللوامة، على إثبات المعاد.

والمُقسم به مناسب للسياق، فلمّا كان الحديث عن القيامة، والبعث، والنشور، جعلها مقسمًا به. ولما كان الحديث سيرِدْ عن طبيعة النفس الإنسانية، أقسم بالنفس اللوامة. وسمِّي المعاد بالقيامة لثلاثة أسباب:

الأول: لأن الناس يقومون لربِّ العالمين، قال الله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٦].

الثاني: لقيام الأشهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١].

الثالث: لإقامة العدل، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وكل هذه المعاني صحيحة.

وقد ذكرنا في مواضع سابقة، أنَّ أسماء القيامة أسماء وأعلام، فكل اسم من أسماء يوم القيامة التي تتجاوز الأربعين؛ بل قد بلغ بها بعض العلماء الثمانين، اسم، ووصف: كالطامة، والحاقة، والصاخة، والآزفة، وغير ذلك.

وللنفس ثلاثة أوصاف في القرآن العظيم:

١ ـ **المطمئنة**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧].

٢ ـ **الأمَّارة**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

٣ ـ **اللوَّامة**: قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾.

وهذه أحوال تعتري الآدميين، فتكون نفس ابن آدم تارةً أمّارة، وتارةً لوّامة، وتارةً مطمئنة، والحكم للغالب. فنفس الكافر والفاجر أمّارة، تأمره بالسوء، فيستجيب لها ويسترسل معها، ونفس المؤمن الخالص الإيمان مطمئنة؛ قد صار هواها تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، فلا تأمره إلا بخير، وتطمئن بذكر الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، فيقال لها عند الاحتضار: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وبين هاتين النفسين: نفس متأرجحة تتلوم على صاحبها في الخير والشر، فإذا فاتها شيء من حظوظها تلوّمت على صاحبها، وقد يكون تلوّمها محمودًا وقد يكون مذمومًا؛ فالمؤمن قد يلوم نفسه كيف لم أحج هذا العام؟ كيف لم أعتمر؟ كيف لم أتصدق؟! لمَ لمْ أقل كذا؟! لمَ قلت كذا؟! فهو يلوم نفسه على فوات الخير. والفاجر قد يلوم نفسه على أضداد ذلك، بأن يقول مثلًا: كيف لم أساهم في هذه المساهمة الربوية؟

كيف لم أذهب إلى مواطن الخنا والفجور؟ لَمَ لَمْ أقل كذا؟ كما قال الله عن المنافقين: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٧٣﴾ [النساء: ٧٣]. فيقع التلوم من المؤمن والكافر.

والنفس الواحدة قد تتقلب بين هذه الأحوال الثلاث، لكن الحكم للأغلب. فالذي ينبغي للموفق أن يترحّل بنفسه من حالة النفس الأمّارة، والنفس اللوامة بالشرّ، إلى حالة النفس المطمئنة، فيصبح قلبه ثابتًا، راسخًا، مستبشرًا، متفائلًا، محسنًا الظن بالله ﷻ، معتقدًا له المثل الأعلى. فهذا إذا حلَّ في القلب حلّت السكينة والطمأنينة، وآنس صاحبه بهجة الإيمان وبشاشته. ولكن لا يأتي دفعة واحدة؛ بل يحتاج إلى مجاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذا التقسيم الذي ذكرناه في النفس، يتماشى أيضًا مع تقسيم القلوب، **فإن القلوب ثلاثة**: قلب حي، وقلب ميت، وقلب مريض.

- **فالقلب الحي**: هو الموافق للنفس المطمئنة؛ لأنه ينبض بما خُلق له من الإيمان بالله، ومحبته، وخوفه، ورجائه، تلكم هي وظيفته.

- **القلب الميت**: هو القلب المتيبّس المتخشّب، الذي استحال إلى عضله فقط، ليس فيه مسرح لذكر الله تعالى، قد فرغ وخلا من نور الإيمان.

- **القلب المريض**: تمده مادتان؛ مادة صحة، ومادة فساد، تارةً يستقطبه القلب الحي، وتارةً يستقطبه القلب الميت، وهو لأيهما غلب.

رَوى حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمٰواتُ والأرْضُ، والآخَرُ**

أَسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا»(١).

فينبغي للعاقل، اللبيب، الحازم، أن يحدد موقعه في هذا المضمار، ويتعرف على طبيعة نفسه، وقلبه، هل قلبه حي؟! أم دون ذلك؟! هل نفسه مُطمئنة؟ أم دون ذلك؟ ويعلم أنَّ التزكية مشروع العمر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾، هذا سؤال إنكاري. والمراد جنس الإنسان المُنكر للبعث؛ فالله تعالى ينعى عليه نكرانه. يُخيل للمنكر أنه إذا مات، وتحلل بدنه، أو تفرّق في بطون السِّباع، وحواصل الطير، وأجواف الحيتان، أنه لا يمكن إعادة جمعه! حتى إن أُبيَّ بن خلف، أتى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتَّه، ثم ذراه في الريح، ثم قال: يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ قال: «**الله يحييه، ثم يميته، ثم يُدخلك النار**»(٢).

قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾؛ يعني: بلى نجمع عظامه، وفوق ذلك نُسوي بنانه. والبنان أطراف الأصابع. أخبر الله ﷻ أنه قادرٌ على جمع هذا المتفرق، وهو سبحانه وبحمده، يُبقي من ابن آدم عَجْب الذنب! قال ﷺ: «**وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٤٤).
(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٥٥٤).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٩٣٥)، ومسلم رقم (٢٩٥٥).

مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ» وَقَالَ غَيْرُهُ: **«مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ»**[(١)].

فهذا يدلُّ على كمال قدرة الله ﷻ على إحياء العظام وهي رميم، فإنه الذي خلقها أول مرة؛ فالذي أنشأها أول مرة قادرٌ على إعادتها؛ بل هو أهون عليه، كما هو مقتضى العقل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

قال جمهور المفسرين في معنى ﴿نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾: أي: نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحدًا، كخُفّ البعير، وحافر الحمار، فلا يتمكن من الارتفاق بالأعمال اللطيفة؛ كالكتابة، والخياطة، والالتقاط. والأقرب، والله أعلم، إعادتها كما كانت، حتى خطوط هذا البنان الذي يتميز به كل إنسان عن الآخر، يُعيده تعالى، مع دِقته ولطافته، كما كان، فجمع العظام من بابٍ أولى.

قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾، هذه طبيعة النفس الإنسانية الأمّارة، إرادة الفجور في مستقبل الأمور!. وعبارات المفسرين في تفسيرها متقاربة؛ فمنها ما يدل على أنَّ المراد بالفجور الكفر؛ أي: يريد أن يكفر، أو يسترسل في الكفر، ومن عباراتهم ما يدل على طول الأمل؛ أي: يَتَقَحَّم أبواب الشهوات، ويفعل ما تُمليه عليه نفسه الأمّارة. وقيل: إنَّ الفجور: تعمُّد الكذب، فهو يعلم أنَّ البعث حقٌّ لا بد منه، وأنَّ الله لا يمكن أن يخلقه ثم يدعه، ثم يتعمد الكذب بإنكار البعث. وهذه معاني يُصدِّقُ بعضها بعضًا.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾، بيان لفجوره، وهو سؤال معاندٍ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٨١)، ومسلم رقم (٢٧٥٦).

مُتكبرٍ مستبعد. وهذا من طبيعة المكذِّبين المُعاندين، الخروج عن محل النِّزاع إلى أمورٍ جانبية، من جنس: متى؟ وأين؟ وكيف؟ للتشاغل عن الموضوع الأساس.

فالواجب أن تؤمن بالمعاد، وتُثبت أن الله تعالى لا يترك الإنسان سُدى، وتشغب بالأسئلة الجانبية، لتشتيت القضية، ورد الحق ومطله.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾، وهذه هي القراءة المشهورة (بَرِق)، وقُرئت (بَرَق)، والمراد بـ(بَرِق)؛ أي: شخَص وانبهر، وما شَخَص وانبهر؛ إلا لأمر عظيم رآه، وهي التغيرات الكونية الآفاقية، التي لم تخطر له على بال، ولم تدر له بخيال! وكأن ذلك وقع جوابًا لأسئلته العبثية.

قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾، هذا القمر المنير المضيء الذي يُزيّن السماء، يذهب ضوؤه يوم القيامة.

قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾، مُذ خُلِقا لم يجتمعا، كما وصف تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣]، لكنهما يوم القيامة يقرنان ويقذفان في جهنم .

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾، هذا الانسان الذي كان يقول: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾، يقول يوم القيامة: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ أين الملجأ؟ أين أذهب؟ ماذا أصنع؟! وقع في مأزقٍ عظيم؛ لأن كل ما كان يُنكره رآه رأي العين: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، نعوذ بالله من هول المطلع! قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: ٥١، ٥٢]. والنَّسلان هو: الإسراع في المشي.

قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾، لا ملجأ ولا مذهب. قال تعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمٰن: ٣٣]، وأنَّى لهم السلطان في ذلك الحال! وقد حشروا حُفَاةً، عُراةً، غُرْلًا، بُهمًا، ولو قدر، جدلًا، أن حاولوا النفاذ: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾ [الرحمٰن: ٣٥].

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢﴾، إلى الله إيابهم وعلى الله حسابهم، وعنده دار القرار؛ إما جنة أو نار، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [غافر: ٣٩].

قوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾؛ أي: إثر البعث والنشور، يأتي العرض والمناقشة، والإقرار، والاعتراف، فيقر كل إنسان بما فعل! قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فتلحقهم دهشة: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والقرآن مثاني يشبه بعضه بعضًا، ويصدّق بعضه بعضًا. فهذه الجمل الرصينة، الثقيلة، تُقرر المعاد بطريقة حاسمة، لا يُدانيها أسلوب! وهذا من سمات القرآن المكي، كأنما هي أوتاد تُثبّت في القلوب.

قوله: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾، يخبر تعالى عن جانبٍ من جوانب الطبيعة الإنسانية، وهو أنَّ الإنسان في قرارة نفسه، شهيد على نفسه، يعرف الحقيقة، ويستيقنها، وإن جحد، وإن اعتذر، كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

قوله: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾، فزخرفة الكلام، وترتيب المعاذير،

لا يُغني عنه شيئًا، وهو قطعًا، يوم القيامة، سيجتهد في دفع العذاب بكل ما يستطيع، حتى أنه يتهم الملائكة الكرام!

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»[(١)].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٤، ٢٥]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٢]. فيا لها من مواعظ! لو صادفت آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية.

والغالب في ذكر المعاذير في القرآن أنها تخرج مخرج الكذب، كقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ٩٠]، وقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الفتح: ١١]، ولكن ربما كان بعضها حق؛ كالذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]، فينبغي للإنسان أن يتحاشى هذا الخُلق وهو

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٦٩).

كثرة الاعتذار، فإن من الناس من ديدنه الاعتذار، فكثرته تدل على وجود خلل، فيَحسن بالإنسان أن يسلك مسلك الحزم، والمسؤولية، وأن لا يلجأ إلى هذا المخرج.

وبعد هذا الفصل المهيب، الذي يحرّك كوامن النفس الإنسانية، وينفض البلادة التي تراكمت عليها، ينتقل السياق الى مقام آخر، يتعلق بالقرآن الذي فيه العظة، والحقّ، والهدى، فيقول الله مُخاطبًا نبيه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، هذه القطعة تصف حال النبي ﷺ حين تنزُّل القرآن، فقد كان لفرط حرصه، بأبي هو وأمي ﷺ؛ على ضبط القرآن وحفظه، إذا تنزّل عليه جبريل بالقرآن، يتمتم بشفتيه، يسترجعه؛ لأجل أن لا يضيع عليه؛ لأنه مدركٌ أنه رسول، وأن عليه البلاغ، فيخشى أن يتفلّت شيء منه؛ فيأخذ في استذكاره، واسترجاعه أثناء تنزله. عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ... فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ، كَمَا قَرَأَهُ)[1]. فتكفل الله له بأمورٍ:

أولًا: أن يجمعه في صدره.

ثانيًا: أن يمكّنه من تلاوته، فيقرأه كما أُنزِل.

ثالثًا: بيانه له، فلا يلتبس معناه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥)، ومسلم رقم (٤٤٨).

وهذا فضلٌ عظيم، ونعمةٌ سابغة. فالله تعالى قد بيّن لنبيه ما أنزل إليه، وعرَّفه مراده منه، ثم هو ﷺ بيّن لأمته كل شيء، ولم يدع شيئًا من الكتاب بمنزلة الأحاجي والألغاز التي لا سبيل للعلم بها. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فمن مهمة النبي ﷺ البيان، وقد فعل حتى أنه استنطق أمته في حجة الوداع، فقال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «**اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

فهذه نعمةٌ عظيمة، لا ريب أنها تجعل المؤمن في طمأنينة تامّةٍ إلى النص، وإلى معنى النص، إنها موثوقية ليس فوقها موثوقية، كما قال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. وذلك يشمل حفظ ألفاظه، وحفظ معانيه، فليس لأحدٍ أن يقدح في حرفٍ من حروف القرآن، أو يدَّعي نقصًا، أو زيادةً، أو تحريفًا. قد تكفّل الله بحفظ القرآن بنفسه، ولم يَكِلْهُ إلى أحدٍ من خلقه، كما وكل التوراة إلى الربانيين والأحبار، فضيَّعوها، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤]. فما بين دفّتيّ المصحف كلام الله، لا يختلف المسلمون في هذا، دعك من الروافض الذي يزعمون أنَّ مصحفنا ثلث مصحف فاطمة! هذا من ترّهاتهم وأكاذيبهم، وليس في أهل الأهواء أكذب من الرافضة، ودعك من أصحاب المذاهب الكلامية الذين يزعمون أنَّ النبي ﷺ ترك بيان بعض الأشياء لأمته، ليستنبطوها بعقولهم، ابتلاءً لهم! سبحان الله! أيبين النبي ﷺ للأمة دقائق المسائل؛ في العبادات، والمعاملات، والعِشْرَة

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٢١٨).

الزوجية، والآداب؛ حتى قضاء الحاجة، ويدع أكبر الأمور؛ وهو ما يتعلق بالعلم بالله، وأسمائه، وصفاته، للتخرُّصات!.

فالمنحرفون في هذا الباب، ثلاث طوائف: أهل التأويل: الذين يصرفون النص عن المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي، بدعوى وجود قرينة، وأهل التجهيل: الذين يقولون: لا سبيل للعلم بالمعنى؛ لأنه لا يعلمه إلا الله. وأهل التخييل: الزنادقة الذين يزعمون أنَّ للنصوص ظهرًا وبطنًا. وهؤلاء ليسوا من أهل الإسلام، بخلاف أهل التأويل وأهل التجهيل، فهم أهل القبلة، لكنهم ضلّوا بنوع اجتهاد. أما أهل التخييل فهم زنادقة، قرامطة، يتلاعبون بنصوص الصفات والمعاد والأحكام، ويخترعون دعاوى باطنية بلا دليل.

لا ريب أنَّ النبي ﷺ، قد بيّن القرآن كله بيانًا شافيًا، حتى أنَّ مجاهد بن جبر يقول: (عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فاتحتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ)[1]. فكيف يتخيّل متخيّل أنَّ ثَمَّ شيء من القرآن متروكٌ لاجتهاد الأمة، وأنَّ النبي ﷺ لم يبينه؟! هذا طعنٌ في النبي ﷺ، وطعنٌ في القرآن الكريم؛ بل وطعنٌ في حكمة الله تعالى. حاشا ربنا ﷻ، وحاشا نبينا ﷺ، وحاشا القرآن العظيم، أن يقع فيه شيء موهوم، فإن وقع، فهو توهم منهم، وأما الراسخون في العلم، فيعلمون مراد الله ﷻ، ومراد نبيه ﷺ. فهذه الآيات أصلٌ في بيان موثوقية القرآن.

قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾، ﴿كَلَّا﴾ إما أن يراد بها التنبيه، أو أنها بمعنى حقًّا؛ أي: أنّ حقيقة الأمر أنَّ الصارف لكم عن قَبُول الحق وإثبات المعاد، تعلقكم بالدنيا، وتشبّثكم بشهواتها العاجلة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (١١٠٩٧).

قوله: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: تنفرون من ذكر الموت، وما بعد الموت، وتريدون أن تقطفوا هذه الثمرة العاجلة من الشهوات الدانية، وتتشاغلوا بها، هذه حقيقة الحال لدى عامة بني آدم.

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وأقرّوا بالمعاد، فقد وصفهم الله ﷻ وصفًا رائقًا، بديعًا، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، هؤلاء هم أهل الجنة، وهذه الآية من أشهر أدلة أهل السُّنَّة والجماعة على إثبات النظر إلى وجه الله الكريم. أهل السُّنَّة والجماعة يثبتون رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة في مقامين؛ في عرصات القيامة؛ يعني: في مواقف الحساب، كما دل على ذلك حديث أبي سعيد، وحديث أبي هريرة، في صحيح البخاري، المسمَّى حديث الشفاعة الطويل، وبعد دخولهم الجنة. ﴿نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾: من النضرة، وهي البهاء، والجمال، والرونق، الذي اكتسبته بسبب كونها: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. و﴿نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: من النظر، وهو المعاينة بالأبصار. وكلمة (نظر) لها ثلاث استعمالات في لغة العرب:

- **إما أن تأتي مطلقة:** كقول القائل: أنظرني، فتدل على التريث والانتظار.

- **وإما أن تأتي متعديّة بـ(في):** فتدل على التأمل والاعتبار، كقولك: نظرت في المسألة، نظرت في الأمر.

- **أو تأتي متعدية بـ(إلى):** فتعني المعاينة بالأبصار، كما جاءت هنا.

فلا يختلف العرب أن نظر إذا تعدت بـ(إلى) فإنها تدل على المعاينة بالأبصار، فدلت الآية دلالة صريحة على نظر المؤمنين إلى ربهم يوم القيامة. وهذه عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، التي دل عليها الكتاب، والسُّنَّة، والإجماع. فأما دلالة الكتاب فكما في هذه الآية، وفي قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقد فسر النبي ﷺ:

الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم[١]، وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، فسَّر المزيد بأنه النظر إلى وجه الله الكريم.

واستنبط قومٌ من السلف، منهم الإمام الشافعي، من قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] إلى قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣]، إثبات النظر إلى وجه الله الكريم، فقال: لما حُجِب أولئك في السخط، نظر هؤلاء في الرضا، وهذا من دقيق فهمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كما دلّت السُّنَّة المتواترة، على إثبات الرؤية، حتى عُدّت أحاديث الرؤية من الأحاديث المتواترة، كما قال الناظم[٢]:

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى للّه بيتًا واقترب
ورؤية شفاعة والحوض ومسح خفين وهذي بعض

والتواتر في الرواية أقوى أنواع الثبوت، فقد جاء فيها أحاديث صحاح، لا يمكن ردها ولا تأويلها، ومنها:

حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، في «الصحيحين»: أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[٣].

وحديث جَرِيرُ بْنُ عبد اللهِ، في «الصحيحين»: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ**

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨١).
(٢) ناظمها: محمد التاودي في (زاد المجد الساري)، حاشية على البخاري.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٥٨١)، ومسلم رقم (١٨٢).

هَذَا، لَا تُضَامُّونَ - أَوْ لَا تُضَاهُونَ - فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»(١)، يريد بذلك صلاة الفجر، وصلاة العصر.

وحديث أبي موسى، في «الصَّحيحين»: قال رسول الله ﷺ: **«جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»**(٢).

وحديث صهيب، في أفراد مسلم، عن النبي ﷺ، قال: **«إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقولونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ فَما أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ** ﷻ. وفي رواية: وزادَ ثُمَّ تَلا هذِه الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»(٣).

وحديث جابر، في أفراد مسلم، عن النبي ﷺ قال: **«فَيَتَجَلَّى لَهُمْ وَهُوَ يَضْحَكُ»**(٤)، وذلك في عَرَصَات القيامة.

وهذا يسيرٌ من كثير، من الأحاديث الثابتة في السُّنَّة، في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، عيانًا بأبصارهم. كما انعقد الإجماع أيضًا على هذه المسألة الشريفة، فلا يختلف أهل السُّنَّة والجماعة على إثبات نظر المؤمنين إلى ربهم يوم القيامة. جعلنا الله ممن يتنعم بالنظر إلى وجهه الكريم.

بل إنَّ المؤمنين يتفاوتون في هذا؛ فمنهم من يرى ربه في الجنّة بكرةً وعشيًّا، ومنهم من يراه يوم المزيد، وهو ما يقابل يوم الجمعة في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٨٧٨). (٣) أخرجه مسلم رقم (١٨١).

(٤) أخرجه أحمد رقم (١٤٧٢٠).

الدنيا، على حسب مراتبهم. نسأل الله أن يعلي منازلنا عنده. وأنشد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في ميميَّته، يصف هذا الحال الناعمة:

فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المحب المتيَّمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلمُ
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطّت به أوطانه فهو مغرمُ
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكمُ
فحيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيمُ

نسأل الله أن يبلغنا جنات عدن، وأن ينضِّر وجوهنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

وأنكرت المعتزلة، ومن لفّ لفهم، من الإباضية، والزيدية، والرافضة، النظر إلى وجه الله الكريم، وقضوا على أنفسهم بالحرمان من أعظم النعم! زعموا أنه لا يمكن أن يُرى مطلقًا، واستدلوا بدليلين:

أحدهما: قول الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فقال له ربه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قالوا: فأتى بـ(لن) التي تدل على النفي المؤبد.

فيقال جوابًا عنهم: إن قول الله تعالى لموسى: (لن تراني)؛ أي: في الدنيا، ولو كانت رؤيته ممتنعة، ولا يمكن أن تقع أبدًا، لعتب على موسى، وعدّ سؤاله فاسدًا، كما عتب على نوح لمّا سأل سؤالًا فاسدًا، وقال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥]، فقال له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: ٤٦]، لكنّه لم يعتب على موسى أن سأله الرؤية، ولم يجبه لعلمه أن لا يطيق ذلك في الدنيا، وأحاله على أمرٍ ممكن فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولو شاء الله لأقرّ الجبل، لكن أراد أن يبين لموسى أنه لا يطيق ذلك، لهذا:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وأما زعمهم أن (لن) تفيد النفي المؤبد، فهو خلاف اللغة، وقد ردّ عليهم ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من أئمة اللغة، فقال في ألفيته:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

أما دليلهم الثاني: فهو قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقد أجاب أهل السُّنَّة عنه بجوابين:

أحدهما: جواب عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: لا تدركه الأبصار في الدنيا.

الثاني: أنَّ المنفي هو الإدراك، الذي بمعنى الإحاطة، وليس الرؤية. ونفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، فقد نرى الشيء ولا ندركه؛ نرى القمر، ولا ندرك تفاصيله، نرى الجبل ولا ندرك تفاصيله، فلا يلزم من نفي الإدراك نفي الرؤية، فيمكن أن تقع رؤية دون أن يقع إدراك. وفي قصة موسى وفرعون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فقد حصلت الرؤية، ولم يحصل إدراك.

غير أن هؤلاء الضالين لا يرفعون رأسًا بالنصوص، وإنما يعتقدون ثم يستدلون، والواجب أن يستدل الإنسان ثم يعتقد، ولهذا سمي الدليل دليلًا؛ لأنه يقود المستدل به إلى ضالته، أمَّا أن يقعّدوا القواعد، ويضعوا المقدمات، ثم يعرضوا عليها النصوص؛ فما وافقها أمضوه، وما خالفها ردوه، أو تأوَّلوه، فهذه ليست طريقة السلف. وبسبب هذا المسلك طوّحوا يَمنةً ويَسرة، وضلّوا ضلالًا بعيدًا، وقضوا على أنفسهم بالحرمان من أعظم نعيم، وهو النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾، تلك وجوه الكافرين، باسرة: كالحة، عابسة. كما قال الله تعالى في التنظير بين الفريقين يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢]، والوجه هو عنوان الإنسان، ومرآة القلب، فما يكون في القلب يفيض على الوجه، فلذلك لمّا سُر المؤمنون وتنعّموا بالنظر إلى وجه الله الكريم؛ نضرت وجوههم. وأولئك لمّا قنطوا من رحمة الله، وأدركوا أنهم هالكون؛ بسرت وجوههم، وكلحت، وعبست. والفاقرة: هي المصيبة الداهية التي تقصم الفقار، وهو الظهر.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾، كلمة ﴿كَلَّآ﴾ هاهنا، إما أن تكون كلمة ردع، وزجر لذلك المنكِر للبعث والمعاد، وإما أن تكون بمعنى: حقًّا، فيكون هذا من باب التحقيق لأنه حق لا شك فيه. والتي تبلغ التراقي: هي الروح التي كانت تعمُر ذلك الجسد، طوال عقود من الزمان، **قلّت** أو كثرت، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، والتراقي: هي العظام التي تكتنف ثغرة النحر، المُمتدة من العاتق إلى ثغرة النحر، واحدتها ترقوة.

هذه اللحظات العصيبة من أشد ما يمر على ابن آدم، وهي لحظات الاحتضار، ومفارقة الدنيا، بعد هذا العصف الذي مرّ به، وتقلب فيه في أحوال الدنيا؛ ذهابًا وإيابًا، وقيامًا وقعودًا، واتجارًا، وزواجًا، وغير ذلك من مناشط الحياة، يصل إلى حال لا يتمكن فيها من الحراك، ولا يجلب لنفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضرًّا. يمدد على سريره في بيته، أو في المستشفى، وأهله من حوله لا يملكون له شيئًا. فتدركه السكرة، وكرب الموت، التي لا بد لكل حيٍّ أن يتجرعها: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤]، يعني: من حوله، أو هو نفسه أيضًا، ولكنه نظرٌ لا يُثمر شيئًا، فقد يُبصر المُحتضَر ما لا يبصر غيره من ملائكة الرحمٰن؛ فأما المؤمن

فتحيط به ملائكة الرحمة، وأما الكافر فتُحيط به ملائكة العذاب. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

فهذه اللحظة العصيبة، تبلغ فيها الكربات والسكرات مبلغًا شديدًا عظيمًا.

وعن عَائِشَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ، قَالَا: (لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ)(١).

وهذه السكرات تنال المؤمن والكافر، إلا أنها للمؤمن رحمة؛ يُكَفِّر الله تعالى بها ما شاء من السيئات، أو يرفعه بها ما شاء من الدرجات التي لم يبلغها بعمله. وأما الكافر فتكون له عذابًا. فأما لحظة مفارقة الروح للبدن فيتميّز فيها المؤمن عن الكافر، فتخرج روح المؤمن خروجًا لطيفًا؛ تُسلُّ كما تُسلُّ الشعرة من العجين، وكما تنزل القطرة من فم السقاء، وأما الكافر فإن روحه تتفرق في جسده فتُنزع نزعًا أليمًا كما ينزع السفّود من الصوف المبلول، والسفّود حديدة فيها نتوءات، فإذا وضع في الصوف علق به وشق نزعه، لا سيما إذا كان مبلولًا. قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾﴾ [النازعات: ١، ٢]؛ فالنازعات: الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار نزعًا، والناشطات: الملائكة الذين ينشطون روح المؤمن نشطًا؛ كالذي معه أنشوطة يتناول بها الشيء بخفةٍ ويسر. فهذه اللحظات الحرجة لا بد لكل حيٍّ منها: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قوله: ﴿مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: هل من طبيب شاف، حاذق، ماهر، يدرك هذا المُحتضَر؟ أو أنَّ المقصود الرقية الشرعية، لما أعيت الوسائل المادية، كما قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيبحثون عن راق

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٥).

يرقيه. وهذا حال الناس حينما يُحتَضَر المُحتضَر بين أيديهم؛ يتصلون بالإسعاف، ويحملونه إلى المستشفيات المتخصِّصة لاستنقاذه من قدر الله، وأنَّى لهم! قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٣٤، يونس: ٤٩، النحل: ٦١]، وقال النبي ﷺ: **«إن رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي أَنَّ نفسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُم اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»**[١].

وقيل في معنى ﴿مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾، من يرقى به في السماء؟ هل ترقى به ملائكة الرحمة؟ أم ترقى به ملائكة العذاب؟ فيكون ذلك من الرُّقي.

قوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾، ظن هنا، بمعنى استيقن؛ أي: وقع في قلبه يقينٌ جازم بأنه هذه لحظة فراق الدنيا التي مكث فيها ما مكث، وأمضى فيها ما أمضى، وأجلب فيها ما أجلب، وخاض فيها ما خاض.

قوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، هذا التعبير البديع يحكي لحظة الكرب والشدة، يعني: تكالبت عليه الشدائد؛ فالعرب تعبّر بهذا التعبير للدلالة على اجتماع الشدائد، شدائد الدنيا، وشدائد الآخرة، فهو في آخر أيامه في الدنيا، وأول أيامه من الآخرة. وقيل في معناها: ماتت قدماه اللتان كانتا تحملانه، ويصول بهما ويجول، فلم يعد يحمله شيء! وقيل: إشارة إلى لفّهما بالكفن. وهذه معانٍ تدل على حالة راهنة يعيشها هذا المُحتَضَر.

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾، والروح يُصعد بها إلى السماء، سواء كانت روح مؤمن أو روح كافر، كما في حديث البراء بن عازب الطويل، وقال فيه عن روح المؤمن: **«فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّون**

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٧٦٩٤).

- يَعْنِي بِهَا - عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ»، وقال عن روح الكافر: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ»(١).

وقد تقدم في أول سورة المعارج قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، أنَّ أحد الأقوال في تفسير الروح: أنها أرواح الموتى، والقول الآخر وهو الأرجح، أنه جبريل ﵇. فقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فأيّ صدمةٍ ستعتري منكِر البعث الذي عاش عمره، وهو لا يصدق بيوم الدين، ولا يؤمن بالله العظيم، حينما يقف ذلك الموقف؟! ويروى

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٨٥٣٤).

أنَّ أحد الملحدين، قال لأحد المؤمنين: ما شعورك حينما تموت وتكتشف أن كل ما كنت تعتقده مجرد خرافات وأوهام؟ فرد على البديهة: لن يكون أسوأ من شعورك حينما تموت وتكتشف أن كل ما كنت تنكره بات حقًّا!.

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾، هذه العبارات التبكيتية، فيها حطٌّ وإزراءٌ على هذا المكذّب المنكِر للبعث، فيصف الله حاله في الدنيا؛ بأنه لا صدّق بقلبه، ولا صلّى بجوارحه؛ بل أفنى عمره مُكذبًا، مُنكرًا، كَافرًا، لم يركع لله ركعة، ولم يسجد لله سجدة. وهذا يدل على عِظم قدر الصلاة وأهميتها، وملازمتها للإيمان، حيث ذكرها من موجبات عذاب الكافر، فبدلًا من التصديق، اتصف بالتكذيب، وبدلًا من الصلاة اتصف بالتولي، كان يدعى في الدنيا إلى الصلاة، ويُقال له: أقم الصلاة، فيتولى ولا يرفع بذلك رأسًا.

وقد عدَّ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذه الآية، الدليل السابع من أدلة القائلين بكفر تارك الصلاة، فقال: (فلما كان الإسلام تصديق الخبر، والانقياد للأمر، جعل سبحانه له ضدين: عدم التصديق، وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾، فكما أنَّ المكذب كافر؛ فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب، يزول بالتولي عن الصلاة. قال سعيد عن قتادة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ لا صدق بكتاب الله، ولا صلَّى لله، ولكن كذب بآيات الله، وتولى عن طاعته)[١].

قوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾، هذا تصويرٌ عجيب لحال هذا المُعرِض الذي لا يبالي، كان في هذه الدنيا يتفكّه، ولا يكترث

(١) كتاب الصلاة وأحكام تاركها (٤٢).

بالمواعظ، ولا يرفع رأسًا بالذكرى، ويذهب إلى أهله متبخترًا، متخايلًا، يتفهّق في مشيته، ﴿يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾، تعبيرٌ بديعٌ، يرسم صورةً بدنية، وصورةً نفسية، لهذا المعرِض، فهو خلي الفؤاد، غير مكترثٍ بما يُلقى عليه، وفي الوقت نفسه يسير سيرة المختال، المتباهي، الغافل. كما وصفه الله تعالى في سورة المطففين: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين: ٣١، ٣٢]، هكذا حال المنكرين الكفرة، يقع في أنفسهم من العُجبِ والزهو ما يحملهم على تصويب أنفسهم، وتخطئة المصيبين.

قوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾، اختُلِف في المراد به، فقيل: أنه وعيدٌ إثر وعيد، ويشهد لهذا المعنى ما وقع بين النبي ﷺ وبين أبي جهل، حينما آذى النبي ﷺ، فأخذ النبي ﷺ بتلابيبه، وقال له: «**أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى**»، فيكون ذلك من باب الوعيد والتهديد المتكرر.

وقيل: أنه خرج مخرج السخرية به، كأنما يُقال: حُقَّ لك أن تتمطّى وأن تتبختر، فأنت بذلك حقيق، كما قال الله ﷻ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]، يعني: يا من كنت في الدنيا عزيزًا في قومك، كريمًا فيهم، وكما قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾ [الانشقاق: ١٣]، فيكون هذا من باب السخرية. فهذان معنيانِ صالحانِ لحمل الآية عليهما.

قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾، استفهام إنكاري، وسؤالٌ يغوص في أغوار النفس، ويستنفر ما فطرت عليه من معارف وحقائق؛ يقول لكل نفسٍ مُنصِفة، ولكل ضميرٍ حي، ولكل عقل سوي: هل يمكن أن يُقيم الله تعالى هذا العالم العلوي، وهذا العالم السفلي، ويخلق الإنسان، ويستعمره في الأرض، ويستخلفه فيها عبثًا، وسفهًا بلا حكمة، ولا غاية، ولا قصد؟! هذا في غاية الامتناع.

ومعنى: ﴿سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ هملًا، بمعنى: لا يُؤمر، ولا يُنهى، وقيل بمعنى: لا يُبعث؛ بل يأكل ويشرب، وينكح وينام، ويستيقظ ويموت، وحسب! ولا تعارض بين المعنيين. فلا يمكن أن يكون هذا مُرادًا لله. حاشا الله عن العبث والسفه، هو الحكيم سبحانه في شرعه، وقدَرِه، فلا يمكن أن يوجد الإنسان في هذه الدنيا دون أن يُبتلى بالأوامر والنواهي، فتُحمَل الآية على المعنيين، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فهذه آية محكمة، وحجة قاطعة، يمكن أن يجبه بها المؤمن كل ملحد، ويقول له: ماذا تظن؟! أين تذهب؟! هل يمكن أن يخلق الله الخليقة، ويقيمهم في الأرض، لا لهدف، ولا لغاية؟! وقد قال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، فمقتضى الحق: أن لا ينتهي المشهد، وتنتهي الدنيا، وصاحب الحق لم ينل ثوابه، وصاحب الباطل لم ينل عقابه، ألسنا نرى بأعيننا المظلوم يموت مظلومًا، والظالم يموت ظالمًا؟ هل يمكن أن يتناسب ذلك مع خلق السماوات والأرض بالحق؟ لا والله! إذًا لا بد من فصلٍ آخر، يُردّ فيه الحقّ إلى نِصابه، ويُجازى المُحسن على إحسانه، والمُسيء على إساءته.

قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، بلى والله، وإذا جاء السؤال مُصدَّرًا بهمزة الاستفهام، فجوابه في حال الإقرار: بلى، وليس: نعم. وهذا استفهام تقريري، فيه تذكير بأصل الخلقة. وكل إنسان يعلم أنَّ هذا أصله؛ نُطفةً مَذِرة، نتنة، تشنؤها العين، وتزدريها، وتشمئز منها. هذا أصلك يا ابن آدم! ما يقذفه الرجال في أرحام النساء، وآخر عهدهم هذه المتعة العابرة التي نالوها ثم نسوها، لكن الله ﷻ، يتعاهد هذه النطفة التي استقرت في الرحم، ويُنشؤها خلقًا جديدًا، والزوجان في غفلة لا يدريان.

قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾، دامت النطفة أربعين يومًا، ثم

امتدت إليها الأوعية الدموية المبطنة لجدار الرحم، فتغلغلت فيها وغذّتها، فاستحالت علقة تعلق في جدار الرحم، ثم توالت الانقسامات الخلوية فصارت مضغة كقطعة من اللحم، تارةً تكون مُخلّقة، وتارةً غير مُخلّقة. لكن إن أراد الله تعالى لها أن تحيا، فستتخلّق؛ ويظهر فيها رأس، ويدان، ورجلان، وتصبح جنينًا يواصل نموه حتى التمام. فمرحلة النطفة أربعون، والعلقة أربعون، والمضغة أربعون، فتلكم أربعة أشهر، فإذا تمت بعث الله المَلَك على تمام أربعة أشهر فتسوَّر على الجنين الرحم، ثم نَفَخ فيه الروح، كما قال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»[1].

فقوله: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾، طيٌّ لذكر بقية المراحل التي ذكرها الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦]، والله تعالى يذكر تخليق الجنين، في مواضع عدة من القرآن العظيم؛ لأنه من أعظم دلائل الربوبية، فتارةً يذكرها مبسوطة مفصّلة، وتارةً يذكرها موجزة مجملة، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٦].

تبارك ربُنا! حينما تتفحص وجوه الناس لا تجد وجهين مُتطابقين!، حتى التوائم المُتماثلة لا يتطابقون تمامًا، تصفح وجوه الناس، وأنت تسير في المسجد الحرام، وعلى صعيد عرفات، حيث يأتون من كل فجٍّ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٩٤)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

عميق، حاول أن تجد شخصين متطابقين، تجد تشابهًا، ولا تجد تطابقًا؛ لا في الهيئة، ولا في اللون، ولا في بصمة الأصبع. تبارك ربنا سبحانه!. قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧].

قوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾، كانت البداية واحدة، لكن الأمر آلَ إلى ذكورةٍ وأنوثة، لكي تتم حكمة الله تعالى في التزاوج، والتناسل، والتكاثر. هذا تذكيرٌ عظيم لأولئك المنكرين للبعث.

قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾، سؤال ساحق ماحق لشُبهاتهم، بلى والله! إن الذي خلق الخلق قادر على إعادته؛ بل هو أهون عليه.

وقد جاء في بعض الأحاديث، وحَسّنها بعض أهل العلم، أنَّ الإنسان إذا قرأ هذه الآية أو سمعها فإنه يُشرع له أن يقول: سبحانك فبلى: (كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾، قَالَ: «سُبْحَانَكَ»)[١]، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى)[٢]. لأن هذا من تصديق خبر الله تعالى.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام الله بما شاء من الأزمنة، والأمكنة، والأشياء.

الفائدة الثانية: مناسبة المقسم به للمُقسم عليه أو سياقه.

الفائدة الثالثة: إذا كان المقسم عليه مُنتفيًا، جاز الإتيان بـ(لا) قبل القسم، لتأكيد النفي.

الفائدة الرابعة: إثبات المعاد وتأكيده، والقطع بوقوعه.

الفائدة الخامسة: وصف المعاد بالقيام.

الفائدة السادسة: بيان حال من أحوال النفس الإنسانية.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٨٨٤). (٢) أخرجه أحمد رقم (٧٣٩١).

الفائدة السابعة: أنَّ التلوّم يكون على الخير والشر، والهدى والضلال.

الفائدة الثامنة: استعمال الاستفهام الإنكاري لدحض الشبهات الباطلة، وإتباعه بالجمل التقريرية الجازمة.

الفائدة التاسعة: بيان انحراف الطبيعة الإنسانية بالكفر والفجور، أو طول الأمل، أو تعمد الكذب، وغمط الحق.

الفائدة العاشرة: تشبّث المنكرين للحق بأمورٍ خارجة عن محل النزاع.

الفائدة الحادية عشرة: بيان جانب من أحوال يوم القيامة وآثارها على النفس وفي الآفاق.

الفائدة الثانية عشرة: الحرج العظيم، والمأزق الفظيع، الذي ينتظر مُنكِر البعث.

الفائدة الثالثة عشرة: استحالة الفرار والنجاة والملجأ، من عذاب الله.

الفائدة الرابعة عشرة: إحاطة علم الله بجميع أعمال بني آدم.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات العرض والحساب.

الفائدة السادسة عشرة: استيقان المماطل من كذب نفسه، وبصيرته بها.

الفائدة السابعة عشرة: أنَّ المعاذير منها حق، ومنها باطل.

الفائدة الثامنة عشرة: حرص النبي ﷺ على البلاغ.

الفائدة التاسعة عشرة: تكفّل الله بحفظ وحيه لفظًا ومعنى.

الفائدة العشرون: الرد على شبهات الطاعنين في القرآن.

الفائدة الحادية والعشرون: الرد على شبهات أهل التأويل، والتجهيل، والتخييل.

الفائدة الثانية والعشرون: بيان الطبيعة الإنسانية في التعلق بالشهوات الدنيوية العاجلة، وإنكار الآخرة.

الفائدة الثالثة والعشرون: كمال نعيم المؤمنين يوم القيامة، حتى يظهر أثره على وجوههم.

الفائدة الرابعة والعشرون: إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

الفائدة الخامسة والعشرون: استحكام قنوط الكافرين وظهور أثره على وجوههم.

الفائدة السادسة والعشرون: أنَّ الظن يأتي بمعنى اليقين.

الفائدة السابعة والعشرون: أنَّ منتهى منازل الروح من البدن التراقي.

الفائدة الثامنة والعشرون: تشبّث الإنسان بالحياة، ونفاذ قدر الله فيه.

الفائدة التاسعة والعشرون: شدة الاحتضار، والنزع، وكرب الموت، واجتماع الشدائد.

الفائدة الثلاثون: التلازم بين التصديق والعمل. والرد على المرجئة، فمن أخرج العمل عن مسمَّى الإيمان فهو مرجئ.

الفائدة الحادية والثلاثون: أنَّ ترك الصلاة منافٍ للإيمان، مُخرجٌ عن الملّة، مُوجبٌ للنار.

الفائدة الثانية والثلاثون: التصديق والصلاة، قسيمان للتكذيب والتولّي.

الفائدة الثالثة والثلاثون: عدم مبالاة الكافر بكفره واستصغاره لذنبه، وكبره.

الفائدة الرابعة والثلاثون: الدعاء على الكافر.

الفائدة الخامسة والثلاثون: الاستدلال العقلي على مُنكِر البعث.

الفائدة السادسة والثلاثون: الاستدلال الحسّي على مُنكِر البعث.

الفائدة السابعة والثلاثون: عظمة خلق الله وبديع صنعه، وكمال حكمته.

الفائدة الثامنة والثلاثون: تنزيه الله ﷻ عن العبث، ونفي الحكمة.



سورة الإنسان

سورة الإنسان، سمِّيت بهذا الاسم لورود لفظه في مستهلها، ووصفه في أثنائها. وهي سورةٌ مكيّة عظيمة، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقرأ بها، وبسورة السجدة، في صلاة الفجر يوم الجمعة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: (**«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»**)[1].

وقد تعرضت هذه السُّنَّة النبوية لهجرانٍ وتحريف. أما الهجران فهو استثقال كثير من الناس الإتيان بها، بسبب طول القيام، فاستعاضوا عنها بالسور القصار. فالواجب على الأئمة أن يحيوا هذه السُّنَّة، ويحرصوا على المحافظة عليها إلا ما ندر؛ فلا بأس أن يفصل الإمام أحيانًا، فيقرأ بسواهما، لكن يجعل عامة قراءته صبيحة الجمعة، بما كان عليه النبي ﷺ.

وأما التحريف فهو أنَّ بعض الأئمة يعمد إلى اقتطاع شيءٍ من السورتين، فيقرأ ببعض السجدة، والإنسان، أو ببعض الإنسان، أو يقتصر على إحداهما. وهذا من الخطأ العظيم، والتشويه للسُّنَّة، فإما أن يأتي بالسُّنَّة على وجهها، أو يدع؛ فلو أنه ترك قراءتهما كان خيرًا من أن يأتيَ بها على صفة غير مشروعة.

وهذه السورة لها مقاصد، فمن أعظم مقاصدها:

١ ـ بيان حال الإنسان من مبتدئه إلى منتهاه، ولهذا التمس بعض

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٩١)، ومسلم رقم (٨٨٠).

العلماء حكمةً لمشروعية قراءة ﷺ لسورة السجدة والإنسان صبيحة الجمعة؛ لما فيهما من ذكر خلق آدم، وخلق الإنسان ومنتهاه، ويوم الجمعة هو اليوم الذي خلق الله تعالى فيه آدم، وفيه تقوم الساعة، ففي قراءتهما مناسبة للزمان، وتذكيرٌ بأصل الإنسان.

٢ - بيان حقيقة الهداية والإضلال.

٣ - بيان أسباب الهدى والاستقامة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ١ - ٢٢].

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾، هذا استفهامٌ يقصد به التقرير، لا يقصد به حقيقة الاستفهام، فهو بمعنى

قد؛ فالمعنى: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

والإنسان في هذا السياق يُراد به آدم عليه السلام، تحديدًا، بينما الإنسان في الآيةِ بعدها يراد به جنس الإنسان. ولفظ «الإنسان» في القرآن العظيم تارةً يراد به آدم، وتارةً يراد به جنس الإنسان؛ وربما أريد به الكافر خاصةً.

فآدم عليه السلام؛ أتى عليه وقتٌ وهو عدم، وأتى عليه وقتٌ وهو صلصال كالفخار، منجدلٌ في طينته؛ مرّت عليه أربعون عامًا لم يكن شيئًا مذكورًا. وفي هذا تنبيه من الله عز وجل، على أصل خلق الإنسان، وأنه لم يك شيئًا ثم أنشأه من العدم، فكيف يطغى؟!

وقوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾؛ أي: كان غَفَلًا هَمَلًا، لا يُؤبه له، ولا يُعرف، ولا يُذكر، ثم هو بعد ذلك يناكف ربّه ويعاند رسله، ويطغى على عباده.

قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾، الإنسان هُنا هم نسل آدم؛ لأنهم هم المخلوقون من النطف، بخلاف آدم عليه السلام، فإن الله تعالى خلقه من طين، وخلق الله تعالى ذريته من نطفة أمشاج.

والنطفة: هي القذفة المنوية التي تخرج من الرجل، وتخرج من المرأة، فينشأ من امتزاجهما واختلاطهما بداية تخليق الإنسان، وقد جاء العلم الحديث فيما يسمى بـ«علم الأجنة» بتفاصيل لهذه العمومات، تدل على ما دلّ عليه القرآن، وتظهر من دلائل الربوبية ما لم يكن في علم الأولين. فإنّ الدفقة التي يقذفها الرجل تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية، يسبق منها واحدٌ فقط لتلقيح البويضة المنحدرة من المبايض الأنثوية أعلى الرحم. وهذا يدل على سعة قدرة الله عز وجل، فيكفي من هذه الملايين، واحد لكي يكون مبتدأ الخلق.

والحيوان المنوي عبارة عن خلية تختلف عن بقية خلايا الجسم،

ويقول علماء وظائف الأعضاء: إنّ سائر الخلايا يكون فيها ستة وأربعون مورِّثًا جينيًا، إلا الخلية المنوية ففيها نصف العدد؛ ففيها ثلاثة وعشرون مورِّثًا جينيًا (كروموزوم) من الرجل، يقابله ثلاثة وعشرون من بويضة المرأة، ليمتزج ماء الرجل بماء المرأة، ويصبح العدد ستة وأربعين، فتتكون الخلية الأمشاج، الخلية.

ومعنى ﴿أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: أخلاط؛ أي: مزيج من ماء الرجل، وماء المرأة، يلتقيان بقدرة الله، ويحصل التخصيب، فتنشأ الخلية الأولى، ثم تعلَق في جدار الرحم، ولذلك تسمى علقة، والمفسرون الأوائل يقولون: العلقة قطعة من دم؛ وذلك أن الأوعية الدموية التي تكون في جدار الرحم تمتد إليها، فلا تزال تمدها بالغذاء حتى تكتسب هذا الوصف، وتبدو كأنها قطعة جامدة من دم. فلا تزال تنقسم انقسامات متتالية حتى تصبح مضغة، ثم لا تزال المضغة تنقسم، وتتخصص خلاياها حتى تصبح مُخلّقة، ثم تصل بعد ذلك إلى مراتب أُخر كما ذكر الله تعالى في سورة المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

فمراحل تخليق الجنين تدل على عظمة الله ﷻ، كما قال ربنا ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩].

فآخر عهد الرجل أن يقضي وطره، ويأتي شهوته، ثم ينصرف، ولا يدري ما الذي يجري! لكنّ الله تعالى يُتابع هذا الخلق، فلا تشعر المرأة إلا وقد انقطع عنها الطمَث، ليدخر غذاءً للجنين، فينمو ويكبر بإذن الله.

إنها آياتٌ عِظام لمن تأملها، ولهذا يذكّر الله بها دومًا؛ **أولًا**: لما فيها من دلائل الربوبية، **ثانيًا**: لما فيها من تذكير الإنسان بأصل خلقته.

غير أن بعض بني الإنسان، الذي كان نطفة مذرة، تشنؤها العين، وتتقزز منها النفوس، لا يلبث أن يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]! ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]! ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]! ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]! فوا عجبًا له، ما أطغاه!

قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ أي: نختبره، وفي هذا تنبيهٌ على حكمة الخلق، وأنَّ الله ﷻ ما خلقه عبثًا، ولا لهوًا، ولا لعبًا. بل لحكمةٍ، وغاية. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فأفعال الله تعالى مُعلّلة، لها حكمة، منزهة عن العبث، والسفه، ونفي الحكمة.

قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾؛ أي: لم تَزَل هذه النطفة الأمشاج تكبر وتنمو، حتى تخصَّصت خلاياها، فصار من خلاياها الأذن التي تسمع، والعين التي تُبصر، والقلب الذي يعقل. وهذه هي الآلات والأدوات، التي يتأهَّل بها لحمل الأمانة التي أعيت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان قد آتاه الله تعالى من الآلات، والأدوات، والاستعدادات، ما يتمكّن به من تحمّل التبعات والمسؤوليات، وفهم الخطاب، والقيام بما خُلِق لأجله. فالسمع، والبصر، منافذ التعلم، وكلاهما يصب في الفؤاد الذي فيه العقل، فهما يجلبان المعاني، والمعارف، والدلائل، إلى القلب، فيقوم القلب بتصورها، وتعقّلها، وإدراكها، وبقية الجوارح مُعدَّة للعمل، فتقوم عليه الحجة.

وقد وصف الله الإنسان بأنه سميعٌ، وبصيرٌ، والله تعالى سميعٌ، وبصير، لكنّ سمع الله يليق به، وسمع المخلوق يليق به، وبصر الله يليق به، وبصر المخلوق يليق به. واتفاق الأسماء لا يستلزم اتفاق الحقائق والكيفيات؛ فالاشتراك وقع في الاسم، وأصل المعنى المعهود في الأذهان، لكنه يتخصص في الأعيان. فأصل معنى السمع: إدراك الأصوات، وأصل معنى البصر: إدراك المرئيات. فلا يُشكل عليك أن يوافق وصفُ العبد وصفَ الربّ، واسمُ العبد اسمَ الربّ؛ لأن لله ما يليق به، وهو المثل الأعلى، وللعبد ما يليق به، وهو المثل الأدنى.

فلما تكونت عنده هذه المؤهلات، وهذه الاستعدادات، قال تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾، هذه الهداية هي هداية الدلالة، والبيان، والإرشاد؛ فالله ﷻ هدى هذا المخلوق الذي بات قادرًا على فهم الخطاب، إلى السبيل، وذلك بإقامة الحجة الرسالية، وقد أودعه قبل ذلك الغريزة الفطرية، فقد فطر عباده على الدين، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال نبيه ﷺ: «**ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ، ويُنَصِّرانِهِ، كما تُنْتِجُونَ البَهِيمَةَ، هلْ تَجِدُونَ فيها مِن جَدْعاءَ، حتَّى تَكُونُوا أنتُمْ تَجْدَعُونَها؟**»(١)، والفطرة هي الإسلام، ولهذا لم يقل يسلِّمانه أو يأسلمانه؛ بل قال: يهودانه، وينصِّرانه؛ لأن التهود، والتنصُّر، انحرافٌ عن الفطرة السليمة، ورغبة عن الحنيفية؛ ملة إبراهيم، كما نرى الشاة، أو الناقة تلِد بهيمةً تامة الخلقة، ثم يأتي أصحابها فيجدعون أذنها، ويكسرون قرنها، فكذلك ابن آدم يخرج خلقًا سويًّا، على الفطرة التي

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٣٥٨)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

فطره الله تعالى عليها، وهي الإيمان به، وبربوبيته، وألوهيته، واعتقاد كمال صفاته، ثم يؤثِّر عليه أبواه، ومحيطه الاجتماعي، كما قالَ تعالى في الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»(١)، والمقصود أنّ الله تعالى هداه السبيل، فوق دلالة الفطرة، بدلالة الحجة الرسالية. قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فلم يدع الله الناس لفطرهم؛ بل زاد على ذلك أن أرسل إليهم رسلًا، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

والهداية **نوعان**:

الأولى: هداية الدلالة، والإرشاد، والبيان: وهذه يستطيعها الرسل، والعلماء، والمربُّون، والوعاظ؛ يدلّون، وينصحون، ويعظون، ويُعلِّمون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وكقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

الثانية: هداية التوفيق والإلهام: فهذه لا يقدر عليها إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، وقال: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، في نحو عشر مواضع من القرآن، وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥).

فلما أقام الله الحجة على عباده، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، آلَ حال الناس إلى أحد أمرين، إما شكر وإما كفر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. وهذا الاهتداء للسبيل، ليس قسريًا اضطراريًّا؛ بل هو اختياري إرادي من جهة الإنسان، فإنه يجد في قرارة نفسه، وخبيئة قلبه، إرادةً تحمله على سلوك أحد السبيلين، كما قال ربنا سبحانه وبحمده: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]. فربنا سبحانه وبحمده، بيّن للعباد طريق الجنة وطريق النار، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، وبيّن لهم جزاء الطاعة، وجزاء المعصية، وآتى كل نفس مشيئةً وفعلًا حقيقيين؛ بهما يأتي وبهما يَذر، فلا يهلك على الله إلا هالك. ولا يتعارض ذلك مع وجود القدر السابق، كما دل عليه الشرع والواقع.

وليس لأحدٍ أن يحتجّ بالقدر السابق، لسببٍ جلي؛ وهو أنه لا يعلم ما الذي قدّر الله له، وهو حين أمره ونهاه، كان يملك الإرادة، والقدرة على الفعل أو الترك بمحض اختيار، وسبق إصرار، وعليه فلا حجة لأحدٍ بالقدر على ترك الطاعات، وفعل المحرمات. والمقصود أنّ الله جعل هذه الحياة محل ابتلاء. والشكور: هو الذي يقابل نعمة الله وهدايته بالاغتباط بها، وقبولها والسير على نهجه، وسبيله. والكفور: هو الذي غطى فطرته، وتنكب الطريق، واستنكف، واستكبر. وإنما سمي الكافر كافرًا لأن الكفر هو التغطية، فكأنه غطّى قلبه، وعقله، بهذا الحجاب؛ حجاب الكبر، والإباء، والتكذيب، فحال بين قلبه وبين نور الله، ولم يقبل هدى الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، لما ذكر الله

تعالى التنوُّع في العباد، نبّه على تنوع الجزاء، ومعنى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾: هيّأنا وأعددنا، والسلاسل تكون في الأيدي، وفي الأرجل، والأغلال تكون في الأعناق، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ [يس: ٨]، فتغل أيديهم إلى أرجلهم إلى أعناقهم، فيقذفون في النار.

والآية تدل على أنَّ النار مخلوقة؛ لأنه قال: ﴿أَعْتَدْنَا﴾، وهو فعل ماضٍ؛ فالجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن؛ فقد قال عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤]، خلافًا للمعتزلة، الذين ينفون ذلك، ويزعمون أن خلقهما عبث لا حاجة له. وهذا مبنيٌّ على أصلهم الفاسد؛ إذ أنهم يحكمون على الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ بوجوب فعل الأصلح، بمحض عقولهم، فيما يجب لله، وما يمتنع عنه، وما يجوز عليه، وهذا من الجرأة العظيمة على الله ﷻ، والواجب اعتقاد ما دلّت عليه النصوص، من طلاقة مشيئته المقترنة بحكمته.

والسعير: هي النار الموقدة، وهو اسم من أسماء جهنم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾، الأبرار: جمع بَرّ؛ فالبِرّ كثرة الخير، والبَرّ هو من يكثر فعل الخير، فسمَّاهم الله تعالى أبرارًا؛ لأنهم بارّون في أعمالهم وأقوالهم. والكأس في اللغة يراد به كأس الخمر، وهو خمر الجنة، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]؛ أي: لا يلحقهم ما يلحق من يشرب خمر الدنيا من الصداع، والأذى، وفقدان العقل، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]؛ بل فيه اللذة، كما وصف في هذه الآية. والعرب تعرف الكأس، وتعرف الخمر،

وتعرف الكافور، لكن ليس في الجنة ممّا في الدنيا إلا الأسماء؛ فالأسماء واحدة، لكن الحقائق والكيفيات مختلفة، إلا أن ثَمّ اشتراك في أصل المعنى. ولهذا يذكر المفسرون أنّ الكافور فيه برودة، يناسب أن يكون مِزاجًا، وخلطًا مع الكأس.

قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾، ذهبَ المفسرون إلى أنّ هذه مرتبة أعلى من سابقتها، وأنّ عباد الله هنا هم المقرّبون، الذين رتبتهم أعلى من رتبة الأبرار، فلئن كان الأبرار يشربون من كأس ممزوجة، فإنّ عباد الله المقربين يشربونها صِرفًا من العين مباشرة. وقد قال: (يشرب بها)، ولم يقل يشرب منها، وهذا ما يسمى في علم البيان بالتضمين؛ يعني: أن الفعل يُضمّن معنى فعل آخر، فكأنه ضمّن فعل (يشرب) فعل (يروى)؛ أي: يروى بها، أو يتروّى بها، فهم يشربون، ويرتوون أيضًا.

والإضافة في قوله: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، إضافة تشريف؛ أي: أنّ عبوديتهم لله عبودية حَقَّة، فليسوا مجرد عبيد عبودية كونية، فكل الخلق كذلك؛ مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، لكن المقصود هنا العبد العابد، وليس العبد المعبّد.

وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾؛ يعني: يذهبون بها، ويصرفونها كيف شاؤوا؛ في مساكنهم، وبساتينهم، حيث شاؤوا، فكأنها طوعُ بنانهم.

ثم ذكر المسوّغ الذي لأجله نالوا هذه الدرجات العُلى، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، النذر، إما أن يراد به مطلق ما أوجبه الله ﷻ، كقوله في مناسك الحج: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، فثَمَّ مناسك يجب أداؤها؛ فهي واجبة

بأصل الشرع، وإما أن يراد بالنذر، ما أوجبه الإنسان على نفسه من غير إيجابٍ من الله، كان يقول إنسان: لله عليّ نذر أن أصوم شهرًا، أو يقول: لله عليّ نذر أن أحجّ بيته، أو يقول: لله عليّ نذر أن أذبح ناقة أو شاة. فإلزام الإنسان نفسه طاعة غير واجبة يسمَّى نذرًا، فَهُم على كلا الحالين، يوفون بالنذر، وقد قال النبي ﷺ: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»**(١).

وليس في هذا دليلٌ على مشروعية النذر، وإنما فيه دليل على وجوب الوفاء به إذا انعقد. ولا ينبغي للإنسان أن ينذر، ويضيِّق على نفسه، بأن يلزمها بما لم يلزمها الله به، فقد نَهَى النبي ﷺ عَنِ النَّذْرِ، فَقَالَ: **«إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»**(٢)، وصدقَ، بأبي هو وأمي، ﷺ، فإنَّ كثيرًا من الناس يُخيَّل إليهم إذا أرادوا شيئًا من المطالب أن ذلك لا يتم لهم إلا بالنذر! فيقول: لله عليّ نذر إن حصل كذا، أن أذبح كذا، أو أتصدق بكذا، فإذا تحقق مطلوبه حاول جاهدًا أن يتنصل ممّا نذر، ويبحث عن مخرج، وهذا أمرٌ مُشاهَد! تجد من نذر أن يتصدق، مثلًا بألف ريال، إذا تحقق ما يرجوه، جعل يستفتي: هل يصلح أن أوزعه على أولادي؟!

فينبغي للإنسان، إذا أراد من اللهِ شيئًا، أن يرفع يديه، ويدعوه، فالله ﷻ يعطي، لا على سبيل المقايضة. هل تظن أيها الناذر أنَّ الله ﷻ، لم يحقق طلبتك إلا لأنك نذرت؟ الله غني عنك، وعن نذرك، لكن سله من واسع فضله، وادعه، فليس شيء أكرم على الله من الدعاء. وينبغي لطلبة العلم أن يحذّروا الناس من النذر، حتى لا يقعوا في عدم الوفاء به، فمن كان في سَعَة، فلا يضيّق على نفسه واسعًا، ثم هو إن شاء، بعد

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٠٨)، ومسلم رقم (١٦٣٩).

أن يُحقق الله تعالى له ما يرجوه، أن يشكر ربه بما شاء من أنواع الطاعات، فذلك خير من أن يفعله على سبيل الالتزام.

قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، الوفاء بالنذور من فعل الواجبات، والخوف من اليوم الآخر حجزهم عن الوقوع في المحرَّمات. وهو يوم حقيقٌ بالخوف لا شكّ، يوم القيامة يومٌ عظيم، يومٌ مهول، من امتلأ قلبه بالعلم بحقيقته، وتفاصيله، وما يجري فيه، نشأ عنده خشية، وورع، وخوف عند تذكره! ومعنى مستطيرًا؛ أي: منتشرًا، ممتدًا، يملأ السماء والأرض، تُبدّل فيه الأرض غير الأرض والسماوات.

قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾، قال بعض المفسرين: مرجع الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؟ إلى الله؛ أي: يطعمون الطعام على حب الله، أو بسبب محبة الله، ولكن الظاهر والله أعلم ـ وعليه أكثر المفسرين ـ أنَّ المراد: على حب الطعام؛ يعني: أنهم يحبون هذا الطعام، الذي هو جزء من مالهم، ومقتنياتهم، ومع ذلك فإنهم يبذلونه ابتغاء وجه الله.

والمسكين: من أسكنته الفاقة، فلا يملك قوته، وإذا جاء منفردًا في القرآن، فإنه بمعنى الفقير، كما أنَّ الفقير إذا جاء منفردًا في القرآن، فإنه بمعنى المسكين، أما عند الاجتماع، فإن العطف يقتضي المغايرة، كما جمع بينهما في آية مصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، قال المفسرون: الفقير هو الذي لا يجد أكثر كفايته؛ أي: دون النصف، والمسكين هو الذي يجد أكثرها؛ أي: النصف فأكثر؛ فالفقير أشد فاقة من المسكين. وعند الانفراد هما بمعنى واحد، كما في قول الله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩].

واليتيم: من مات أبوه ولم يبلغ؛ فالغالب أنه لا عائل له، ولا منفق عليه، وقد عظّم الشارع العناية بهؤلاء الضعفاء، فقال الله تعالى:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦]، وفي هذا استجاشة لأصحاب النفوس الكريمة الطيبة أن يبذلوا، ويعطوا، ويطعموا، فإنّ من عباد الله من لا يجد ما يسد جوعته، وكثير من الناس يتفكّه بالكماليات، ولا يشعر بحاجة الفقراء والمساكين والأيتام. فينبغي لأهل الإيمان أن يتفطّنوا لذوي الحاجات.

والأسير: هو المحبوس، وقيل: هو العبد الرقيق؛ لأنه بحكم المحبوس على سيده. وقد عظّم النبي ﷺ شأن ما ملكت الأيمان من الأرقاء والإماء، فكان من آخر وصاياه: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»(١).

فهذه الأمور الخُلقية، أمور مُقترنة بأصل الدين، وإذا ذهب الدين، ضاعت هذه العاطفة الإنسانية، وفقد هذا الباعث الإيماني. والله ﷻ يذكر في صفات الكافرين ما ينافي الأخلاق، كقوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]. فالإيمان سبب للرأفة، والشفقة، والرحمة، والبذل، والعطاء، وفقد الإيمان سبب للقسوة، والغِلظة، والإهمال، وإهدار الحقوق.

وفي **قوله**: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ معنى ينبغي التفطن له؛ وهو إنّ العمل قد تكون صورته واحدة، لكن يتفاوت ثوابه بحسب القرائن المحيطة، فقد جاء في الحديث: **«سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ»** قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: **«كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا»**(٢)، فإن رجلًا لا يملك إلا درهمًا فيتصدق به، يفضلُ رجلًا يملك آلاف الدراهم فيتصدق بألف درهم،

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٦٤٨٣).
(٢) أخرجه النسائي رقم (٢٥٢٧).

وربما قارن الدرهم الواحد نية خالصة، وقارن الألف درهم مراءاة ومباهاة.

قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، لم يقولوا هذا كفاحًا في وجوههم، وإنما يقولون ذلك في نفوسهم، كما قال عدد من السلف، حتى لا يَمْتَنُّوا عليهم، فإن المنّ يُبطل الصدقة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. بعض الناس إذا أعطى طفق في كل مناسبة يذكِّر بعطيته، ويمنُّ بها، ويؤذي صاحبه ويذلُّه! وهذا سلوك مذموم، يحبط عمله، ويبطل صدقته. والواجب أن يكون كما وصف الله: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، ابتغاء وجه الله، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾؛ أي: لا نريد عوضًا، ولا ثناءً.

ومن الناس من إذا أحسن لغيره، وتصدق عليه، أخذ يستقضي به الحاجات، ويوجهه في مصالحه، كأنما يسترد ما بَذله، ويتعجل ثوابه. فعلى العبد المؤمن أن يتفطن لهذا، فلا يستوفي أجره في الدنيا؛ بل يدَّخره خالصًا للآخرة، ولا ينتظر الثناء من الناس؛ ليقولوا: فلان المحسن الكريم، ويستشرف ذكر مناقبه، ويخدش نفسه إغفالها. فأمر الإخلاص مهمٌّ جدًّا. نسأل الله أن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة. فإن الله طيّب لا يقبل إلا طيبًا! قال في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾، أعاد ذكر اليوم الآخر؛ لأنه ماثلٌ في قلوبهم، ونصب أعينهم، وهو الذي ضبط مسارهم. وإنما وصف اليوم نفسه بأنه عبوس، باعتبار آثاره على وجوه أهله، ووصفه أيضًا بأنه قمطرير؛ أي: شديدًا. ولا حرج في وصف

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥).

اليوم، مع كونه ظرف زمان، بوصفٍ معنوي، باعتبار ما يقع فيه، كما قال لوطُ عليه السلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود: ٧٧]، وليس ذلك من باب «سب الدهر»؛ لأنه وصف مجرد.

وقيل في معنى عبوس: أنه يظهر العبوس والكلح على وجه الكافر، حتى قال بعضهم: ينعقد ما بين عينيه، فيسيل منه مثل القطران! وقال ابن عباس رضي الله عنه: عبوس؛ أي: ضيق، وقمطرير طويل. قال ابن كثير رحمه الله: وعبارة ابن عباس: أوضحها وأجلاها وأعلاها وأحلاها وأولاها.

ولا ريب أنَّ الوجوه مَرائي القلوب، ولهذا تظهر التعابير من فرح أو حزنٍ أو غبطةٍ أو اكتئابٍ على الوجوه، تأمل قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤١]. فالوجه هو المرآة التي تظهر عليها الانفعالات، وقد كان وجهه ﷺ مرآة قلبه، تُرى الانفعالات الصادقة في قسماته الشريفة؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا، تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ)[1]، وفي حديث آخر: (رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ)[2]، بأبي هو وأمي ﷺ يظهر عليه أثر السرور، وأيضًا تعرف الكراهة في وجهه، إذا كره شيئًا.

قوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾، ذاك اليوم الذي أقضّ مضاجعهم، وحملهم على ترك الشهوات، ولزوم الطاعات، لما خافوه في الدنيا أمَّنهم في الآخرة، فإن الله تعالى لا يجمع على عبد مخافتين، ولا يجمع عليه أمنين، فمن خافه في الدنيا أمّنهُ في الآخرة، ومن أمَّنهُ في الدنيا أخافه في الآخرة.

قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾، بمعنى أعطاهم، والنضرة: هي

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٥٥٥)، ومسلم رقم (١٤٥٩).
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٠١٧).

البهاء، والصفاء، والإسفار في الوجوه، فلما وصف اليوم بأنه عبوس قمطرير، تظهر آثاره على وجوه الكافرين، نبَّه أنّ حال المؤمنين ضد ذلك. فالنضرة في الوجوه، والسرور في القلوب.

قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾، الجزاء من جنس العمل؛ لأن الله تعالى حَكَمٌ عدلٌ مُقسِطٌ سبحانه وبحمده، لا يضيع أجر المحسنين. فالباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ أي: بسبب صبرهم، فصبرهم ذاك، كان سببًا للنعيم.

فأما الجنة: فهي دار النعيم، التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، قال تعالى في الحديث القدسي: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[(١)]، وفي الحديث: «**فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ**»[(٢)].

وأما الحرير: فهو اللباس الرائق، الرقيق، الناعم، الفاخر. وكأنّ الله ﷻ لما ذكر النعيم الباطني، من السرور ذكر النعيم الخارجي؛ فالجنة هي ما تشاهده العين، والحرير هو ما يكسو البدن.

والصبر له منزلة عظيمة؛ فالدين كله صبر. وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فمنزلة الصبر من الدين كمنزلة الرأس من الجسد. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

فالصبر على طاعة الله: أن يحمل الإنسان نفسه على فعل الأوامر؛ بل وفعل المستحبات، والصبر عن معصية الله: أن يحجز الإنسان نفسه

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٤٤)، ومسلم رقم (٢٨٢٤)، متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن ماجه رقم (٤٣٣٢)، وابن حبان رقم (٢٦٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢١ - ٢٢).

عن ارتكاب المُحرَّمات؛ بل والمكروهات، والصبر على أقدار الله المؤلمة: أن يحبس الإنسان نفسه عن الجزع، ولسانه على التشكي والسخط، وجوارحه عن ضرب الخدود، وشق الجيوب، وما أشبه ذلك من فعل الجاهلية، ويرضى بما قسم الله، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، قال علقمة: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ[(١)].

قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾، لا تجد وصفًا للنعيم كوصف القرآن، ولا أرق، ولا أنعم، كما تجد في هذه السورة، شيء لا تحيط به العبارات، ينقلك إلى أجواء سامية، رفيفة، راقية؛ حسًّا، ومعنًى. والاتكاء: إما أن يكون بمعنى الاضطجاع، بأن يمد جسمه على الأرض، أو بمعنى الارتفاق، بأن يتكئ بمرفقه. والأرائك: هي السرر التي تحت الحجال؛ يعني: لها مظلة. وهو مشهد يشفّ عن نعيمٍ، ورقةٍ، ودعةٍ، وبهجةٍ، يسرح الخيال في تصورها.

قوله: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾، لا يَرون فيها شمسًا تحرقهم بحرارتها، ولا بردًا يقتلهم بصقيعه؛ بل هو جوٌّ معتدل، وإضاءة رائقة، خلقها الله، فلا يلزم أن يكون النور بسبب الشمس، أو القمر؛ بل يخلق الله في الجنة نورًا، ويجعل فيها جوًّا معتدلًا غير متقلب.

قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾؛ يعني: قريبة، ظلال أشجارها، فهي تكتنفهم، وتحيط بهم.

قوله: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾، قطوفها: ما يقطفون من ثمارها، وذُلِّلت: أي: هُيِّئت وقُرِّبت، فإذا أحب أحدهم أن يقطف من ثمار الجنة، تدلّى له الغصن، ولم يحتج إلى القيام لتناوله، وإذا قام ارتفع معه، فهم محاطون بالرفاهية والرقة والنعيم.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٢١).

قوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، الفضة من أرقِّ المعادن، فأواني الجنة، أو بعض أوانيها من الفضة، لرقتها ونعومتها. وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، لكنها تشترك معها في أصل معناها، فمن معاني الفضة أنها تمتاز بالرقة والصفاء.

قوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾، الأكواب: هي ما لا عرى له ولا خراطيم من الآنية، والأباريق ما له عرى وخراطيم.

قوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾؛ يعني: كهيئة القوارير، لكنّها قوارير من فضة، وهذا شيء عجيب! لأن القوارير تكون من الزجاج، فكيف سُبِكت الفضة وصارت في صفائها كصفاء الزجاج، هذا من عجائب الجنة. و«قوارير» الثانية، بدل من «قوارير» الأولى.

قوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾؛ يعني: قدّرها مَن أَمَرَهُ الله تعالى بصنعها، تقديرًا، بحيث تكون على قدر حاجة الشارب؛ لأن الإناء إذا كان كبيرًا، ومملوءًا، لم يلتذَّ به شاربه، وإذا كان صغيرًا لم يفِ بحاجته، أما أكواب الجنة فجاءت على مقدار.

قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾، الكأس في لغة العرب يراد به كأس الخمر، وهذه المرة مِزاجه الزنجبيل، والزنجبيل فيه رائحة زكية، محببة، لكن زنجبيل الجنة، ليس كزنجبيل الدنيا، الذي فيه لذعة، وحرارة؛ بل فيه ما تميل إليه النفوس بمعنًى من المعاني.

قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾؛ أي: في الجنة عينٌ مشهورةٌ تسمَّى سلسبيلًا، وذلك لسلاستها، وطيب مائها، وبرده وحلاوته.

قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، وهم الغلمان الحِسَان الذين خلقهم الله ﷻ في الجنة، لخدمة أهل الجنة، يطوفون عليهم بالأكواب، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، ويأتونهم بما يشتهون.

قوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾، يا له من وصفٍ عجيب! يعني: لكثرتهم، وبهائهم، ونَضرتهم، كأنما هم لؤلؤٌ منثور! وصفٌ مدهشٌ مبهرُ لا تستطيع العبارات أن تنقله.

ومعنى مخلّدون: خلقوا للبقاء؛ لا يتغيرون، ولا يموتون، وقيل: مخرَّصون؛ يعني: في أذانهم أقراط، كما يجعل للصبيان، فيما مضى، أقراط في أذانهم.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾؛ يعني: مهما قلَّبت طرفك والتفتّ، في هذه الأجواء العظيمة، الرفيفة الرقيقة، الناعمة، تجد نعيمًا وملكًا كبيرًا، ملَّكَهُم الله إياه، حتى إن أقل أهل الجنة نعيمًا من يسير في مُلكه ألفي عام، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه! فما بالك بالمقربين؟.

حينما تقرأ سورة الإنسان، يسرح خيالك في التفكر في هذا النعيم الراقي، الرقيق، البهيج، لا يمكن لأي أديب، أو شاعر، أو كاتب، أن يصف منظرًا، وحالًا، من الحبور، والسرور، والبهجة، والنظرة، والنعمة، كما وصف الله تعالى نعيم الجنة، وهو وجد يتذوقه المؤمنون، ولا يملّون منه. كما أن قارئ القرآن، مهما كرر السورة؛ فعقله وخياله يذهب مذاهب متعددة، وتتفتق له معاني وصور لا حصر لها.

قوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾؛ يعني: يعلوهم ويكسوهم. والسندس: هو ما رقّ من الحرير، والإستبرق: ما غلظ وسمك منه. والخضرة لون ينمّ عن الفخامة، والنعومة.

قوله: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، الأساور: حلق من ذهب أو فضة، تكون في اليدين.

قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾، نسب السقيا إليه، فما

أكرم الساقي، وما أهنأ المسقي، وما أطيب السقيا! ﴿شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾: ليس فيه شيء من القذى.

وحينما يذكر الله ﷻ، صنوف النعيم في الجنة، فإنما يخاطبهم بأسماء يعرفونها في الدنيا، ويعهدون لها معاني محببة تهفو إليها النفوس، من المطاعم والمشارب، والملابس، والمناكح، وغيرها. فالسندس معروفٌ في الدنيا بأنه حريرٌ فيه رقة، والإستبرق حريرٌ يتصف بالفخامة، فيكون هذا المعنى موجودًا في ما هو في الجنة، موافقًا في معناه بما عهدوه في أذهانهم. ولو أنَّ الله ﷻ أغرى المؤمنين بألفاظ ليست معهودة عندهم، ما أحدث عندهم شوقًا ولا طعمًا، لو أننا نحتنا لفظًا مصنوعًا، لا يُعرف له معنى، لم يبعث ذلك على الشوق والتوق إليه، لجهالته المطلقة. فلا بد أن يخاطبهم الله ﷻ بأمورٍ معهودةٍ عندهم، كما أخبر أنَّ في الجنة ماءً غير آسن، ولبنًا لم يتغير طعمه، وخمرًا لذة للشاربين، وعسلًا مصفى، فلا بد أن يكون في الماء معنى الري، وفي اللبن معنى الشبع، وفي الخمر معنى الطرب، وفي العسل معنى الحلاوة، وهكذا في بقية نعيم الجنة. فأصل المعنى لا بد أن يكون مشتركًا.

وقد اتخذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، هذه القضية، في رسالته «التدمرية»، مثالًا لمنهج الإثبات، الذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة، فقال: (إن الله ﷻ أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات، من أصناف المطاعم، والمشارب، والملابس، والمناكح، والمساكن، فأخبرنا أنَّ فيها لبنًا، وعسلًا، وخمرًا، وماءً، ولحمًا، وفاكهةً، وحريرًا، وذهبًا، وفضةً، وحورًا، وقصورًا. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا شيء ممّا في الجنة إلا الأسماء، فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها، هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها؛ بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ فالخالق ﷻ أعظم مباينة للمخلوقات، من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من

مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم، من الخالق إلى المخلوق. وهذا بيّنٌ واضح)[١].

فإذا كان ربنا ﷻ عرَّفنا بنفسه بأسماء وأوصاف، نعهد نظيرها في المخلوقات، دلَّ ذلك على أنَّ الاشتراك إنما هو في أصل المعنى، فقط، لا في الحقائق والكيفيات. فسمَّى نفسه سميعًا، وسمَّى نفسه بصيرًا، كما سمَّى عبده سميعًا بصيرًا، فلا سبيل لنا أن ندرك معانى هذه الأسماء والصفات إلا بما نعهده في أذهاننا من أنّ السمع: هو إدراك الأصوات، وأنّ البصر: هو إدراك المرئيات، فهذا المعنى المشترك بين الخالق والمخلوق، معهودٌ في الأذهان، لكنّه يتخصص في الأعيان، فإذا أضيف السمع إلى الله فله منه المثل الأعلى، وإذا أضيف السمع إلى المخلوق، فله منه المثل الأدنى، إذا أضيف البصر إلى الله صار له منه المثل الأعلى، وإذا أضيف البصر إلى المخلوق فله منه المثل الأدنى، فلا يمكن أن نفقه، ونفهم معاني أسماء الله وصفاته إلا بأصلٍ معهودٍ في الأذهان، وإثبات هذا المعنى، لا يترتب عليه أدنى منقصة ولا شبهة.

وهذه هي محنة المعطِّلة؛ حيث ظن المعطِّلة على اختلاف طبقاتهم، أنَّ إثبات شيء لله، مما سمَّى ووصف به بعض مخلوقاته، تمثيلًا، فيبادرون إلى نفيه، وإنكاره، على تفاوتٍ بينهم، فيقعون في التعطيل الكلي أو الجزئي. فإذا أخبر الله تعالى أنَّ له وجهًا كريمًا، وأنَّ له يدين مبسوطتين بالعطاء والنعم، وأنَّ له عينين يبصر بهما سبحانه، فيجب أن نثبت ما أثبت الله لنفسه دون تمثيلٍ ولا تكييف، ودون تعطيلٍ ولا تحريف. ولا يلزم للإثبات أن ندرك الكيفية، لكن نثبت حقيقة المعنى. وهكذا بقية الصفات الفعلية؛ كالرضا، والسخط،

---

(١) الرسالة التدمرية: تحقيق الإثبات، للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع (ص٤٦).

والفرح، وغيرها، أصلها معهودٌ في الأذهان، لكن يُنزه الله تعالى عن اللوازم البشرية التي فيها ضعف، أو نقص، أو مماثلة للمخلوقين، ويكون له منها المثل الأعلى. فهذه معانٍ يجب أن يتدبرها طالب العلم؛ لأنها تزيل عنه إشكالات كثيرة من شبهات المتكلمين، وورطاتهم التي لم يتمكنوا من الخروج منها، وباءوا بشؤمها وردوا بسببها النصوص القرآنية والنبوية.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾، يمتنّ الله تعالى عليهم بذلك، وله المنّ والفضل سبحانه، فإنما دخلوا الجنة برحمته، كما قال النبي ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[١]. فجعلَ الله ذلك برحمته، لكن جعل أعمالهم سببًا لدخول الجنة. فالله ﷻ شكور، يثيب الطائع، مع أنه المتفضل عليه بالهدى.

۞ الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: ورود الاستفهام في القرآن بما يفيد التقرير.

الفائدة الثانية: إنَّ الإنسان في القرآن قد يراد به آدم عليه السلام، أو جنس الإنسان، أو الكافر خاصة. ويُعلم ذلك من السياق.

الفائدة الثالثة: أنَّ لفظ «الشيء» قد يكون أمرًا وجوديًا، أو أمرًا عدميًا. وقد حقق ابن أبي العِز الحنفي رحمه الله هذه المسألة بكلامٍ محكم، فقال: (وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الْمَعْدُومَ لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي الْخَارِجِ، وَلَكِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَيَكْتُبُهُ، وَقَدْ يَذْكُرُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١]، فَيَكُونُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالْكِتَابِ، لَا فِي الْخَارِجِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٨١٦).

شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩]؛ أي: لَمْ تَكُنْ شَيْئًا فِي الْخَارِجِ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا فِي عِلْمِهِ تَعَالَى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[1].

الفائدة الرابعة: حقارة الإنسان، وضعفه، وافتقاره إلى خالقه.

الفائدة الخامسة: التنبيه على أصل خلق الإنسان، من ماء الرجل، وماء المرأة.

الفائدة السادسة: بيان حكمة الخلق، وهي الابتلاء.

الفائدة السابعة: تزويد الإنسان بالآلات والأدوات التي يحصل بها الابتلاء.

الفائدة الثامنة: تكَفُّل الله بهداية الدلالة والبيان، وإقامة الحجة الرسالية.

الفائدة التاسعة: إسناد الأفعال إلى العباد حقيقة، من الشكر، أو الكفر.

الفائدة العاشرة: أنَّ النار مخلوقة مُعدّة لأهلها، موجودة، مُضطرمة، يُزاد في جحيمها وسعيرها.

الفائدة الحادية عشرة: تنوُّع عذاب أهل النار، وتفنن نعيم أهل الجنة.

الفائدة الثانية عشرة: المفاضلة بين الأبرار، والمقربين في النعيم.

الفائدة الثالثة عشرة: أسلوب التضمين، وهو أن يُؤتى بفعلٍ ويُعدّى بما لا يتعدى به عادة؛ ليدل على فعلٍ آخر.

الفائدة الرابعة عشرة: وجوب الوفاء بالطاعات الواجبة بأصل الشرع، والواجبة بما أوجب العبد على نفسه، وهو النذر.

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/١١٨)، تحقيق: الأرنؤوط.

الفائدة الخامسة عشرة: وجوب ترك المحرمات، خوفًا من الله، واليوم الآخر.

الفائدة السادسة عشرة: عظيم شر يوم القيامة، وانتشاره، وامتداده..

الفائدة السابعة عشرة: فضيلة إطعام الطعام على حبه، حال تعلُّق النفس به.

الفائدة الثامنة عشرة: تحقيق الإخلاص لله ﷻ في الصدقات، والبعد عن طلب الشكر، والعوض والـمُراءات.

الفائدة التاسعة عشرة: تحرّي أصحاب الحاجات، من المساكين، والأيتام، والأسرى، ومن على شاكلتهم.

الفائدة العشرون: بيان الباعث على الإخلاص، وهو الخوف من اليوم الآخر.

الفائدة الحادية والعشرون: هول يوم القيامة، وضيقه، وطوله، وشدته، وظهور ذلك في وجوه الكافرين.

الفائدة الثانية والعشرون: أنَّ الوقاية، والنجاة من الشرور، والفوز والنجاة والسرور، من الله وحده.

الفائدة الثالثة والعشرون: المقابلة بين حال الشاكر والكفور، في الظاهر والباطن.

الفائدة الرابعة والعشرون: حصول الأمن في النفوس، والنضرة في الوجوه، والسرور في القلوب، للمؤمنين.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنَّ العمل والصبر سببان لدخول الجنة ونعيمها.

الفائدة السادسة والعشرون: فضيلة الصبر بأنواعه الثلاثة.

الفائدة السابعة والعشرون: قدرة الله على خلق النور دون شمسٍ ولا قمر.

الفائدة الثامنة والعشرون: تشويق المؤمنين إلى النعيم الحسِّيّ في الجنة، من مأكولٍ، ومشروبٍ، وملبوس.

الفائدة التاسعة والعشرون: أنَّ الاتفاق في الأسماء لا يلزم منه الاتفاق في الحقائق والكيفيات.

الفائدة الثلاثون: الموافقة في الأسماء تدل على موافقة في أصل المعنى ودلالته.

الفائدة الحادية والثلاثون: التنبيه بذلك على ما يتضمنه الإثبات في أسماء الله الحسنى لأصل المعنى.

الفائدة الثانية والثلاثون: روعة التصوير القرآني للنعيم ورقته.

الفائدة الثالثة والثلاثون: وهي بطلان مقالة: «ما عبدتك طمعًا في جنتك، ولا خوفًا من نارك، ولكن محبةً لك». هذه الجملة ينسبها بعض الصوفية إلى رابعة العدوية، أو بعض الصالحين. بل يجب أن نعبد الله بالحب، والخوف، والرجاء، وأن لا نهوِّن من قيمة هذه الأشياء، التي خوفنا الله منها، أو أغرانا بها.

فمن عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حروري خارجي، ومن عَبَدَ الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عَبَدَ الله بالحب، والخوف، والرجاء، فهو المؤمن الموحِّد. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

فعليك أيُها المؤمن أن تحذر من هذه المقولات المحدثة، التي ليس لها أصل من كلام ربِّ العالمين، ولا من كلام سيد المرسلين، ولا من كلام الصحابة والتابعين، وإنما صدرت عن قوم جاهلين، أو نُسِبَت إلى قوم صالحين. فيجب الاعتماد على ما دل عليه القرآن والسُّنَّة، فنعبد الله طمعًا في جنته، وخوفًا من ناره، وحبًّا فيه، فهذه الثلاث: الحب والخوف والرجاء، أمهات العبادات القلبية.

الفائدة الرابعة والثلاثون: أنَّ الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الخامسة والثلاثون: أنَّ الله تعالى متفضِّل شكور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٣١].

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، (نحن): ضمير فصل، وضمير الفصل يكثر وروده في القرآن، وله **ثلاث فوائد:**

أحدها: التأكيد، فلو قلت: زيد أخوك، لاستقام المعنى، لكن لو قلت: زيد هو أخوك لكان في ذلك مزيد تأكيد.

الثانية: الحصر؛ لأنه يدل على اختصاص ما قبله بما بعده، كقولك: المجتهد هو الناجح، فاختص به.

الثالثة: الفصل، ولهذا يسمى ضمير فصل، يفيد التمييز بين كون ما بعده خبرًا أو تابعًا. فلو قلت مثلًا: زيد الفاضل، فقد يشتبه على السامع؛ هل المقصود بالفاضل صفة لزيد، ولما يأتي الخبر، أم هو خبر له، لكن إذا قلت زيد هو الفاضل فإنه يدل على أنه خبر[1].

وهذا امتنانٌ من الله تعالى على نبيه ﷺ، وذلك أنَّ القرآن يتضمَّن: العقائد الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة، والآداب الرفيعة. وفي قوله: (تنزيلًا) ما يدل على أن القرآن ينزل شيئًا فشيئًا، كما

---

(١) انظر: أصول في التفسير، لشيخنا محمد بن صالح العثيمين، (ص٥٤).

دلَّ عليه قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]. فالله تعالى جعل القرآن منجّمًا، ينزل بحسب الحوادث والأحوال.

قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، الإيمان بالقرآن يتطلب صبرًا، صبرًا على طاعة الله، وصبرًا عن معصية الله، وصبرًا على أقدار الله المؤلمة. وهذه أنواع الصبر الثلاثة، كما تقدم مرارًا.

وحكم الربّ يشمل: الحكم الكوني، والحكم الشرعي؛ فالحكم الكوني القدري: هو ما يقضيه الله تعالى، ويقدِّره في خلقه من الأرزاق، والآجال، والمصائب، والآفات، والعزّ، والذّل، والصّحة، والمرض، والحياة، والموت. والحكم الشرعي: هو ما يحكم به من أحكام تكليفية؛ الإيجاب، والاستحباب، والتحريم، والكراهة، والإباحة، أو أحكام وضعية؛ من الصِّحة، والفساد.

فيجب الصبر لكلا الحكمين؛ الحكم الكوني، بالرضى والتسليم، والحكم الشرعي؛ بالقبول، والانقياد. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾، نهى الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين من بعده عن طاعة هذين الصنفين الآثم: المتلبس بالإثم، وهو الفسق والفجور، والكفور: الجاحد لله تعالى، المنكر لما جاء به أنبياؤه، فهذا تحذير من الله لنبيه من طرائق المنافقين، والكافرين، والعصاة، والفاسقين.

قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، فذكر الله تعالى غذاء القلب والروح. والغافل أضعف الناس أمام شهواته، وأما الذاكر فإن الله

تعالى يهبه قوة في قلبه، وروحه، ونفسه؛ بل وبدنه، تعصمه عن الوقوع في المحرَّمات، وتحمله على فعل الطاعات. وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه الماتع «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب» أكثر من سبعين فائدة لذكر الله.

وفي **قوله**: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥﴾، تنبيه على الصلوات؛ لأن الذي فيه ذكر اسم الله بكرة وأصيلًا، هي الصلوات، لا سيما صلاتي الصبح، والعصر. والبكرة: هي الغدو، والأصيل: هو العشي. ووسَّع بعض المفسرين، ومنهم السيوطي، مدلول البكرة لتتناول صلاة الصبح والظهر، والأصيل ليتناول صلوات المساء؛ العصر والمغرب والعشاء.

وذِكرِ الله تعالى نوعان: ذِكْر مطلق، وذِكْر مقيَّد؛ فالذِّكر المطلق: أن يلهج الإنسان دومًا بذكر الله تعالى، كما قال نبينا ﷺ: **«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»**؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: **«ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»**[1]. وقد قال ربنا: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أما الذِّكر المقيَّد: فهو ما قُيِّدَ بأوقات، وأحوال، وهيئات، وأسباب معينة، فهناك ذكر لله في الصلوات، كما أشرنا آنفًا، فيذكر الإنسان ربه في صلواته؛ من تسبيح، وتحميد، وتسميع، وقراءة فاتحة، وتشهُّد، وما إلى ذلك، وهناك أذكار في طرفي النهار، وأذكار للنوم، واليقظة، وللطعام والشراب؛ ابتداءً وانتهاءً، وللمسجد؛ دخولًا وخروجًا، وللخلاء؛ دخولًا وخروجًا، فلا يكاد شيء من أمور الحياة إلا ويتعلق به ذكر. فينبغي للموفَّق أن يحفظ الأذكار المتعلقة بكل

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٧).

حال، وزمان، ومكان، حتى يكون قلبه موصولًا بالله ﷻ دومًا.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾، في هذا أمرٌ بقيام الليل، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، إلا أنَّ هذه الآية قد قيَّدتها آية المزمل، وهي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: ٢٠]، فجعله الله على سبيل الاستحباب، مع بقاء فرضيته في حقه ﷺ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]. والإطلاق والتقييد، والعموم والتخصيص، معلومة في النصوص، يعرفها العلماء.

ولم يزل قيام الليل شعار الصالحين، يناجون ربهم، ويتملَّقونه، ويدعونه، ويخلون به، فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يجعل له حظًّا من هذا الشعار، وألَّا يكون جيفةً بالليل، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ كلَّ جعْظَرِيٍّ جوّاظٍ، سَخّابٍ في الأسواقِ، جِيفةٌ بالليلِ، حِمارٌ بالنهارِ، عالِمٌ بالدنْيا، جاهِلٌ بالآخِرَةِ**»[(١)]، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، عمن يترك الوتر، قال: «هو رجل سوء، لا ينبغي أن تقبل له شهادة».

وفي **قوله:** ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾، ما يدل على أنَّ في الدنيا مجالًا طويلًا لعبادة الله، كما قال في سورة المزمل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بهذا اللفظ رقم (٢٠٨٠٤)، وأخرجه أحمد بمعنى متقارب رقم (١٢٤٧٦)، وإسناده على شرط البخاري ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه الحاكم بمعناه رقم (٢٠٢)، وقال الحاكم والذهبي: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه.

سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾ [المزمل: ٧]، في الوقت بركة، وسعة، لمن وفقه الله تعالى. كثير من الناس يقول: لا أدري كيف يمضي اليوم والليلة، لا أدري كيف تأتي الجمعة بعد الجمعة، البركة منزوعة! الواقع أنَّ اليوم والليلة، منذ خلق الله السماوات والأرض، أربع وعشرون ساعة، لكل الناس، في كل مكان، لكن من الناس من يغتنمها، ويبارك له فيها، ومن الناس من يستغرق في الغفلات، فتذهب عليه سبهللًا لا يدري كيف تمر، ولا ينجز شيئًا.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، بيّن الله ﷻ السبب الذي يحول بين هؤلاء المكذبين المعاندين، وسلوك طريق الحق، وهو حبهم العاجلة أي: الدنيا، فهم متعلقون بزخرفها، وملذاتها، وشهواتها، كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾؛ يعني: ينسون ويهملون يوم القيامة، والواقع أنَّ ذلك اليوم أمامهم، لكن لما كانوا غافلين عنه، متناسين له، بدا وكأنه وراءهم؛ لأن الذي يجعل الشيء وراءه لا يهتم به، ولا يكترث به، ولا يلتفت إليه، ولذلك عبّر بقوله: ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ فقد اتخذوه ظهريًّا، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

قوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾، هذا تذكيرٌ بأصل الخلقة، التي نبّه عليها في أول السورة، ومعنى: ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، قال المفسِّرون: شددنا خلقهم، ومفاصلهم، وأعضاءهم، فهم خلقٌ متين، والعارفون بعلم وظائف الأعضاء «الفسيولوجيا» يدركون دقة خلق الإنسان؛ كيف ركّب الله تعالى هذه العظام، وكيف شدها بالأربطة، وثبت فيها العضلات

بالأوتار التي تشد خلق الانسان، حتى يصبح خلقًا متماسكًا، شديدًا.

إنَّ الصناعات التي يصنعها ابن آدم؛ كالسيارة التي تصنع من حديد، لا يمضي عليها أشهر، وسنيات، حتى تتناثر، وتحتاج إلى صيانة، وابن آدم، ربما عاش مئة سنة صحيحًا، تجري في بدنه عمليات حيوية بانتظام، صحيح أنه يضعف، وهذه سُنَّة الله، ويدب فيه الهرم؛ لكن عشرات العمليات تجري في لحظة واحدة، في بدنه؛ في جهازه العصبي، والهضمي، والتنفسي.

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾، قيل: إن (إذا) هنا بمنزلة (إن)، وأنَّ ذلك لم يقع، لكنه نوع من التهديد، كقول الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٦، ١٧]، فيكون من باب التهديد، بمعنى نأتي بخلقٍ سواكم. وقيل: المعنى، نفنيكم، ثم نُنْشؤكم نشأة أخرى، وهو البعث، وأنَّ المقصود بقوله: (أمثالكم)؛ يعني: أنتم أنفسكم؛ حيث يُعاد تركيبكم، فتكون هذه النسخة المعادة، مثيلةً للخلق الأول. فيكون دليلًا على البعث، من باب التذكير بالمبدأ، والاستدلال به على المعاد. وهذا أليق بالمقام.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾؛ يعني: ما جاء في هذه السورة من المواعظ البليغة، والتشويق، والتخويف، تذكرة؛ لأنها تجلو الغشاوة عن الأعين، والوَقر عن الآذان، والأكنَّة عن القلوب.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾، المعنى: أنتم أمام مسؤوليتكم؛ أعطاكم الله مشيئةً حقيقية، بها تأتون، وبها تذرون، لستم مُسيَّرين، ولستم مَقهورين، ولستم مجبورين، وعليها يترتب الثواب والعقاب.

وسبيل الله: لزوم طاعته واجتناب مَعصيته.

قولـه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾، هذه الآية، والتي قبلها، قانون الشرع والقدر، كي لا يُطَوحَ الإنسان كما طَوحت المعتزلة القدرية؛ فزعموا أن للعبد مشيئةٌ مستقلةٌ عن مشيئة الله، والعبد يخلق فعل نفسه. فبيَّن الله أنَّ مشيئة العباد، وإن كانت حقيقية، لا تخرج عن مشيئته؛ لأن مقتضى الربوبية نفوذ مشيئته، فمشيئة العباد داخلة تحت مشيئة ربِّ العباد. ولا تَعارض بين الأمرين؛ لأن المكلف حينما يأتي شيئًا، أو يَذر شيئًا، يفعله بسبق إصرار، ومحض اختيار، ولا يرى أنه مجبور على فعله، ولا يعلم ما قضى الله عليه في الأزل، فلا حجة له على الله بذلك. والذي سيقع منه هو الذي قد قدره الله في الأزل قطعًا، فله العلم المُطلق بما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يَكُن كيف لو كان يكون.

وقوله: ﴿حَكِيمًا ٣٠﴾؛ أي: حكيمًا في قَدَره، وحكيمًا في شَرعه، وفي حُكمه؛ فهو حكيمٌ في قدره. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ولا يفعل شيئًا عبثًا، ولهوًا، ولعبًا؛ بل لحكمة وغاية، خِلافًا لنفاة الحكمة والتعليل، من الجبرية والأشعرية. وهو حكيم في شرعه؛ لا يشرع إلا ما فيه مصلحة محضة، أو راجحة. وهو حكيمٌ في حكمه فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قولـه: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ٣١﴾، رحمته: جنته، كما جاء في الحديث القدسي: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي**»[1].

ونصَبَ (الظالمين) بفعلٍ مُقدر يُفهمُ من ما بعده؛ يعني: وأعد للظالمين عذابًا أليمًا، وهو النار، كما قال في الحديث السابق: «**وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٠)، وأخرجه مسلم برقم (٢٨٤٦).

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات تنزيل القرآن.

الفائدة الثانية: إثبات علوّ الله بذاته فوق مخلوقاته.

الفائدة الثالثة: وجوب الصبر لحكم الله الكوني والشرعي.

الفائدة الرابعة: الحذر من طاعة الآثم والكفور.

الفائدة الخامسة: فضيلة ذكر الله تعالى طَرَفي النهار.

الفائدة السادسة: فضيلة طول القيام والتهجُّد.

الفائدة السابعة: أثر الذكر والقيام في الصبر على طاعة الله والاستقامة.

الفائدة الثامنة: أنَّ حب الدنيا، والغفلة عن الآخرة، سبب للفسوق والعصيان.

الفائدة التاسعة: ثِقل يوم القيامة على الكافرين.

الفائدة العاشرة: كمال قدرة الله، وقوته، وإحاطته.

الفائدة الحادية عشرة: الاستدلال ببداءة الخلق على إعادته.

الفائدة الثانية عشرة: حصول التذكرة في القرآن عامة، وفي هذه السورة خاصة.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات مشيئة العبد وفعله، ودخولهما تحت مشيئة الربّ ومفعوله.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات اسمي الله العليم والحكيم، وما تضمَّناه من العلم والحكمة.

الفائدة الخامسة عشرة: أنَّ دخول الجنة برحمته، ودخول النار بعدله.





سورة المرسلات

سورة المرسلات، سمِّيت بهذا الاسم لورود هذه اللفظة في مطلعها، وهي سورة مكية باتفاق، سوى أنَّ ابن عباس ﵄ قال: إنَّ قول الله تعالى في آخرها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ مدنية. والأمر بالصلاة قد وجد في سورٍ مكيّة كثيرة.

مقاصد السورة:

١ ـ إثبات المعاد.

٢ ـ دلائل البعث، ومحاجة المنكرين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [المرسلات: ١ ـ ٧].

هذه خمسة أقسام على نسق، وجوابها. ولله ﷻ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لأحدٍ أن يقسم إلا بالله تعالى: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[1]؛ ذلك أنَّ القَسَم: هو تأكيد الشيء بذكر معظّم بصيغةٍ مخصوصة. فلا يجوز أن يكون التعظيم المطلق إلا لله ﷿، فلا يُحلف بغير الله؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أن يُحلَفَ بالكعبة، أو بالأمانة، أو أن نحلف بآبائنا فقال: «**من كان حالفًا فليحلف بالله**».

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٥٥٩٤)، وأبو داود رقم (٣٢٥١)، والترمذي رقم (١٥٣٥)، واللفظ له.

قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾، قيل في المرسلات أقوال متعددة؛ قيل: إنها الرياح؛ ذلك أنَّ الله تعالى يرسلها بشرى بين يدي رحمته. وقيل: إنها الملائكة، يرسلها الله ﷻ بأمره ووحيه. وقيل: إنها الرسل الذين بعثهم الله تعالى، فقال عن جماعاتهم مرسلات. وقيل غير ذلك. والأقربُ، والله أعلم، أنها الرياح؛ ذلك أنَّ الله ﷻ، إذا ذكر الرياح في كتابه عبر عنها بالإرسال، ووقع ذلك في سبعة مواضع في القرآن العظيم، من ذلك: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فهذا يعزز أن يكون المراد بالمرسلات الرياح، وهو قول أكثر المفسرين.

ومعنى (عُرْفًا)، على القول بأن المرسلات هي الرياح؛ أي: متتابعة كعُرف الخيل، وذلك أنَّ عُرف الخيل يكون على نسقٍ متتابع، بعضه يتلو بعضًا، فهكذا الرياح حينما يرسلها الله تعالى متتابعة. ولا ريب أنَّ الرياح من أعظم آيات الله الكونية، ولهذا ذكرها الله ﷻ في عشرة مواضع في القرآن الكريم، بهذا الاسم الصريح. وهي من دلائل ربوبيته سبحانه. والمشتغلون بالمناخ، وعلم الهيئة، يدركون دقة حركة الرياح، وتوزيعها، وأثرها في نقل السحب التي ينشئها الله تعالى. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨﴾ [الروم: ٤٨].

ومن قال: إنَّ المرسلات هي الملائكة، فسَّر ﴿عُرْفًا ۝١﴾ بالعُرف؛ أي: المعروف، وهو الحق الذي يرسل الله به أنبياءه ورسله.

قوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾، هي الرياح التي تهب هبوبًا شديدًا. وقيل: هي الملائكة، يأمرها الله تعالى أن تعصف بمن شاء. والأقرب أنها الرياح التي تعصف، وتهُب بشدة.

قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾، قيل: هي الرياح؛ لأنها تنشر السحاب وتنقله من موضع إلى موضع وتفرقه في السماء. وهذا هو الأقرب، لما تقدم من الآيات. وقيل: إن الناشرات هي الملائكة تنشر كتب الأعمال يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء: ١٣]؛ أي: مفتوحًا. وقيل: الأمطار إذِ المطر ينشر الأرض الميتة؛ أي: يحييها.

قوله: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤﴾، قيل: هي الرياح لأنها تفرّق السحاب. وقيل: هي الملائكة، إذ أنها تنزل بأمر الله تعالى فتفرق بين الحق والباطل. وقيل: إنها آي القرآن، تفرق بين الحلال والحرام، والحق والباطل.

قوله: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾، والملقيات: الأقرب أن تكون الملائكة؛ إذ الملائكة هي التي تنزل بالوحي، فتلقيه على أنبياء الله. وقيل: إنَّ الملقيات هي الرسل نفسها، إذ أنها تتلقى الوحي من الله ﷻ، وتلقيه على عباد الله تعالى.

ولهذه الأقسام المتتابعة نظائر في كتاب الله، بعضها يراد به الملائكة، كقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النازعات: ١ ـ ٤]، فهذه طوائف من الملائكة الكرام، وبعضها يراد به الرياح؛ كقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾ [الذاريات: ١، ٢].

قوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾، إما أن تكون هذه الجملة حالًا، وإما أن تكون مفعولًا لأجله، وقد قُرئت على أكثر من وجه منها: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ بالتسكين، وبالضم: (عُذُرًا أو نُذُرًا)، ومعناها: أنَّ سبب إلقاء هذا الذكر الإعذار، وإقامة الحجة، والإنذار؛ الذي هو الخبر المخُوف؛ فملائكة الرحمٰن التي تنزل بوحيه على رسله، تُقِيم الحجة على الناس،

وتقطع أعذارهم، وتنذرهم ما هم مقبلون عليه، ورسل الرحمٰن الذين يتلقون وحيه، ويدعون العباد إليه، كذلك، فلهذا قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾، جواب الأقسام السابقة.

و﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، كأن الغاية القصوى من هذا التأكيد، والقطع، والجزم، هو إثبات هذه الحقيقة التي ينازعون فيها، وهي البعث بعد الموت. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات: ٥، ٦]، فدلَّ على أنَّ المقصود بالقطع بالوقوع هو ما أنكروه، وهو المعاد، الذي كان مستبعدًا بالنسبة لهم، حتى إن أُبيَّ بن خلف، أتى رسول الله ﷺ، بعظم حائل، ففتَّه، ثم ذراه في الريح، ثم قال: يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ قال: «**الله يحييه، ثم يميته، ثم يُدخلك النار**»[1].

📖 ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ **[المرسلات: ٨ ـ ١٥].**

قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾، هذا تفصيلٌ وبيانٌ لهذا الأمر الواقع الذي أقسم الله تعالى على وقوعه بهذه الأقسام الخمسة. والنجوم معروفة، وهي الأجرام السماوية التي تتلألأ في ظلمة الليل، فإذا كان يوم القيامة سُلب ضوؤها وذهب نورها.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾؛ أي: شُقت. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة: ١٦]،

(١) تفسير الطبري (٢٠/٥٥٤).

فأخبر الله تعالى بأنها واهية، فهذه السماء المحكمة، المتقنة، التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: ٣]، تتشقق يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠﴾، هذه الجبال الصلبة، الصلدة، الراسخة، الشاهقة، إذا كان يوم القيامة ذهب بها سريعًا. كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨]، فهذه الجبال التي هي من أعظم مخلوقات الله، ويقرنها الله تعالى بالسمٰوات، والأرض، كما في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، تصبح يوم القيامة هباءً منبثًّا، وقاعًا صفصفًا.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾، قرئت: ﴿أُقِّتَتۡ ۝١١﴾ بالهمز، وقرئت بالواو: (وُقّتت)، وقرئت بالتخفيف، وقرئت بالتشديد، والمعنى واحد، يعني: ضُرب لهم ميقات مؤجل، كما دل عليه قوله بعدها: ﴿لِأَىِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢﴾، وإنما نصّ على الرسل خاصة؛ لأنهم هم الشهود على أممهم، قال تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١]، فكل رسول يشهد على أمته.

فهذه صور من أحداثِ يوم القيامة، نبّه الله ﷻ عليها بهذه الجمل الواقعة بعد جواب القسم، لكي تكون كالتفسير له، وربُّنا سبحانه وبحمده، كثيرًا ما يذكر صور القيامة ومشاهدها في القرآن العظيم، بطريقةٍ مثيرةٍ عجيبة، يسرح الخيال في تصورها، والتفكر في معانيها، وأنَّى له أن يدرك حقيقتها، وكيفيتها! لكنه يدرك المعنى المعهود في الأذهان، فيطلق العنان في تصور أبعاده، حتى تحصل له بذلك الموعظة والذكرى.

قوله: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣﴾، وهو: اسمٌ من أسماء يوم القيامة، وقد

أسلفنا القول: أنَّ أسماء القيامة أسماءٌ وأعلام، كما نقول في أسماء ربّنا ﷻ، وأسماء نبيه ﷺ، وأسماء القرآن، فكل ما سمّاه الله تعالى فهو اسمٌ ووصف؛ ذلك أنه يكون عَلَمًا على ذلك المعيّن، ويحمل وصفًا دالًّا عليه.

وليوم القيامة أسماء متعددة، بلغ بها بعض العلماء أربعين اسمًا؛ بل وصل بها بعضهم إلى ثمانين. وعامتها مذكورة في القرآن العظيم، مثل: الآزفة، الصاخة، الطامة، القارعة، يوم الدين، ويوم التغابن، وههنا يوم الفصل. وسمِّي بذلك لأنه ظرف زمان يفصل فيه بين العباد؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، ويفصل في أعمالهم، ومراتبهم، ومنازلهم.

قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤﴾، هذا الاستفهام للتعظيم والتفخيم، وكثيرٌ ما يقع في القرآن العظيم مثل هذا الأسلوب ليعظّم الله تعالى به المقصود، منه قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، وقوله: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]، فالله تعالى يسُوقُه على سبيل الاستفهام، ليستثير الأذهان.

قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾، هذه الجملة تكررت في هذه السورة نحو عشْر مرات، وليس هذا من باب الحشو، والتكرار الذي لا فائدة منه، حاشا وكلّا! فليس في القرآن شيء زائد، ولا حشوٌ لا طائل من ورائه. والله ﷻ يكرر بعض الآيات في كتابه، كما في سورة الرحمٰن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمٰن: ١٣]، والمراد منها في كل موضع من السورة وعيد من كذّب بما تقدم ذكره، فمن أنكر ما تقدم ذكره من المعاد؛ فالويل له، والويل: كلمة وعيد. وقيل: إن الويل اسم وادٍ في جهنم.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩].

قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾، استفهام تقريري، تتلوه جمل تقريرية ينبه الله تعالى فيها على سننه الكونية، لكي تكون دليلًا على ما سيقت لأجله من بيان عاقبة المكذبين بالدين. وفي هذا وخْزٌ لضمائرهم، لينظروا في سنن الله في الأمم السابقة: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾؟ والجواب: بلى. وإذا صدّر الاستفهام بهمزة، فجوابه (بلى) في حال الإثبات.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧﴾، إشارة إلى من عاصر النبي ﷺ من منكري البعث من كفار مكة، أو مشركي العرب، وقيل: إنَّ المراد بالأولين: الأمم البائدة؛ مثل: عاد، وثمود، ومَدين، وأن الآخرين: هم قوم إبراهيم، وآل فرعون، ونحوهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾؛ أي: أنَّ ما صنعه الله تعالى بالأوَّلين والآخرين، سُنّة مطّردةٌ باقية، يجريها الله تعالى وفق حكمته. وفي هذا تخويفٌ، وإيعادٌ، ونذارةٌ لمُنكِر البعث. وختم الله هذه الآيات بالجملة المتكررة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾، وعيدًا على من كذَّب بما تضمَّنته.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٤].

قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾، هذا لونٌ جديد من ألوان الاستدلال على إثبات المعاد، فما تقدم هو استدلال بسنن الله الكونية، وهذا استدلالٌ بالمبدأ على المعاد؛ فالتذكير بالمبدأ يجعل الأمر محل

قناعة، فإن القادر على بدء الخلق، قادرٌ على إعادته؛ بل هو أهون عليه.

وفي **قوله**: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾، أدغم عامة القراء القاف في الكاف، فلم يُظهر القاف. وفي قراءة قالون عن نافع إظهار القاف. والماء المهين: المني الذي يخرج من الرجل، ومن المرأة، فيحصل بهما النطفة الأمشاج، التي تقدم ذكرها في سورة الإنسان. وهو مهين؛ أي: حقير، تشمئز النفس من نتنهِ، ومرآه.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾، هو الرحم الذي جعله الله في موضعٍ تحيط به العظام، من صلب المرأة، وحوضها، حتى لا يتعرض لسوءٍ. وجعل الله تعالى غذاء هذا الجنين مرتبطًا بهذا الغلاف السميك للرحم، وجعل وجههُ تلقاء ظهر أمه، كي يكون ذلك أحفظ له. فيمكث تسعة أشهر في هذا الوعاء الذي يمدهُ بالغذاء، وينمو نموًّا تدريجيًّا في خلقته، كما وصف الله تعالى في سورة المؤمنون وسورة الحج وغيرهما.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾، هو الموعد الذي ضربه الله تعالى لخروج هذا المخلوق إلى الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨]، فكل إنسان قد حدَّ الله له حدًّا، وقدر له قدرًا.

فقوله: ﴿فَقَدَرْنَا﴾، من القدرة، ومن التقدير، فلهذا قرأت بالقراءتين بالتخفيف وبالتشديد، (فَقَدَرْنَا) أدل على القدرة، و(فَقَدَّرْنَا) أدل على التقدير.

قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، إي والله! إنَّ الباحث ليذهل حينما يقف على مراحل تخليق الجنين، وما يمر به من أطوار، وكيف تتخصص خلاياه، وقد كانت خلية واحدة، تتابعت عليه الانقسامات ثمَّ استحالت إلى عين، وأذن، وقلب، وكبد! وخلايا عصبية، وخلايا هضمية، وخلايا عضلية، وهكذا، شيءٌ عجيبُ مذهل!

ولهذا فإني أدعو إخواني، طلبة العلم، إلى أن يقرؤوا في تفاصيل هذه المعلومات، التي أظهرها وجلّاها العلم الحديث، فإن في هذا زيادة إيمان، وتفكر، واعتبار. وفرق ما بين المؤمن وغير المؤمن، أنَّ المؤمن حينما يقرؤها يزداد إيمانًا، بينما يقرؤها غير المؤمن كما يقرأ جملة من الأرقام والبيانات، لا تحرك فيه ساكنًا، كما أخبر ربنا بقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]. وقد ختم الله هذه الجملة من الآيات **بقوله**: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وعيدًا على من أنكر ذلك وكذبه.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٨].

ثمّ ذكر الله تعالى ضربًا ثالثًا من الأدلة على إثبات المعاد ألا وهي الدلائل الأرضية، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾، هذه الطائفة من الآيات تدلُّ على كمال قدرة الله ﷻ، وإمكان البعث، وأنه هيِّن عليه. فهذه الأرض أمُّنا التي حوتنا، وضمَّتنا، وعشنا في حجرها، ونعودُ إليها، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وقوله: ﴿كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾، الكفتُ: هو الضم؛ أي: أنها تضمكم أحياءً وأمواتًا، فنحن في أكنانها في البيوت، والكهوف، والمغارات، والظلال، كما قال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١]، وهي أيضًا بعد موتنا توارينا، فقد علَّم الله البشر أن يدفنوا موتاهم، كما في قصة ابني آدم، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة: ٣١].

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾، المراد بها الجبال، وسمِّيت «رواسي»، لرسوها، ورسوخها، وتجذرها في الأرض، كما وصفها الله بقوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٧]، يقول علماء الهيئة (الجغرافيا): إن في بطن الأرض كما على ظهرها من الجبل، فإذا كان ارتفاع الجبل ٥٠٠ متر مثلًا، فله عمق مثله في بطن الأرض، فهي بمنزلة الأوتاد.

ومعنى «شامخات»: أي: شاهقات في جوِّ السماء. فتأمل هذا التقابل بين كونها رواسي، تسيخ في العمق، وكونها شامخات، تشهق في العلو.

قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾، هذه إشارةٌ إلى المطر الذي جعله الله حياة للإنسان، والحيوان، والنبات. ومعنى فراتًا: أي: عذبًا زُلالًا، فامتن بهذا الوصف، لكونه هو الوصف الصالح للاستمتاع والشرب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾، الذين لا يعتبرون بهذه الآيات الأرضية، والآفاقية، ويل لهم!، فدلت هذه الجملة من الآيات على أن القادر على خلق هذه الأشياء، وجعل الأرض كفاتًا، قادرٌ على إعادة خلقهم. قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

📖 ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾ **[المرسلات: ٢٩ ـ ٣٤].**

قوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩﴾، تغيرٌ في الخطاب، والتفاتٌ يُلْفِتْ الأنظار ويسترعي الانتباه ﴿انْطَلِقُوا﴾، بصيغة الأمر، الذي

يجبه المكذبين؛ كانوا يكذبون بالبعث، وكانوا يكذبون بالنار، فكأنما رُحِّلوا إلى ذلك اليوم الموعود الذي يُنكرونه.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، وقُرئت على صيغة الخبر: (انْطَلَقُوا)، والقراءة المشهورة بصيغة الأمر، في الثانية كما في الأولى. والشُّعب: الأجزاء المفترقة، وذلك لأن دخان اللهب إذا ارتفع في السماء يتقطع فرقًا، فإذا تصاعد الدخان من لهب جهنم، نشأ له ظل، فإذا ارتفع تفرق إلى ثلاث شعب، كما وصف بعض المفسرين: شعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله، وشعبة فوق رأسه، فهي تكتنفه من كل مكان. وبئس الظل هو! فقد وصفه الله بقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]. في حين أنَّ عباد الله تحت ظل عرش الرحمٰن، يوم لا ظلَّ إلا ظله.

قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: ليس الظل الذي يقيهم من الحر، ولا يمنع عنهم ألسنة اللهب من نار جهنم. وربما دلَّ ذكر اللَّهب على أنَّ ذلك يقع بعد عَرَصَات القيامة، وظاهر السياق أنه يكون بعد بعثهم، فيكون ذلك دخان يخرج من نار جهنم، فيقعون فيه.

قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾، أضمرها ولم يُسمِّها، لمزيد تعظيم شأنها، وخطرها، وشدتها، وهي النار. و(ترمي)؛ أي: تقذف. و(الشرر): هو ما يتطاير من النار من شظايا، جمع شرارة، أو شرار. وقوله: ﴿كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: بحجم القصر، وهي البيوت العظيمة. وقرئت: كالقُصَر، وهي مقدار من الحطب يبلغ نحو ثلاثة أذرع، كانوا يتخذونه، ويحفظونه للشتاء، فمثَّل بشيء يعهدونه في أذهانهم.

قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: كأن الشرر المرمي جمالت، جمع جِمال، فهي جمع الجمع، ووصفها بالصفر، تشبيهًا لها بنوعٍ خاصٍّ

من الإبل، وهي السود المشوبة بصفرة، ويقال: لا يكاد يوجد إبل سوداء، إلا وهي مشوبة بصفرة، فلذلك سموها صُفر. وختمها بالجملة التعقيبية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾، مُتوعِّدًا، مهددًا، المكذبين بالمعاد، وما يقع فيه من حوادث.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٧].

قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾، في هذا الحر الشديد، والأتون الرهيب، لا يتمكنون من النطق، تعقل ألسنتهم فلا يتمكنون من الاعتذار، ولا الإفصاح عن مكنونات قلوبهم؛ لأن الدهشة قد أخذتهم، وبلغت القلوب الحناجر، وإن كانوا في بعض مواضع القيامة يأخذون في الاعتذار، ويحلفون الأيمان، ويكذبون الكرام الكاتبين، لكنهم في هذا الموضع العصيب يُختم عليهم، فلا يتمكنون لشدة الهول من البيان. فيا لها من حال بئيسة.

ما أعجب تصوير القرآن لحال المُكذِّبين يوم القيامة! إنَّ فيه من العِظة، والعِبرة، لمن شرح الله صدره، ما يحمله على أن ينخلع مما هو فيه من كفر، وتكذيب، وفسوق، وعصيان. فأما من خُتِم على قلبه، فما تنفعه موعظة، ولا ادِّكار، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المرسلات: ٣٨ ـ ٤٠].

قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أعاد التعريف باليوم، ووصفه بالفصل، وزاد وصفه بالجمع، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، فيجمع الأولين والآخرين على صعيدٍ واحد، رغم تفاوت أزمانهم، وتباعد أقطارهم، واختلاف أحجامهم، فكلهم في قبضته، وتحت سلطانه. ثم يتحداهم جميعًا أن يُفلِتوا من قبضته، أو ينفذوا من سلطانه، مهما بلغت حيلتهم، وتدبيرهم، كما قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٣]. ثم يكرر عليهم الوعيد بالويل، جرَّاء تكذيبهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[المرسلات: ٤١ ـ ٥٠].

ولما ذكر الله حال المُكذِّبين، قابله بحال المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾، فإن كان أولئك في ظلٍّ ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني عن اللهب، فإن المتقين في ظلال ظليلة، وعيون سارحة مريئة، وهم في عرصات القيامة في ظلِّ عرش الرحمٰن، وفي الجنة في ظلال أشجارها. فالظلال من فوقهم والعيون تجري من تحتهم.

قوله: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وهو ما يتفكَّهون به من أنواع المآكل. وقد جاء في السُّنَّة وصفٌ رقيقٌ لنعيم أهل الجنة، وكيف أنَّ الرجل من أهل الجنة إذا اشتهى الثمرة تدلَّت له، حتى صارت في متناول يده، فإذا قضى منها نهمته، ارتفعت. وفي الحديث القدسي: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ**

بَشَرٍ»[١]، فيمتعهم الله تعالى متاعًا حسيًا، ومتاعًا نفسيًا، فهم في نعيمٍ ودعة، وأُنسٍ وراحةِ بال، يتقلبون في أنواع المتاع؛ من المآكل، والمشارب، والمناكح، وسائر المتع الحسية، والمعنوية.

قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، هذه الباء ليست باء المعاوضة، ولا باء الثمنية، ولا باء المقابلة؛ بل هي باء السببية. فبهذا نجمع بين الآية، وبين حديث الرسول ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[٢]، فالباء المنفية باء الثمنية والعوض والمقابلة، والباء المثبتة باء السببية، فأعمالهم كانت سببًا في دخولهم الجنة، لا عوضًا وثمنًا، كما تدعي المعتزلة.

قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾، قانون العدل الإلٰهي، قامت به السماوات والأرض، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؛ فالله تعالى مُتفضِّلٌ، مُنعمٌ، شكور، كما أنه حكمٌ عدلٌ مُقسط.

قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾، هذه الجملة التعقيبية المتكررة، تتعلق بما تقدم ذكره آنفًا، فمن كذب بنعيم أهل الجنة؛ فالويل له.

قوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾، التفاتٌ إلى الفريق الآخر وهم المجرمون، كقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣]. فلما كان الحديث عن نعيم المتقين، من الأكل، والشرب، أراد الله ﷻ أن يبكِّت المكذبين، ويندّمهم، فهم في النّار إنما يأكلون الضريع، والزقّوم، ويشربون الحميم، والغسلين. فأنتم في الدُّنيا تأكلون، وتتمتعون كما تأكل الأنعام، متاعٌ قليل، متاعٌ زائل، تنالون ما قُسم لكم بمقتضى الربوبية، فإن الله ﷻ، قد تكفَّل لكل دابة بما يقيم

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٢٤٤)، ومسلم رقم (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٨١٦).

أودها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فهم وإن رزقهم الله، لكنه رزقٌ لا يحل لهم، قال ربنا ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فقد أباح الله الطيبات للمؤمنين في الحياة الدنيا، وأنكر على من حرَّمها، لكن يشرَكهم غيرهم من الكفار، في المآكل، والمشارب، وربما فاقوهم في التمتع بها، دون إباحة، ويوم القيامة تكون خالصة للمؤمنين.

وقد أخبر النبي ﷺ بأنه: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»[١]،

قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾، هذه الجملة التعقيبية المتكررة، تتعلق بما تقدم ذكره آنفًا، فمن كذب بوعيد المجرمين؛ فالويل له.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، كانوا حينما يُندبون إلى الخضوع لله ﷻ والصلاة، يأبون ويستنكفون، ولا يظهرون العبودية المستحقة لله تعالى، وبعضهم يقع في نفسه كبر جاهلي، فقد روي أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ، لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ، لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا، وَلَا يُعْشَرُوا، وَلَا يُجَبُّوا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا وَلَا تُعْشَرُوا وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ**»[٢]. قال

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٠٧).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٧٩١٣)، وأبو داود رقم (٣٠٢٨).

الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: أن لا يُجبُّوا معناه: لا يصلوا، وأصل التجبية أن يكب الإنسان على مقدّمه ويرفع مؤخره)[١].

ومن طريف ما يُحكى في هذا المقام، أنَّ الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ كان لا يرى تحية المسجد في وقت النَّهي، فدخل المسجد يومًا بعد صلاة العصر، فجلس، فأقبل إليه صبي، وقال له: يا شيخ! قم فاركع ركعتين، فقام رَحِمَهُ اللَّهُ وركع ركعتين، فقال له أصحابه في ذلك، قال: إني خشيت أن أكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾. وقد عدَّ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية الدليل العاشر من أدلة القائلين بكفر تارك الصلاة، ولو تهاونًا وكسلًا، فقال: (ذكر هذا بعد قوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾، ثم توعدهم على ترك الركوع، وهو الصلاة إذا دُعوا إليها. ولا يقال: إنما توعَّدهم على التكذيب، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إنما أخبر عن تركهم لها، وعليه وقع الوعيد)[٢].

قوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾، إذا لم يُقنِعْهُم القرآن، ولم يخضعوا لآياته، ودلائله، وحججه، وبراهينه، فماذا عسى أن يقتنعوا به؟

وفي هذا إلماحة إلى الدعاة، أنه ينبغي أن يكون دليلهم الأول، وسلاحهم الذي عليه المعوّل، القرآن العظيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥١]. فيجب أن يستشعر الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ أعظم سلاح معه القرآن العظيم، وأنّه ينبغي أن يحتج به، ويستدل به، وينهل من مَعِينه، ويستخرج الدلائل التي أودعها الله فيه. فلا يغرنّك ما تسمع من كلام بعض المتكلمين، أو العصرانيين المتفلسفين، الذين يقولون: دعوا النصوص جانبًا، هذه أدلة سمعية، وعليكم بالأدلة العقلية! فيقال: ما كان من حقٍّ فيما يذكرون فهو موجودٌ في القرآن العظيم؛

---

(١) معالم السنن (٣/ ٣٤).

(٢) الصلاة وأحكام تاركها (٤٣).

فالقرآن يتضمن العقل، والنقل معًا، فليس هناك دليل أقوى من أدلة القرآن، ولا موعظة أعظم من موعظة القرآن. فتمسك بهذا أيها المؤمن، وأيها الداعية، ويا طالب العلم، ولا تعدل به شيئًا، ولا تبحث عمّا سواه، ولا تحاول أن تتسلح بغير سلاح القرآن، فهي أسلحة واهية، ضعيفة، بجنب سلاح القرآن، وقوته، وسلطانه. ولهذا قال ربنا ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فأول ما نقرع به سمعه القرآن، والله المستعان.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام الله تعالى بما شاء من مخلوقاته، وشرف المُقسَم به؛ فإن الله تعالى لا يقسم إلا بأمرٍ شريف.

الفائدة الثانية: تسخير الله تعالى مخلوقاته؛ من الرياح، والملائكة.

الفائدة الثالثة: أنَّ آيات القرآن فُرقانٌ بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، والحلال والحرام.

الفائدة الرابعة: أنَّ القرآن ذكرٌ للقلوب، وإعذارٌ، وإنذارٌ للنَّاس.

الفائدة الخامسة: إثبات المعاد، والقطع بذلك.

الفائدة السادسة: بيان المتغيرات الكونية في السماوات والأرض، يوم القيامة.

الفائدة السابعة: شهادة الرسل على أقوامهم.

الفائدة الثامنة: أنَّ من أسماء القيامة (يوم الفصل) وهو اسمٌ ووصف.

الفائدة التاسعة: وعيد المكذبين بالبعث.

الفائدة العاشرة: سُنَّة الله المطّردة في إهلاك المكذبين.

الفائدة الحادية عشرة: الاستدلال بالخلق الأول على إعادته.

الفائدة الثانية عشرة: بديع خلق الله، وكمال قدرته في خلق الإنسان، وتطوره.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات القدر السابق.

الفائدة الرابعة عشرة: الاستدلال بالأدلة الأرضية على إثبات البعث.

الفائدة الخامسة عشرة: الاستدلال بالخلق الأعظم على ما دونه.

الفائدة السادسة عشرة: أسلوب الالتفات، وأسلوب التكرار، في القرآن؛ فالقرآن بديع تتنوع أساليبه، لا يَمَلُّه قارئه، ولا يَبْلَى على كَثْرَةِ الرَّد.

الفائدة السابعة عشرة: شدة عذاب جهنم، وسَوْقِ المكذبين إليها كرهًا.

الفائدة الثامنة عشرة: إلجام أفواه المكذبين، وعقل ألسنتهم عن الكلام، والاعتذار، لشدة الهول.

الفائدة التاسعة عشرة: انقطاع حيلة المكذبين يوم القيامة، وإبلاسهم.

الفائدة العشرون: كمال نعيم المؤمنين الحسِّيِّ والمعنوي، في الجنة.

الفائدة الحادية والعشرون: أنَّ العمل سبب لدخول الجنة، لا ثمن لها.

الفائدة الثانية والعشرون: أنَّ الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الثالثة والعشرون: أنَّ متاع الدنيا قليل.

الفائدة الرابعة والعشرون: أنَّ ترك الصلاة مُخرِجٌ عن الملة، ومن موجبات الخلود في النار. وعلى هذا السلف المتقدمون، حتى حكي الإجماع على ذلك.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنَّ القرآن العظيم بلغ الغاية في الإعجاز والإقناع.



فهرس المراجع

١ - **القرآن الكريم**.

٢ - **الأدب المفرد**، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣ - **أصول في التفسير**، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، طبعة، دار ابن الجوزي، ١٤٢٦هـ.

٤ - **البداية والنهاية**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥ - **بدائع الفوائد**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، عدد الأجزاء: ٤.

٦ - **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٧ - **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢هـ)، المحقق: أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، الناشر: مؤسسة قرطبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٨ - **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى ٣١٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٩ ـ **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ٩.

١٠ ـ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى ٦٧١هـ)، المحقق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

١١ ـ **خلق أفعال العباد**، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى ٢٥٦هـ)، المحقق: د. عبد الرحمٰن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية، الرياض.

١٢ ـ **الرسالة التدمرية**، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

١٣ ـ **زاد المُجِد الساري إلى صحيح البخاري**، المؤلف : محمد التاودي بن الطالب بن علي بن سودة ، المري، الفاسي، (المتوفى ١٢٠٩ هـ)، حاشية على صحيح البخاري، في ثلاث مجلدات ضخمة.

١٤ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٥ ـ **السلسلة الصحيحة**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.

١٦ ـ **السنن (المعروف بالسنن الكبرى)**، المؤلف: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي. (المتوفى ٣٠٣هـ)، المحقق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل، القاهرة.

١٧ ـ **سنن ابن ماجه**، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى ٢٧٣هـ)، المؤلف: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: ٢.

١٨ ـ **سنن أبي داود**، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

١٩ ـ **سنن الترمذي**، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، عدد الأجزاء: ٥.

٢٠ ـ **سنن الدارقطني**، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢١ ـ **السنن الصغرى**، للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، (المتوفى ٣٠٣هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٩؛ (٨ ومجلد للفهارس).

٢٢ ـ **السنن الكبرى**، المؤلف: أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، (المتوفى ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٣ ـ **السنن الكبير**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ البيهقي (٣٨٤ ـ ٤٥٨هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (الدكتور عبد السند حسن يمامة)، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٢٤ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، (ت٢١٣هـ)، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٥ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى ٢١٣هـ)، المحقق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

٢٦ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى ٧٩٢هـ)، المحقق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧ ـ **شعب الإيمان**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، المحقق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٨ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى ٣٥٤هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٩ ـ **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، المؤلف: أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: ٢.

٣٠ ـ **الصلاة وأحكام تاركها**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، المحقق: تيسير زعيتر، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٣١ ـ **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٢ ـ **طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)**، المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى ٨٠٦هـ)، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى ٨٢٦هـ)، الناشر: المطبعة المصرية القديمة ـ وصوَّرتها دور عدة منها: (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).

٣٣ ـ **عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٣٤ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٣٥ ـ **كتاب الأصنام**، المؤلف: أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي (المتوفى ٢٠٤هـ)، المحقق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٠م.

٣٦ ـ **كتاب الدعاء**، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى ٣٦٠هـ)، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٧ ـ **كتاب الزهد الكبير**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى ٤٥٨هـ)، المحقق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

٣٨ ـ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ عدد الأجزاء: ٧.

٣٩ ـ **الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع**، المؤلف: الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. المحقق: حمد بن علي الصالحي، طبعة: دار طيبة الخضراء.

٤٠ ـ **مجموع الفتاوى**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٤١ ـ **مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٤٢ ـ **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى ٤٠٥هـ)، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٤.

٤٣ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٤٤ ـ **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (المتوفى ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

٤٥ ـ **مشكاة المصابيح**، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.

٤٦ ـ **معالم السنن**، وهو شرح سنن أبي داود، المؤلف: أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى ٣٨٨هـ)، الناشر: المطبعة العلمية، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

٤٧ ـ **المعجم الكبير**، المؤلف: أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، (المتوفى ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٤٨ ـ **منهاج السُنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، المؤلف: تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤٩ ـ **نظم القواعد الفقهية**، المؤلف: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

فهرس المحتويات


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 298473